

المرايا

الخان



محمد البرادعي العسلي

رواية

الجزء الثالث

طبعة ثانية

دار الندى للنشر

- دمشق - شارع الروضة - هـ : ٣٣٣٨١٦١



محمد ابراهيم العلي

كلمة أولى

عندما اختارت «دار الشيخ» هذه الرواية التي بين يدي القارئ «الخان» للروائي محمد ابراهيم العلي ، لم يكن ذلك مجرد مصادفة ، فلقد نشرت له قبلها رواية «الذئب» والتي اشارت الى صدور هذه الرواية . وهي تمثل في واقع الامر الجزء الثالث من الملحمة الروائية «المراي» بأجزائها الستة «المراي ، المخاتير ، الخان ، المحطة ، الفجرية ، الوكلاء» .

وفي هذه الملحمة الروائية يسلط الكاتب الضوء على فترة زمنية حاسمة من تاريخ الوطن هي من عام ١٩٤٠ - ١٩٥٤ ويسرد لنا بقلب روائي ممتع احداثا جساما تركت آثاراً واضحة على مجمل حركة التحرر الوطني لا في قطرنا وحسب بل في العالم العربي من غير الجائز تجاهلها او التقليل من خطرها . وأبرز أمراض التجزئة والاشخاص والجماعات الذين يدورون في فلك الاستعمار وينفذون سياساته .

وهدف الاستعمار والصهيونية كان وما يزال اضعاف الوجود العربي والامعان في تجزئته ومن ثم الحيلولة بينه وبين وحدته .

ان رواية «الخان» حلقة من هذا العمل الروائي الملحمي ، هي عمل ادبي كبير لما له من اهمية في شرح المتناقضات القائمة بين الريف والمدينة في تلك الحقبة ، والاتجاهات السياسية والقوى الحزبية التي كانت قائمة آنذ ، ومن ثم الاشخاص الذين لعبوا دورا اساسيا في تحريك تلك الاحداث ، والاهم من ذلك خلفية هذه الاحداث .

ويعدّ الكاتب شاهدا على احداث تلك الرواية . عندما كان طالبا في ثانويات مدينة حماه ، ومعلما عند البدو في حوض الفرات .

ان مهمة الكاتب الروائي تختلف عن مهمة المؤرخ ، الذي يكتب عن فترة زمنية محددة ، فكاتب الرواية التاريخي عليه ان يستشف المواقف الانسانية والاحداث ويرى بحسه الفني امورا تخالج النفس البشرية بطريقة لا يراها غيره .

وقد تكون هذه الامور علامات حساسة في بلورة
الحدث التاريخي وصياغته تؤثر في مساره وتوجهه .
وهنا أجاد الكاتب محمد ابراهيم العلي في وصف
الشرائح الاجتماعية المختلفة ابان تلك الفترة .
والى جانب هذه الرواية هناك للمؤلف عدد آخر من
الاعمال الادبية .
وسيرى القارئ في نهاية الرواية ترجمة مفصلة لحياة
هذا الاديب .

دار الشيخ

توسط القمر الفضي قبة السماء . كانت القرى
منتشرة تحت ضيائه يلفها صمت ثقيل والى جوارها في
الاراضي المفلوحة والحقول البور تتجمع قطعان مع رعائها
وقد تحسست قدوم الربيع . وفي هدأة الليل لم يكن يسمع
سوى عواء ذئب بين حين وآخر ، ترد عليه الكلاب
بتناقل .

اقرب عواء ثعالب تحمله ربح هادئة تميل الى
البرودة . وكان الفلاحون الذين سعوا مع مواشيهم
يلبسون فروات من جلود الخراف ليقاوموا بها بقايا الفصل
البارد الراحل .

كان عبد الله يركب فرسه يبحث في الحقول عن
أخيه ابراهيم الذي يراقب الزرع ويحميه من المواشي
المتطفلة . و ابراهيم هذا رجل قوي يركب فرسه طوال

الليل دون توقف . وكما هي عادة البدو ، لا يلجم فرسه حتى تستطيع ان ترعى وتقضم العشب . وهي تعرف عادات صاحبها ورغباته لذلك فهي مطواع له لا تلقيه ارضا رغم الوقت الطويل الذي يقضيه على ظهرها يتنقل بين الاراضي ويراقب الزرع ويحميه من مواشي البدو .

في تلك الليلة كان دوره في الحراسة . لم يكن يعلم بمجي شقيقه عبد الله ، لقد رحل عبد الله من القرية منذ فترة قصيرة . وها هو يعود اليها ليرى أخاه ويتحدث اليه كعادته كلما حدث له شيء جديد . كان يصرخ من بعيد بأعلى صوته :

- ابراهيم . ابراهيم

وكان الاسم يتردد مع صدى الاشياء المتناغمة الموسيقية التي تطلقها الطبيعة في كل مكان .

ورد ابراهيم بعد أن عرف مناديه :

- عبد الله . هنا . أنا هنا . - ايه . . اب -

وصل اليه وفرسه التي يركبها تتصبب عرقا من الجهد والمسافة الطويلة التي قطعتها . حياه ثم نزل وعانقه وتركا فرسيهما ترعيان على اطراف الزرع . وأخذ كل منهما

يسأل الاخر عن احواله وأخباره . هكذا كان شأنهما في لقاءاتهما القصيرة تلك . لكن عبد الله لم يكن ليطلب في الاخبار الشخصية والعائلية اذ سرعان ما كان ينتقل الى الاخبار العامة التي تشغل باله . وكانت هذه هي عادته منذ دخل في حزب العربي الاشتراكي وصار عضوا فيه .

كان رجلا صلبا . متمردا يميل الى المشاكسة رغم طيبة قلبه وأشد ما يكره النفاق ومسايرة رجال الاقطاع . لقد رفض اقطاعيو المنطقة تشغيله في أراضيهم لطباعه هذه ، فرحل نهائيا الى منطقة الغاب . كان طويل القامة ممتلئ الجسم نحاسي البشرة من طول التعرض للشمس . عيناه مائلتان الى الخضرة وجهه مطبوع بآثار جدري أصيب به في طفولته .

فجأة قطع عبد الله الحديث بصوته العالي الجمهوري ، وأنبأ أخاه ابراهيم بأن هناك أمورا جديدة تحدث في السياسة . وما كان يظنه بأن الفلاحين سيراتاحون بعد رحيل الفرنسيين ثبت خطؤه وتعمدت الامور أكثر مما يجب .

وبكل هدوء رد عليه ابراهيم :

- يا أخي أنا لا أعرف الكثير عما تقوله ، ولكن ماذا بوسعنا أن نعمل سواء أكان الاقطاعيون أسوأ من الفرنسيين أو أحسن منهم . في رأيي أن الاقطاعيين يظلمون أحسن من الفرنسيين ، فان يحكمك ظالم من بلدك أفضل من أن يحكمك ظالم غريب . وقد يأتي وقت يذهب فيه الظلم الى غير رجعة لاننا لن نظل هكذا الى الابد .

وتوقف ابراهيم عن الكلام ثم تابع :

- أذكر انك قلت لي يوما إنك انتسبت الى الحزب العربي الاشتراكي

وتنهى عبد الله وقال :

- وماذا بوسع هذا الحزب ان يفعل سوى ان يحرض الناس ويدخل أعضائه السجن ، دون أن يستطيع تخليصهم . أنت تذكر عندما اختلفت مع الاقطاعيين في القرى الشرقية ورحلوني أنا وأسرتي في ليلة سوداء لاهانتني . ماذا فعل الحزب ؟ وماذا يستطيع أن يفعل ؟ يومها اشتكيت الى الحزب . واشتكى الحزب للمحافظ لكنه .. وهكذا ضحك علينا وعلى الحزب .

عندئذ توقف عبد الله عن الكلام ونظر حوله باهتمام

كانه يود أن يفضي لآخيه بسر . ثم تابع بصوت هامس :
- اتيت ببعض المناشير الحزبية ، وأنا لا أعرف
القراءة لكنني أعرف ماتحتويه . الحزب يتحدث في هذه
المناشير عن اتفاقية رودس^(١) والتابلاين^(٢) . وعن اتفاقية
النقد مع فرنسا . وقد وزعت جزءاً منها في القرى التي
مررت بها . سأعطيك عدداً منها لتوزعها في القرية .
وقال ابراهيم متسائلاً :

- وماذا بوسعنا أن نعمل . هناك برلمان وحكومة
وجيش . هم يقررون ونحن نسمع . نحن لا نستطيع أن
نعرف ما يدور في هذا العالم من غرائب . حتى خانات
التجار وبيوت الاقطاعيين تغلفها الاسرار ولا نعرف منها
الا الظلم الذي يقع على رؤوسنا . وماذا يريد حزبك هذا
من هذه المناشير؟

ورد عليه عبد الله :

- الحزب يريد أن يعلمنا بما يدور في العاصمة
وما يسعى اليه السياسيون . يريد أن يندرنا بالخطر .

١- رودس مع اسرائيل

٢- التابلاين مع امريكا

لنتحمس ونشارك بدورنا . علينا ان ندعم المظاهرات اذا استطعنا . فكما تعلم جميع الذين شاركوا في المظاهرات الماضية هجرهم الاقطاعيون ولم يستطع الحزب ان يفيدهم في شيء . لكن علينا أن نعمل فالكثير من العمل سيوصلنا الى ما نريد ، وقد جاء الوقت المناسب . وعلى فكرة . ماذا حدث للمخاتير . سمعت ان المختار سحيم خطب حميدة بنت المختار والغجر الان يخيمون في القرية ويفرحون في عرسه .

- ليكون لك من بعده طول البقاء . لقد مات المختار سحيم . وشبع موتاً ، لقد انتهى قبل أن يبدأ عرسه .
وضحك عبد الله وقال :

- لا اله الا الله الحي القيوم . مات سحيم اذن ، مسكين المختار سحيم راح مثل ريح نسر فوق قمة جبل . في كل الاحوال يا أخي ، لم يعد لهؤلاء المخاتير أي دور . هم أذئاب الاقطاعيين بالامس كانوا يشتمون ويعاقبون ويطردون الفلاحين من القرى . أما الان فيوجد حزب وهم يخافونه .

وقال ابراهيم :

- بعد ان مات المختار سحيم تجمع المخاتير وذهبوا الى سعادته في العاصمة ليستشيروه من يكون خلفه مختارا للقري . ولكنهم لم يعودوا حتى الان . ولم نعرف سبب تأخرهم . أخذوا معهم هذه المرة شيوخا ليكونوا بعد ان يعودوا دعاة لهم ويقنعوا الفلاحين بقرارات سعادته ، وهؤلاء الشيوخ يدعون الناس باسم الدين الى طاعة سعادته وهم اكثر المخالفين لتعاليم الدين وشرائع الله .

قال عبد الله :

- الوحيد الذي لا أستطيع ان اكرهه هو الشيخ سعدو . فهو شيخ فقير وطيب وربما أخذوه معهم كي يضحكوا عليه لكن الشيخ عبد الرحمن ماكر خبيث وقد رتب أموره في كل المجالات مع الحججي وخان الحججي . لكن هذا الحججي له ديون كثيرة في هذه السنة . ويبدو ان المواسم لا بأس بها هذا العام . وكما تعلم فالحججي متفق مع المخاتير من اجل ابتزاز الفلاحين تحت حماية الاقطاعيين . فاذا استطاع الحزب الان ان يخلق له بعض المتاعب والمشاكل ، فقد يخفف الابعاء عن الفلاحين .

قال ابراهيم :

- كلما أتت أمة لعنت اختها . من أيام تركيا حتى
الآن . هل تعرف السفربرلك . كنت صغيرا في ذلك
الزمن لكن لا بد أنك سمعت عنه . لم يجلب لنا الاتراك
سوى الفقر والمرض والجوع والموت والحرب . في الحرب
حرقوا الشجر وقتلوا المواشي وأذلوا الناس ، وسرقوا
مؤونتهم .

وقطع عبد الله الحديث فجأة . وقال لابراهيم :
- كيف حال العشائر عندنا . هل حاولوا أن يعتدوا
عليك .

فأجاب ابراهيم :

- مشاكلهم الآن بين بعضهم بعضا . لا يوجد بين
الفلاحين وبين البدو أية مشاكل . سوى ان الوكيل أو
المختار يحاولان بين حين وآخر ان يخلقا بعض المتاعب
ليشغلا الناس .

- وما أخبار المعلمين الذين يجيئون الى هنا . ألا
يحدثونكم عن الحزب وأخباره ونشاطاته .
- يفعلون احيانا . لكن الناس مشغولون بأمورهم
الشخصية .

سمعنا بالمظاهرات في المدن . لكن أخبار خطبة
المختار سحيم وقصة ابن سلوم هي المشاكل التي تشغل
أذهان الناس رغم انها صغيرة فهم مهتمون بها أكثر من
المظاهرات والسياسة . وانت الان تحيء وتقول ان الحزب
يجرضنا على أن ندعم المظاهرات ضد هذه الاتفاقيات التي
لا أعرف ان أسميها .

- نعم انها اتفاقيات غير وطنية . وتمس بالمصالح
الوطنية .

- ولكن رجالنا لن يفهموا ذلك .

- وهل يرضى الفلاحون ان نعقد صلحا مع
الصهيونية في فلسطين . هذه هي اتفاقية رودس .

هذا الصلح يجب ألا يتم على حساب الوطن
والشعب . والفلاحون من هذا الشعب .

وصاح عبد الله :

- الذي سيوقع الصلح مع الصهيونية سنقطع يده .
من عهد الرسول عليه السلام واليهود ضد العرب
والاسلام . واذا نشب قتال في فلسطين يجب ان نضحي
جميعا ونقاتل . قاتلنا تركيا وفرنسا . وكما يبدو كتب علينا

ان نقاتل الصهيونية ايضا . علينا ان ننتظر التعليمات من الحزب . واذا لم يستطع الحزب ان يفرض سياسته الان فقد يستطيع ذلك في المستقبل . عليك ان تذهب الى القرية وتشاهد قافلة الفلاحين وتعرف بماذا يفكرون . وعلينا ان نعمل بكل جهودنا لكي يعرف الفلاحون ما يدور حولهم ويتصدوا له .

ورد ابراهيم :

- دوري الان في حراسة الزروع ومنع البدو من الرعي . وكل ظني يا عبد الله ان الفلاحين يجهدون الان لكسب رزقهم . خاصة ان المختار غائب والوكيل في حماه جالس في خان الحجبي ينتظر عودة المختار والشيخ سعدو ايضا غائب . لا يوجد في القرية غير العسس . يدور في القرية ويجلس عند الفجر ويدق الطبل في آخر الليل . كل يوم يذهب الى هناك ويشرب الشاي والقهوة عند الفجر . اما القافلة فقد اقترب موعد ذهابها الى حماه . عليك ان تسرع باللحاق بها هذا أفضل من ان تمشي وحدك وبالمناسبة تستطيع انت ان تعرف كل ما يفكر به الفلاحون عندما تحتك بهم .

- وهل يفكرون الا بما تفكر به يارجل !

ارتفعت بعض الغيوم البيضاء وحجبت ضوء القمر
والنجوم اللامعة ، وكانت الارض مبلولة بمطر اليوم
الفاتت فتلألت الزروع والصخور وانعكس عليها ضياء
مدخن . وارتفع هنا وهناك صوت راع يجمع القطيع .
واصوات اطلاق نيران اطلقها اصحابها على ذئب أو
ثعلب ، اقترب من القطعان . ومع ذلك كان الهدوء هو
أقوى عناصر الطبيعة في تلك اللحظات .

كان الفجر يخيمون قرب جدار القرية . وقد بدأ
ضحيجهم اولا بدق الطبول والزمور كعادتهم كل يوم .
وشبان القرية الذين لا عمل لهم يتجمعون منذ اول الليل
عندهم ويسهرون حتى يتتصف الليل على صوت نوفة
وآلات الفجر الموسيقية . كان يرقصون ويهزجون
ومرحون . ويتأملون صباياهم الجميلات . بينما كان قسم
من الشبان يسهرون عند البصارات ليعرفوا طوالعهم
عندهم .

هكذا كانت تسير الحياة في هذه القرية في اماسي
شهر آذار الربيعية . اما ما يدور خارجها فقد كان اكثر
نشاطا وأشد جاذبية . ففي محطة القطار القرية كانت تقيم
المدام وقد ازداد غرورها بعد ذهاب الفرنسيين . وقوي

لديها الشعور بالقوة والنفوذ . ان احدا لا يقاسمها سلطتها الان . اما الاقطاعيون فهم أصغر من أن يواجهوها وهي التي تدير رؤوسهم وتلعب بعواطفهم وتأتي لهم بالعاهرات وبنات الهوى من حلب ليمضوا معهن وقتا ممتعا في المحطة . فمحطة القطار كانت عبارة عن دار بغاء صغيرة يؤمها رجال الاقطاع وشيوخ البدو المتنفذون الذين يرافقون الاقطاعيين ويعيشون في ظل قوتهم الاقتصادية والسياسية .

في تلك الاثناء كانت المحطة شبه خالية . لان الاقطاعيين يلاحقون مصائرهم وقضاياهم السياسية في العاصمة . فقد كان البرلمان معقودا . وتشير الانباء في الراديو ان هناك خلافا حادا في البرلمان بين اعضائه حول توقيع اتفاقية التابلاين واتفاقية رودس ومشروع ايزنهاور^(١) والنقطة الرابعة وبعض المشاريع المطروحة في المنطقة من اجل أن تدخل فيها سورية .

منشورات الحزب هي الاخرى تتحدث عن إنهاء الاختلاف . ويوزع اعضاؤه المناشير على الفلاحين لتوضح

مشروع ايزنهاور- مشروع حلف بغداد- مشروع النقطة الرابعة (مشاريع استعمارية) طرحها امريكا على المنطقة .

لهم الحقائق القائمة والخطط التي يرسمها السياسيون . كانت المناشير تصل الى مضافة المختار الغائب فيقرؤها بعض المعلمين . وكان العسس نتيجة جهله بما يدور حوله يفتح المضافة كالعادة ويستقبل الفلاحين في غياب المختار ، ثم يدق القهوة في المهباج . ساعحا للنقاش بين الفلاحين ان يأخذ مداه وهو يتظاهر بأنه لايعي بماذا يتناقشون وعلى أي شيء يختلفون . لكن الفلاحين لم يكونوا يطيلون السهر في غياب المختار . فسرعان ما كانت المضافة تغلق أبوابها .

وبعدها كان العسس يخرج من المضافة ويدور قليلا في القرية . ثم يذهب الى بيت سعاد ويشرب عندها الشاي ويعتبر العسس نفسه في غياب المختار والشيوخ رئيس القرية وسيدها . وعندما يطمئن على وضع القرية وأمن سكانها كان يجلس عند سعاد ويعاتبها لأنها بحضور المختار والشيخ عبد الرحمن كثيرا ما تهمله ولاتشعر بوجوده . جلس على المقعد في ذلك الليل ، وبعد فترة صمت قال لها :

- إنني مسرور لانك دعوتني ثانية لشرب الشاي . ولكنني سأقول لك صراحة انني منزعج ايضا . فانت في

حضور المختار والشيخ والوكيل تتجاهليني ، وحتى الشاي لا تقدمينها لي . اما عندما يغيون فأنت تتذكريني . لكأني رجل غير مهم في حضور الرجال المهمين . اسمعي ياسعاد . فأنا الوحيد الذي يشعر نحوك بالاهتمام . وهدأته سعاد بغنجها الانثوي وقالت له :

- لاعليك يا «أبو عبدو» . فأنا لا أنساك الا عندما أكون مشغولة .

فرد أبو عبدو العسس :

- يجب ألا يحدث هذا . فأنا الوحيد الذي يعرف كل شيء في هذه القرية . والوحيد الذي يستطيع ان يقف الى جانبك في اوقات الازمات . وهذا يجب ان يكون له أجر . قولي لي هل اعطيتني شيئاً من الهدايا التي يغرقك بها البيك ؟ وتهبها لك بنت المختار ، أو محمود ؟ انت تعرفين انني اعرف كل اسرارك واذا ما أذعت شيئاً منها فسوف يسبب لك ذلك الكثير من المتاعب . ولكنني دائماً أقول لنفسي اصبر يارجل فسعاد امرأة طيبة ولا تستحق ذلك . ولكن اعلمي ان صبري قد ينفد وتحدث المشكلة . وخافت سعاد وهي تصغي الى العسس وقد بدا جادا في ما يقول . عندئذ سخرت قوتها كأنثى مرة اخرى

فضحكت له وصبت الشاي أمامه .

لكن العسس تابع قائلاً :

- انا اعرف كل شيء في هذه القرية . أين يذهب الرجال ، وماذا تفعل النسوة ومن يستقبلهن . وأي عمل يقوم به المختار أو الشيخ سعدو أعرفه . لكنني لا احب ان أثير المشاكل في القرية . واذا بقيت منسيا من الجميع فعندئذ لا أضمن نفسي من خلق المتاعب لكل من اجده في طريقي . وانت أول العارفين وأول من تأتي عليهم النار ؟

وقالت سعاد :

- أبو عبدو . انت غال عليّ . وفي نظري انت أحسن رجال القرية . واكثرهم صلابة . فأنت تظل ساهرا طوال الليل على أمننا وراحتنا . وأنا أعرف انك تعرف كل شيء . وكلما تحدث الاخرون امامي عنك سرعان ما اقول : أبو عبدو رجل طيب ، ولسانه قصير لا يجب الحديث عن الناس ومحارب الفضائح . ولقد أحسست انك تحدثني اليوم بلهجة التهديد . وهنا اجدك خاطئا . فانت تعلم ان سعاد تستطيع ان تغير نختارا أو مجموعة نختاير باشارة من اصبعها ولايصعب عليها عسس مثلك . ولكنني لا أفضل ذلك . فانت تبقى أفضل من أي عسس لا نعرفه . ومع ذلك عندي هدية . اشرب الشاي

يارجل . وكما قال المثل «كل واشكر» . ولحقته سائلة :
ترجع على هذا الجلاس^(١) ولف نفسك بفروتك الطقس
بارد . وأردفت قائلة :

- لكن قبل ذلك قل لي من سوف يصبح مختارا
بعد موت المختار سحيم . فكما تلاحظ ان المختار
جميعهم يتطاحنون للحصول على منصبه كمختار
المختار . وليأخذوا حميدة . هل تتصور ان يصبح ابنه
مختارا ؟ كل منهم يحرص اعوانه ورجاله ويتوعد
الاخرين . وكل واحد منهم يضمم للثاني مقلبا لكي يحل
محلّه عند سعادته . أنا لا أعرف نية سعادته . ويمكن ان
يكون مثل غيره ، يريد ان يبقى الخلاف والافتتال على
أشده ليظل يتحكم بهم . مسكينة حميدة كانت ستزوج
شابا جميلا ولكن مصيرها كان مع هذا الشيخ الماثل .
الذي نفق مثل الحيوان دون رحمة من أحد .

وتنحج العسس وقال : لاه لاه - لاتقولي على رجل
ميت مثل الحيوان . الميت لا تجوز عليه الا الرحمة . صمت
قليلا وتابع :

(١) حجرة كبيرة توضع على يمين باب الدار ويساره للجلوس .

- نعم . صحيح ما تقولينه . فالمخاتير يفتحون
أعينهم الان على حميدة بنت المختار . وأبو حميدة حالته
جيدة عنده مواش كثيرة ومن يأخذ حميدة فسوف يكون له
نصيب فيها . كل شيء مختلط بعبه ببعض . والشيوخ
سعدو يقرأ أوراق الناس ولا يعرف ما هو مكتوب فيها .
وهمس العسس وهو ينقل اليها خبرا بمتهمي
السرية :

- في القرية توزع أمام الدور وفي المضافة مناشير
الحزب . لكن أحدا لا يأمرني بأن اقضي على هذه
المناشير . علينا ان نقضي على هذا الحزب قبل ان يقوى
ويشدد بين الناس . وعندئذ تكون الكارثة .
فقلت سعاد :

- وما دخلنا بالحزب . اننا لانعرف عنه شيئا .
ورد العسس

- انا اعرف . فالحزب ضد البيك وأنت تعلمين ان
كل شيء ضد البيك هو ضدنا . والفلاحون يتضامنون
معه لانه كذلك . صحيح انهم لا يعرفون ماذا يفعل والى
ماذا يسعى ، لكنهم يتعاطفون معه لان المناشير التي

يوزعها تشتم البيكاوات وسعاده وتعد الفلاحين بتخليصهم منهم ومن ظلمهم . لقد قرأ لي الشيخ سعدو المناشير جميعها التي وزعت في القرية في الشهور الاخيرة وعرفت ان التلاميذ الملاعين هم الذين يجلبونها ويوزعونها سرا على الفلاحين ويقرؤون محتوياتها عليهم . هؤلاء التلاميذ الاوغاد أفسدتم المدينة ولكن هل نقدر ان نمنعهم من الذهاب والعودة ؟

- انك لاتستطيع يا أبو عبدو . فهم يذهبون الى المدارس ويعودون منها لزيارة أهلهم .

- استطيع اذا جاءني الاوامر . واستطيع ان افتش الذاهبين والقادمين حتى امنع كل شيء يأتي من الحزب .

وقالت سعاد :

- مالك ولهذا . ضع نفسك في مكانك الحقيقي . عليك ان تظل كما انت . يكفيك ان تفعل ما يأمرك به المختار والبيك . لم تسألني عن هديتي لك . لقد قررت ان أهديك خروفا هذه السنة فأنت فقير . ولا يسمح لك بالاتجار باللبن والسلين^(١) كما يفعل الفلاحون .

(١) السلين : نبات يقلعه الفلاحون من الارض في بداية الربيع ويبيع في سوق المدينة .

وفكر العسس ، بأن سعاد قدمت له الخروف
مقابل سكوته عنها . بينما فكرت سعاد بأن خروفا لا يؤثر
عليها طالما انها تستطيع ان تحصل عليه من الاخرين ، من
الحجي او من البيك ، فهي بذلك تضمن وقوف العسس
الى جانبها وليس كما فكر العسس بأن الخروف مقابل
سكوته عن اخبارها . وهي تعلم ان اخبارها منتشرة ولن
يضيف اليها العسس شيئاً .

وغادر العسس بيت سعاد . وجال في القرية يتفقد
أبواب الدور ويتأكد من انها مقفلة حتى لا تدخل اليها
الثعالب أو الذئاب .

في مكان آخر كانت مجموعة من الفلاحين تتجمع
عند جدار القرية . وكان أفرادها يتحدثون في شؤون
مختلفة في انتظار الذهاب الى حماه . وعندما وصل
عبد الله ، هب الجميع للقاءه وتجمعوا في ساحة القرية
إيداناً بالانطلاق . وعندئذ أخذ العسس يصرخ بصوت
عال للذين يودون الذهاب الى المدينة أن يتجمعوا في
الساحة . وكانت هذه عادة القوافل التي تذهب الى
المدينة . إذ يجب عليهم ان يذهبوا كجماعة ، حتى
لا يستطيع اي قاطع طريق ان يسطو عليهم بالرغم من

انهم مسلحون بأسلحة مخبأة تحت ثيابهم واحزمتهم ناهيك
عن وجود ضباع كثيرة . ولا تستطيع الذئاب مهاجمة
القافلة . لذلك يجب على الفلاحين أن يسيروا جماعات
حتى يصلوا الى خان الحجى حيث يبيعون منتجاتهم .
ولكون الطريق موحلة من الامطار فعليهم ان يسيروا بهدوء
وحذر ، حتى اذا نفقت احدى الدواب أو انزلقت يمكن أن
يساعد بعضهم بعضا .

سارت القافلة تشق طريقها باتجاه المدينة . وقد
شيعتها النساء بنظراتهن على ضوء القمر وهن يتمنين
للمسافر عودة سالمة وربحا وفيرا .

وعلى القافلة ان تمر بمجموعة قرى ، وكلما اقتربت
من المدينة كانت قوافل اخرى تنضم اليها حتى يصل
الجميع الى المدينة من ناحية الشمال الشرقي . فيدخلون
السوق اسرابا ويعرضون هناك منتجاتهم البسيطة ، لباعة
يعيشون على شراء هذه المنتجات اليومية وبيعها . من
السلبين حتى الجبن . ولا يوجد تاجر في المدينة يختص
بنوع محدد من البضائع . انما يوجد في دكانه كل شيء من
القماش الى الجبن ومن الصابون والكاز الى الدفاتر
والاقلام .

بعد ان انطلقت القافلة . دار نقاش بين ام عمر وام حميدة . كانتا تجلسان متجاورتين . سألت أم عمر :

- لماذا يا أم حميدة وافقت على خطبة حميدة من المختار سحيم وانت تعرفين انه شيخ هرم ، قدم على الارض وقدم في القبر .

وتنهدت أم حميدة وقالت :

- انت تعرفين ان هذا من شأن الرجال . وأبو حميدة قبل ذلك دون ان استطيع مخالفته . لم يسمح لي حتى بمناقشته في الامر . وتنهدت بعمق قائلة : (يلعن أبو الوجاهة وأبو المال) من أجل ان يجلس بجانب سعادته يمكن ان يدمر بناته كلهن هكذا .
وقالت الأخيرة : لا حول ولا قوة الا بالله العظيم .

* * *

سار أفراد القافلة صامتين في البداية . لم يعد يسمع الا وقع حوافر البغال وانفاسها وهي تغذ السير وبين حين وآخر كان يقطع الصمت صوت كرباج احدهم ويقول :
- اسرعوا حتى نصل قبل الشروق . ايه - صارخا في الخيول والبغال .

وبعد قليل قال عبد الله :

- سلوم أسمعنا صوتك . غن لنا موالا يارجل .

وأردف سلوم :

- هذا وقته يا عبد الله ! الم تسمع صوت الثعالب
والذئاب ، تريد ان تسمع صوتي .

وأردف عبد الله : يارجل لانتهم ، لا يموت الانسان
الا مرة واحدة ، وفي يومه

وتنحنع سلوم قائلا : ايه موت ، قال موت - وهل
نحن احياء ... حتى نموت .

كان يفكر حتى الان بما حدث له في الشهر الماضي
فقد ضرب بالسوط ظلما من قبل المختار والاقطاعي من
اجل ابنه محمود اذ كيف يتجرأ على عشق حميدة . كان يعيد
الاحداث التي مرت به . وقلبه ممتلىء بالحزن لكن شيئا
أضاء له ذكرياته . علم ان ابنه انتسب الى الحزب . وقد
قال له انه يستطيع منذ الان ان يقاوم هؤلاء الظلمة .
وكان يعيد في ذهنه المآسي التي حلت به وبالبشر الاخرين
من امثاله منذ ايام الاتراك حتى الان ، عندما قطع عبد الله
تفكيره طالبا ان يغني .

وتابع عبد الله :

- يا لله ياسلوم اطمئن . سوف نأخذ حميدة لمحمود
ولا تفكر في شيء آخر . انا تركت هذه المنطقة لكنني أتردد
عليها . وبامكانك عندما تتضايق ان تأتي الى منطقتي واذا
جاء الاقطاعيون والمخاتير فسوف أدوسهم بقدمي على
رؤوسهم . انس كل شيء ياسلوم وغن . هات عتابا .
وعلق أحد الفلاحين على كلام عبد الله قائلا :

- عندما يلعب الكرباج على ظهر سلوم لا يجد احدا
يخلصه لا عبد الله ولا غيره .

وتنحج سلوم وهو يفتش عن كلمات الاغنية التي
سيغنيها . ماذا يغني في حياة بائسة كهذه الحياة التي
يعيشها . لقد أكل الزمن كل قواه . ثم جاءت كراييج
الاقطاع . الى متى يصبر .

يقول الله «وبشر الصابرين» . . ومن يوم الى يوم
يزداد البؤس . وتكثر المنغصات . .

عندئذ تعالت أصوات اخرى مطالبة سلوم بالغناء .
- لايمك ياسلوم . سوف تفرج . لا بد ان يجيء
يوم نغني فيه بفرح . ولكن الان هات متعنا بغنائك
الحزين .

وقال أبو عمر :

- اصبر ياسلوم لقد صبرت كثيرا وما بقي الا القليل . والجميع لديهم الامل بالحزب الذي سيحرر فلسطين ويحررهم من الاقطاعيين . المهم غن لنا الان . وغنى سلوم بصوته الرخيم يمتع الاخرين باغنيات مؤثرة درجوا من أيام طفولتهم على سماعها .

اجتازوا منطقة تل الصفا واقتربوا من المدينة . كانت الطرق تقرب من بعضها البعض تسير عليها القوافل من كل اتجاه . ووصلوا اخيرا قبل شروق الشمس الى خان الحجي . فتوقفت الدواب وانزل الفلاحون بضائعهم من الالبان والسلبين وربطوا خيولهم ودوابهم في اسطبل الخان . ثم ذهبوا الى السوق .

ربط عبد الله فرسه ثم توجه سيرا على الاقدام الى مقهى جلال . لم يكن لديه مايبعه للسوق فذهب الى المقهى يستطلع انباء السياسة . وعند الباب الخارجي للخان التقى سايس الخان فسلم عليه . لم يفاجأ سايس بأحد من الفلاحين فالحركة في الخان مستمرة ليلا نهارا ولكنه استوقف عبد الله وسأله :

- انقطعت اخبارك يا رجل . في أي أرض تحل

الآن ؟

والتفت اليه عبد الله حيث رماه بنظرة من قدمه الى رأسه ، ثم اجابه قائلاً :

- تركت هذه القرية وهذه المنطقة . ان ارض الله واسعة . وأي مكان أحل به يجب ألا يهينني فيه أحد لا اقطاعي ولا صاحب خان . ربطت الفرس عندكم وسأدفع اجرها كما ترغب .

فهم السائس الكلام كما قصد عبد الله . ورحب السائس من جديد بعبد الله ودعاه الى شرب الشاي ، لكن عبد الله شكره وقال له انه يفضل شرب الشاي في مقهى جلال . وتابع :

- وهناك كما تعلم نسمع بعض الاخبار .

وسأل السائس باهتمام :

- صحيح يقولون ان الدنيا مقلوبة على رأسها ؟ والحجي ومعه المخاتير عند سعادته ماذا يفعلون ؟ الله وحده يعلم . أنا لا أعلم . ذهبوا منذ صباح البارحة في الاتومتريس واعتقد انهم سيعودون اليوم أو غدا . لكن

المناشير تعم المدينة ضد الاتفاقيات . والحزب يعلق
مناشيره على جدران الخان . ولا اجرؤ على نزعها .
حاولت ذلك مرة فقال لي احدهم : كنت تفعل ذلك في
السابق دون عقاب . اما اليوم اذا نزعته فسوف نزع
رقتك .

وتحسب السائس رقبته قائلا بلهجة المزاح مع
عبدالله : «رقتي غالية علي يا رجل» ، بعدئذ لم أحاول
حتى لمسها ، ولماذا علي ان افعل ذلك ؟ ليست لي اية
مصلحة في ذلك . يأتي تلاميذ المدارس ويعلقونها كما
يريدون . ليس لي دخل . اولادكم ايضا يجلبونها
ويوزعونها على الفلاحين .

وضحك عبد الله مسرورا وقال للسائس :
- حسنا تفعل . سوف تفرج على ايدي هؤلاء
الاطفال في المستقبل . بمقاليهم سوف يهزون كل
الحكومات - كما هزوا فرنسا سابقا بالحجارة . انت تعرف
حجر المقلاع .

وودع صاحبه ثم غادر الخان باتجاه مقهى جلال .
وبعد ان وصل اليه سلم على الفلاحين وأخذ كرسيها
وجلس بينهم . لم يكن المقهى بناء خاصاً له صالة . انما

كان داخل ساحة على طرف الشارع . وكثيرا ما تمر من أمامه الدواب والمواشي ، وارضه مفروشة حصرا ممدودة . بينما توجد في ركن منه منضدة صغيرة وضع فوقها مذياع قديم حيث يبدأ عامل المقهى بتشغيله منذ الصباح ، ثم يدور بين الزبائن يقدم لهم الشاي والقهوة . وكثيرا ما يكون مشغولا بحسابات المشروب للفلاحين فعليه ان يسجل طلباتهم كلها على دفتر ضخم ليحاسبهم بأثمانها في نهاية الموسم .

كان المقهى يتوسط السوق المركزي للمدينة ، وتحيط به الخانات القديمة . سقفه مغطى بالتوتياء وهو يتسع لحوالي خمسمائة شخص وأمامه الساحة التي تتسع لضعف هذا العدد . الفلاحون لا يرغبون في الجلوس داخل الفناء المسقوف وانما يفضلون الجلوس في الساحة فيخرجون كراسي القش الصغيرة واحيانا قد يجنون الجلوس على الحصر ، فيخرج كل منهم حصيرة بيده ويتمدد فوقها وفي الايام الباردة يلفون فرواتهم حول اجسادهم . واحيانا قد ينامون فوق الحصر كأنهم في فندق .

صاحب المقهى يجب الفلاحين او يتظاهر بذلك

لانهم مصدر رزقه فهو لذلك كثيرا ما يجاملهم . كان يعرفهم واحدا واحدا من كثرة ارتيادهم الى مقهاه الوحيد في نصف المدينة الشمالي . وكان على الفلاحين سواء زاروا المقهى أو لم يزوروه ان يدفعوا حساباتهم الوهمية التي يسجلها عامل المقهى على الدفتر . وقد اتفق مع إقطاعيي القرى من اجل ذلك . فكان يجمع القمح من اصحاب القرى ويبيعه للحجي الذي يستلمه من كل قرية وكان بذلك وسيطا غير مباشر للحجي والاقطاعي في وقت واحد ، وتكون استفادته في ذلك مضاعفة . والفلاحون يعرفون حقيقة هذه العملية . لانهم كان يكفيهم ان تؤجل ديونهم ولو كانت كبيرة . فهم كثيرا ما يرتاحون لانهم لا يدفعون بشكل مباشر ثمن جلوسهم وشربهم الشاي والقهوة في المقهى . اضافة الى ان صاحب المقهى خبير بأحوال الفلاحين وأحوال الاقطاعيين واصحاب الخانات .

والى جانب المقهى يوجد سوق فيه كل ما يرغب به الفلاحون من أمتعة وحاجات . من الاحذية والالبسة والطعام والكاز والتمر والسمن . موجودة في مخازن مرصوف بعضها بجانب بعض . مبنية من أيام السلطنة العثمانية . وحتى مقهى جلال يعتبر من المباني القديمة .

وكان في السابق خاناً مغطى بالتوتياء حتى حوّله صاحبه الى
مقهى .

تجمع الفلاحون في المقهى وجلس بعضهم على
الكراسي ، بينما افترش الآخرون الحصر على الأرض .
وسرعان ما انهمك عامل المقهى في عمله فأخذ يقدم
الشاي لهم كل بدوره . كانوا يتحدثون عن حركة السوق
وموسم الخراف والقمح وديون الحجى ، احاديث كثيرة
تعمها الفوضى . وزاد الان في فوضاها الحديث عن
المناشير التي توزع في كل مكان دون ان يستطيع احد
منعها . ونظر الفلاحون حولهم فوجدوا على جدران المقهى
نفسها مناشير كثيرة موزعة هنا وهناك . اغلبهم لا يعرف
القراءة والكتابة . ولذلك طالبوا واحداً من بينهم يعرف
القراءة كي يقرأ لهم محتوياتها . وعندئذ تنهد صاحب
المقهى وقال في عصبية :

- لاحول ولاقوة الا بالله

وسأله الفلاحون :

- وماذا فيها يا جلالاً ؟

رد وهو لا يعلم بالدقة ماذا يحدث حوله :

- لاحول ولا قوة الا بالله . الدنيا مقلوبة . وحوالي
الساعة السادسة صباحا مرت دورية من الجيش مسرعة ،
ودورية من الشرطة العسكرية وقد حذرتا الناس من
التجمهر وطلبتا منهم الذهاب الى منازلهم والاستماع الى
الراديو ان وجد .

وفجأة انطلق من مذياع المقهى صوت هادر يقول :
- بسم الله الرحمن الرحيم . «بلاغ رقم واحد» .
كان صوت المذياع ضعيفا ، فرفعه صاحب المقهى
ليسمعه جميع من في المقهى . وطلبهم بالصمت
والاصغاء . وتابع المذيع بيانه ، بينما لم يفهم بعض
الفلاحين المقصود بذلك ولم يعيروا الامر اهتماما فحاولوا أن
يتمموا احاديثهم . لكن آخرين اسكتوهم وطلبوهم
بالصمت لمعرفة ما يجري ، فانتبهوا جميعا . بينما كان المذيع
يؤكد بيانه للمرة الثانية مبتدئا بكلمة : بلاغ رقم واحد :
«مدفوعين بغيرتنا الوطنية ، لما آل اليه وضع البلاد من
جاء تعسف من يدعون انهم حكامنا المخلصون لجأنا
مضطرين الى تسلم زمام الحكم مؤقتا في البلاد التي
نحرص على المحافظة على استقلالها الحرص كله .
وسنقوم بكل ما يترتب علينا نحو وطننا العزيز غير طامحين

باستلام الحكم بل القصد من عملنا تأييد الحكم
الديمقراطي الصحيح ليحل محل الحكم الحالي المزيف .
واننا نرجو من شعبنا الكريم ان يلجأ الى الهدوء والسكون
مقدا لنا كل المعونة والسماح لنا في اتمام مهمتنا
التحريرية . وان كل محاولة تخل بالامن والتي يمكن ان
تظهر من بعض العناصر . سوف تقمع فورا دون شفقة أو
رحمة .
القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة .

وصاح الفلاحون بعد أن انهى المذيع بلاغه ، بأعلى
اصواتهم «يعيش الجيش يعيش الجيش» وساد المكان اللفظ
والفوضى وانهمرت الاستفسارات من كل مكان . وفي هذه
اللحظة مرت دوريات من الجيش والشرطة العسكرية
وقطعت الساحة العامة وهي تنذر المارين وتراقب الوضع
في المدينة . وتسمر الفلاحون في أماكنهم واجمين . بينما
علا صوت المذيع في تلاوة البلاغ مرات عدة .

وانفجر الحديث في المقهى بين الفلاحين . وتساءلوا
عن مصير سعادته وفخامته . وبين حين وآخر كان ينطلق
صوت قائلا :

- يا جماعة اتقوا الله وارحموا عزيز قوم ذل . ومن ثم

لا أحد يعرف ماذا حل بسعادته . وأين المخاطر وأين
الحجى ليخبرونا بما يحدث .

وقطع كلامه صوت آخر :

- فى العاصمة مشغولون بأنفسهم . ذهبوا الى
سعادته ليتفقوا على المختار الجديد . لن يفيدهم سعادته
بعد الآن .

وفجأة نزع أحد الفلاحين عقاله وبريمه ورماهما فى
الهواء وصاح : يعيش الجيش . وما لبث العشرات منهم
أن فعلوا ذلك . وعند مرور الدوريات مرة ثانية من
أمامهم صفقوا لها وقالوا بصوت واحد :

- ليعنكم الله ويحكمكم . نحن معكم .

اكثرهم لم يكن يعرف ماذا حدث بالضبط . لكنهم
فهموا من لهجة البلاغ ان الحكم قد انتهى بانقلاب
عسكري . وجاء حكم وطنى أفضل منه . وما لبثوا ان
سمعوا بلاغا يأمر الناس بعدم التجول او التجمع فى
الشوارع والساحات العامة اعتبارا من الساعة السادسة
صباحا وحتى اشعار آخر . وعندئذ أخذ الجنود ينبهون
المارة الى أوامر قياداتهم دون ان يتدخلوا بمرورهم أو

تجمعهم طالما انهم لا يهددون الامن بالخطر .

عاد الفلاحون الى خان الحجى حيث سلموا
بضائعهم ومواشيهم وغادروا الخان والمدينة باتجاه قراهم .
والذى أحب أن يبقى كي يتسقط الاخبار بقي جالسا في
المقهى .

كان عبد الله جالسا على كرسيه وهو يفكر
بالبلاغات . ويرى الناس يهرعون الى منازلهم والى المتاجر
وهي تغلق . وخاف الناس وسرت احاديثهم الوجلة
متسائلة مستفهمة : ماذا يحدث ؟ وهل سيقاوم سعادته
الجيش ؟ لقد توقعوا الاصطدام والا لما كانت الاوامر بهذه
الشدة . ولكن مجموعة من الناس مرت في تلك المنطقة
وهي فرحة تهلل للانقلاب . ونادى أفرادها بحياة الحزب
العربي الاشتراكي وكأنهم هم الذين قاموا بالانقلاب .
وآخرون من حزب الاخوان المسلمين خرجوا الى
الساحات وهتفوا للانقلاب بحماسة . وتصور كل شخص
ان هذه الجماعات هي التي قامت بالانقلاب .

كانت الامور ما تزال غامضة خصوصا عما حدث
لسعادته . خرج الفلاحون مسرعين الى قراهم فرحين لقد
فكروا بأن سعادته ذهب بلا رجعة وقد انتصر عليه

الجيش ، وارسله الى الجحيم . خرجوا من المدينة وهم يرفعون الاعلام التي أخذوها من المتاجر . اعلام من الورق كانوا يرفعونها ويهتفون بحياة الجيش والوطن . وكانوا الى ذلك يأملون في احاديثهم ان يذهب مع سعادته كل المخاتير والاقطاعيين وأعوانهم . ولقد فكروا جديا بأن ذلك سوف يحدث ، وأن الطاقم الظالم كله سيندحر امام قوة الجيش وجبروته .

هكذا كانت الحال في صباح الثلاثين من شهر آذار . في مقهى جلالات وخان الحجي . كما كانت في جميع المدن والقرى في البلاد . لقد فوجيء الناس للمرة الأولى بأن في البلاد قوة عظمى هي الجيش تسلمت زمام الحكم بدلا من السياسيين القدامى الذين عفا عليهم الزمن . وقرروا أن يدعموا الجيش ويحرضوا الناس لنصرة الانقلاب وقائده . فمن هو قائد الانقلاب ؟ لم يكن لاحد منهم ان يعرف شيئا عنه .

قسم من الشبان المتحمسين في المدينة خرجوا الى الشوارع مخترقين أوامر منع التجول . واتجهوا الى مكتب الحزب ليستفسروا عن الاوضاع ، ويتلقوا التعليمات . وقد فوجئوا بأن الحزب يؤيد الانقلاب فاشتد نشاطهم

واكتسحتهم حمى السياسة مدفوعين بغريزة العداة لسعادته
الذين كانوا يعتبرونه امتداداً لسلطة فرنسا . وتحمسوا
للانقلاب واشتدت حركتهم امام المكتب وتصايحوا وهتفوا
بحياة الحزب وحياة البلاد . كانوا متفائلين بالمستقبل
فاعتقدوا ان ذلك سيحل مأساة فلسطين الماثلة في
الاذهان . وان ذلك عودة الى الايام الماضية أيام ثورات
العشرينات ضد الفرنسيين المحتلين . لقد وقع بين ابناء
الشعب الكثير من الضحايا في دفاعهم من ارض الوطن .
ولكن الاستقلال لم يمنحهم ماكانوا يلمون به . هللوا له
كثيرا لانه خطوة على طريق التحرير الشامل . وقاعدة
للحرية المنشودة . وبعد التساؤل وتبادل الاحاديث في
حجرات المكتب وخارجه ، فهم الشبان ان عليهم ان
يخرضوا الناس والفلاحين للوقوف الى جانب الانقلاب .
وقد تأكد لبعضهم أن الحزب لايملك برنامجا محمدا
وواضحا للتعامل مع الاحداث . لقد توقفت التعليمات
عند حدود التظاهر واشاعة روح التفاؤل بالانقلاب بين
الناس . ولقد بدا أن أكثرهم كان يجهل ما يحدث على
حقيقته . وعندما أذيعت البلاغات والبيانات نهض
القياديون في الحزب من بيوتهم واسرعوا الى المكتب

معتقدين بأن الحزب هو الذي قام أو شارك بالانقلاب ،
فهو كما تذيع البيانات جاء تلبية لرغبات الجماهير وان
الجيش مع مصلحة الشعب ومع تحرير فلسطين .

وذهب عبد الله الى مكتب الحزب وهناك التقى
الاستاذ عادل ، الموجود في المكتب . قال له :

- اعتقد بأن هذا الانقلاب هو من صنعنا ، فبشر
الفلاحين بذلك . هم لا يريدون تفسيرات كثيرة . قولوا
لهم ان الحزب مع الانقلاب وهذا يكفي ليكونوا معه .
ولقد رأيت فرحهم عندما خرجوا من المدينة انهم مثلنا مع
كل من هو ضد الاقطاع وسعادته .

في طريق العودة الى القرية تنهد أبو عمر قائلاً :

- لا اله الا الله . أتذكرون ، لقد قلت لكم في
الصباح ان الله مع الصابرين . وكأنني كنت أعرف ان
ذلك سوف يحدث عاجلاً أم آجلاً . لقد تخلصنا من
أسيادنا بعد ان صبرنا عليهم طويلاً .

وبدأ سلوم «يرندح» والفلاحون يرددون خلفه أهازيج
فرحة . لم يكونوا يهتمون بأرباح اليوم ومعظمهم لم يقبض
ثمن منتوجاته . لان منع التجول منعهم من ذلك .

وقسم منهم بعد ان باع سلعه نسي أن يقبض ثمنها في غمرة
الفوضى والتساؤل عما يحدث .

كانوا يسرون في جماعات متفرقة لاتبث ان تندمج
وتتفرق . يريدون ان يتبادلوا الاراء والمشورة عما يفعلون
في ظروف كهذه ، ولكن السؤال الاهم الذي لم يعرف
جوابا ، هو : ماذا حل بالمخاتير وسعادته ؟ ... ماذا ؟

وصلت القافلة الى القرية . كانت النساء ينتظرن في
الساحة . وقد استغربن عودة أزواجهن باكرا على غير
العادة . كن يراقبن الرجال في حب اطلاع متسائلات هل
باعوا بضائعهم ؟ ومن ثم لماذا يلوحون بالاعلام
وهزجون ؟ وابراهيم الذي كان ينتظر في حراسة الحقول
تساءل هو الاخر : ماذا يحدث . ولم يستطع الانتظار وقتا
أطول فاتجه نحو القافلة وسأل عن السبب .

كان ابراهيم رجلا هادئا لا يأخذ الامور في ظواهرها .
كان يتفحصها ويقبلها في ذهنه ومن خلال خبرته في الحياة
كثيرا ما كان يصيب في آرائه وقراراته . قيل له : حصل
انقلاب عسكري ضد الحكم القديم .

وقال أبو عمر مفسرا له الوضع بصورة أفضل :

- لقد سمعنا في مقهى جلالا أن الجيش تسلم السلطة . وأن السلطة القديمة كانت خائنة مفرطة بحقوق الشعب والبلاد . وقد منع التجول في المدن . ولذلك عدنا إلى القرية .

وزغرد سلوم من بعيد فجاوبته النسوة وهن يشعرن بأن شيئاً جديداً مفرحاً يحدث ، تدل عليه الأعلام التي يرفعها رجالهن وهي ترفع للمرة الأولى في حياة القرية . لقد اعتقدن أن حدثاً كبيراً قد تم وهو سر فرح الرجال وعودتهم باكراً .

كانت سعاد واقفة عند عتبة دارها . وتوقف نشاط القرية وتجمهر الناس في الساحة وكثر اللغط والتساؤلات لكن كثيراً من الأسئلة لم يجد له جواباً شافياً ، لأن كل شيء كان غامضاً في الأذهان إلى ما لا نهاية ومع ذلك تفجر الفرح اللاهب في كل مكان . وأسرع الفجر ليشاركوا كعادتهم دون معرفة السبب . فتعالت نغمات المزامير والصيحات الفرحية والأهازيج المرحية لكأن القرية في عيد .

وعقد شباب القرية حلقات الدبكة في كل مكان . وانتشرت عدوى الفرح بين الجميع . ومضت ساعات من

الفرح العارم ، وانتشرت أخبار الانقلاب في كل القرى المجاورة . فعلم الناس جميعاً بخبر الانقلاب . لم يكن في القرية مذياع . لكن الأنباء تنتشر بين القرى والناس بسرعة ينقلها العارفون بسرعة انتقال النار في القش .

وصاحت العجيرية نوفة بأعلى صوتها «شوباش للجيش» وتوقفت عاجزة عن معرفة البقية . لقد منعوها بالأمس من الشوباش للاشترائية لكن أحداً لم يمنعها الآن ، لأن هناك شائعة تقول بأن الاشتراكيين المعادين للسلطة الإقطاعيين هم الذين قاموا بالانقلاب .

فطيم نفسها قالت للنسوة :

- أنا لست مرتاحة ولست مصدقة بأن سعادته يذهب في ساعة واحدة . كل ذاك الجبروت لا يمكن أن يزول في يوم وليلة . أما عن الحزب فهو كما يقول الرجال ضعيف وغير قادر على مواجهة كل هؤلاء الإقطاعيين . بالله عليكم ماذا يستطيع أن يفعل المعلمون وطلاب المدارس؟ والمعلمون قلة ، أما الطلاب فما زالوا فتیاناً ولا يستطيعون التغلب على الإقطاعيين .

وردت امرأة :

- ولكن الجيش معهم . وهو مسلح ، ويستطيعون
معه أن يفرضوا نجاحهم .

وقالت فطيم :

- والله أنا قلبي موسوس .

كانت النسوة يتناقشن على ضوء ما يتناهى إلى أسماعهن من
أحاديث الرجال المتجمعين في كل مكان . وكان صوت
الطبول والزمر وصياح الأطفال يطغى على الأسماع مما
يضطر المتحدثين إلى رفع أصواتهم . وفجأة علت صيحة
سلوم قائلاً :

- سوف نقسم الأرض . ولماذا لا نأخذها منذ الآن
ونتقاسمها فيما بيننا بالتساوي . لقد ذهبت دولة
الإقطاع ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً . والإنقلاب قام
من أجل هذه الغاية . وأكد على كلمات الفلاح فلاحون
آخرون . فتنادوا إلى تقسيم الأرض . وتسارعوا إلى
أدوات القياس والمكاييل . وسرعان ما وافق الجميع على
القسمة لكن بعد أخذ ورد ظهرت مشكلة طريقة
القسمة ، بينما ارتأى آخرون أن يؤجلوا الموضوع حتى تقوم
الدولة نفسها بالإشراف على تقسيم الأراضي . ووصل

يوسف قادماً من المدينة . كان يحمل بعض الأخبار الضئيلة . وأكد أن الحزب هو الذي قام بالانقلاب كما عرف هو وعبد الله من مكتب الحزب . وطالب الفلاحين بالتضامن مع الانقلاب وصاح بلهجة حماسية :

- «يجب ألا نخشى بعد الآن المخاطر والوكلاء . لقد انتهى دورهم إلى الأبد . أما سعادته فقد أصبحت عظامه مكاحل» .

وتصدر أبو عمر مجموعة وقال :

- ترحموا عليه يا جماعة . في كل الأحوال كان زعيماً ولا يجوز أن نشمت به اليوم لاشماتة في الموت . إننا لا ندري ماذا سيفعل الحزب في الغد . أما إذا كنتم تريدون توزيع الأراضي فإني لا أمانع .

وانتفض سلوم ممسكاً بحبل القياس وصاح :

- نعم الأرض للذي يعمل بها كما قال الحزب . ونحن الفلاحين الذين نعمل بها علينا أن نقسم الأرض منذ الآن قبل أن يجيء الجيش بفلاحين آخرين ويعطيهم الأرض .

واختلف الفلاحون حول كيفية القسمة . قال بعضهم :

بأن الذي يملك فدانين لا يجوز له امتلاك أرض جديدة قبل أن يحصل الآخرون على المساحة نفسها .
وقال آخرون : إن الأسرة الصغيرة لا يمكن أن تأخذ بحجم الأسرة الكبيرة ولذلك يجب أن توزع الأراضي حسب عدد أفراد الأسرة . وكادت الأمور تتفجر في مشادات عنيفة لولا أن بعضهم حاول تهدئة الوضع والتأكيد على أن هذه القسمة لا يمكن أن تكون أبدية فهذا أمر متعلق بإرادة الحكومة .

زوجة المختار زعقت واستفسرت عن زوجها الغائب كانت تندب حظها السيء . وكانت أم عمر تطمئنها قائلة :
- أنتم فلاحون مثلنا وسوف تحصلون على جزء من الأرض كما نحصل نحن .

ولكن العسس كان حذراً والوكيل جاسم وقف مبهوراً معزولاً لا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يقول . ولكنه في غمرة الفوضى أطلق طلقات عدة من بندقيته في الهواء وصاح :

- اسمعوا . ما يزال سعادته هو الأمر الناهي .
وحينما يأتي خبر موته مؤكداً تصرفوا كما يحلو لكم . لكنني الآن سوف أمنع أي عمل في غيابه فلا تسرعوا وانتظروا

الأخبار . قال ذلك ولف عباءته مستعداً للدفاع عن نفسه
وتضامن معه العسس تضامناً أديباً ، فراح يهدىء
الفلاحين .
وصاح أبو عمر :

- الزم حدودك يا جاسم سلطتك هنا انتهت . هذه
المرّة أطلقت النار لكنني أنصحك ألاّ لا تفعل ذلك بعد
الآن . إذا أطلقت مرّة ثانية ، قد يسحب الفلاحون
البندقية منك ويقتلونك بها .

لقد اشتدّ عود الفلاحين أمام غزارة الأبناء التي تؤكد
نجاح الانقلاب . وهذه هي الساعات التي حلموا بها
طوال حياتهم . لم يكونوا يشكون بأن أحلامهم أصبحت
حقيقية . لكن كلاً منهم كان ينظر إلى الأمور بمنظار
مختلف . سلوم أراد قسمة الأرض على جناح السرعة وأبو
عمر نصح بالتمهل حتى يعود المختار وتنجلي الأمور ومحمود
نصب نفسه مختاراً منذ تلك اللحظة بدلاً من المختار
الغائب . وأكد أنه سوف يتزوج من حميدة . وآخر نصح
ألاّ لا تتم الآن قسمة الأرض . وطالب بأن يزرعوا
الأرض بالعمل المشترك وفي نهاية الموسم يتقاسمون
الأرباح .

الوحيد الذي لم يشارك في هذه الفوضى كان إبراهيم . كان يقف ويسمع بصمت . راقب وجوه الفلاحين وانفجار مشاعر مكبوتة ماثت السنين مؤكدة أن هؤلاء الفلاحين لا يقف في وجههم أحد ولا يستطيع أن يقف إذا وحدوا صفوفهم . لكنه كان يشك في كل ما يجري حوله . واعتقد أنهم ينون مستقبلهم على أوامهم لم تتأكد ولم تنتف بعد .

ورنا إلى الأفق البعيد وتساءل : هل يمكن هؤلاء السادة الذين حكموا البلاد طوال قرون في أيام تركيا وطوال عقود في أيام الفرنسيين أن ينتهوا بهذه البسطة ؟ هل يمكن أن تتحقق أمان الفلاحين وأحلامهم في الأرض والحرية دون أن يشاركوا بأنفسهم في تغيير أوضاعهم ؟ وانتهى إلى القول بأن الله قادر على كل شيء . ولكن الشكوك كانت أقوى من أن يركن إلى نتيجة محددة .

دعا إبراهيم إلى الهدوء ، والانتظار ، وقال : الأمور مرهونة بأوقاتها . وحذر من تصديق كل الأخبار التي تأتي إلى القرية دون أن يثقوا بها . لكن صوته كان ضعيفاً . فقد طغت الفوضى على الجميع

في تلك الأثناء وصل عبد الله راجبا على فرسه قادما من المدينة . فرنت اليه الابصار . وبعد أن ترجل هجم عليه الرجال يتساءلون ويستفسرون ، وبعد ان استراح قليلا . اعاد على أذهانهم الاخبار نفسها لكنه أورها بصورة قاطعة على انها الحقيقة . قال ان الجيش استلم السلطة حتما . الأستاذ عادل قال له هذا في مكتب الحزب . والقناعة هذه منتشرة بين كل أعضاء وأفراد الحزب من قياديين وأعضاء وبطبيعة الحال فان ثمرات الانقلاب ستعود بالدرجة الاولى على الذين قاموا به . ونهض سلوم وقال :

- لهذا علينا ان نقسم الأرض فورا . فهذا أمر طبيعي ومن حقنا . ان كلمتنا هي التي يجب أن تكون القانون منذ الآن . فلا مختار أو اقطاعي ولا وكيل يستطيع ان يدلنا بعد الآن أو يفرض علينا أوامره .

عندما سمع الوكيل كلام سلوم . انتفض في مكانه مبهوراً وتحسس بندقيته . فانتبه اليه سلوم ، وصاح به :

- لا تتحرك يا جاسم . هذه البندقية ليست لك لتفرض سلطتك علينا هذه البندقية وغيرها ستكون لنا

لنحارب بها في فلسطين ونهزم الصهيونيين الذين احتلوا
أرضنا .

هكذا أخذت تتصاعد القضايا والأفكار في حوارات
الفلاحين ونقاشاتهم في تلك الساعات من النهار المنعش
لا بل أخذ بعضهم يستعيد الماضي ويذكر الآخرين
بخيانات الانكليز في قضية فلسطين . وبعضهم الآخر
أخذ يتحدث عن كلوب باشا ، واتفاقيات سايكس بيكو ،
وسلخ لواء اسكندرون . لكأن المكان تحول إلى برلمان
هؤلاء الفلاحون الأميون اعضاؤه وسادته .

وروى عبد الله ان مقهى جلالا . أغلق عند
الظهيرة . وعاد الناس الى بيوتهم بعد ان اغلقوا محلاتهم
ومتاجرهم . ولم يعد يظهر في الشوارع سوى دوريات
الجيش والشرطة التي تتجول فيها . وقد اخرجت
الى الشوارع شاحنات عدة نصبت على مقدمتها ميكرفونات
تذكر الناس بقانون حظر التجول ، وتنبه الى ان كل انسان
يشاهد في الشارع سوف يطلق عليه النار . ورغم ذلك
فقد خرجت طوابير من التلاميذ والطلاب الى الشوارع
يهتفون بحياة الجيش والحزب ويطلقون هتافات معادية
للإقطاعيين والسياسيين القدماء .

وروى عبد الله ان المدينة كانت كأنها على فوهة فرن
مشتعل . افتتحت الاحزاب المعارضة مكاتبها وأخذت
تعطي تعليماتها للناس بتأييد الجيش . وكان قادة الاحزاب
نشيطين يتصلون بالناس ويجرون المكالمات الهاتفية مع
العاصمة لتبين الاوضاع . لكن المعلومات كانت تأتي
ضئيلة غامضة ، دون ان يؤثر ذلك على نشاطهم
واندفاعهم في تأييد الانقلاب .

وتابع عبد الله :

وفي الثانوية تجمهر الطلاب داخل السور وخطب
اعضاء الحزب وسط حماسة الطلبة وهتافاتهم . دون أن
يعيروا اهتماما لكتيبة من الجيش نزلت الى الشوارع
والساحات واحتلت المدينة .

* * *

كان الوكيل جاسم بين الفلاحين في وضع لا يجسد
عليه . كان يراهم متجمعين في ساحة القرية وهم
يتناقشون كيف يوزعون الأرض . سلوم يحمل الحبل
الطويل يريد ان يقوم بالتوزيع فورا . وثمة جماعات
تتناقش حول ما حدث . هل ما حدث هو مجرد اشاعة أم

هو حقيقة . نظر الوكيل جاسم حوله ضائعا في مكانه
وتساءل في سره أين المختار وأين الشيخ عبد الرحمن كي
يساعده في السيطرة على هؤلاء الفلاحين . وحده
لا يستطيع ان يفعل شيئا حتى انه لا يستطيع ان يتنفس
أمام جموع هؤلاء الفلاحين . العسس نفسه الذي يأتي في
الدرجة العاشرة في سلم المسؤولية صرخ وهو يحمل بندقيته
مطالباً بتوزيع الأرض قبل ان يغير أصحاب الانقلاب
رأيهم . وقال بأعلى صوته :

- كل فلاح يأخذ قطعة أرض وعليه ان يدافع
عنها .

قال جاسم في نفسه : حتى العسس الملعون ركب
الموجة . لم يبق عند أحد أي وفاء وكل امرئ يريد
مصالحته ، ولكنه هو أين يقف وسط كل هذا ؟ ورجا
ابراهيم ان يتمهل قليلا حتى ينجلي الموقف ويتضح من
الذي قام بالانقلاب ، ومن ثم مصير سعادته وفخامته ،
المسجونين في سجون الانقلابيين . وهدد الجميع بأن
ما يفعلونه سوف يعود عليهم بالندم اذا أطلق سراح
السجناء .

ورد عليه الفلاحون باصوات متناثرة هنا وهناك ،

بأن الاوضاع هي هي ولن يتغير شيء فهم مدلون مهانون منذ ولادتهم وقد أتت ساعة فرج من الله وعليهم ان يستغلوها بسرعة . وساد المهرج والمرج بينهم وهم يخوضون في ساحة القرية الموحلة التي اصابها المطر قبل الشروق . وخاضت معهم الوحل كلاب القرية ظانة بانها مشرفة على ابواب وليمة ، وأخذ تحركها يشتد بين الناس . بينما قدم البدو الى القرية على خيولهم ظنا منهم بأن أهل القرية يتقاتلون . ولكنهم عندما وصلوا رأوا التجمعات هادئة وطبول العجر وزمورهم تفرع وأناسا يدبكون ويرقصون . اذن هناك فرح ، سألوا عرس من ؟

فأجابهم أبو عمر :

- هذا ليس عرسا . بل وقع انقلاب وتسلم الجيش السلطة وسيوزع الأراضي على الفلاحين . وذهل البدو القادمون للنبأ وسألوا عن شيخ قبيلتهم الذي ذهب لحضور جلسات البرلمان . فلم يستطع أحد أن يجيبهم عن سؤالهم .

وهمهم أحد رجال البدو غاضبا :

- هذا لا يجوز ، شيخ العشيرة يجب ألا يسجن وإذا حبسوه لا يبقى لدينا من يقود العشيرة وفي مثل هذه

الظروف لمن نلجأ ومن يمثلنا في البرلمان ؟ ولكنني اعتقد ان الذين قاموا بهذا العمل اذكياء فهم لا يجسسون شيوخ البدو لانهم لا يقرؤون ولا يكتبون وهم يوافقون على ما يريدون . فاذا اراد الجيش من شيوخ القبائل ان يوافقوا على شيء فهم سيتوصلون الى غايتهم . شيوخ القبائل لا يعاندون ولا يعارضون في مسائل لانهم القبيلة مباشرة .

كان الوقت عصرا ، وقد تلبدت السماء بالغيوم الماطرة . وبدأت الريح تعلق قليلا تسوق الغيوم أمامها ، واستمر رجال البدو يتحدثون ويتحاورون حول مصير شيخهم . وعرفوا ان الفلاحين سيقسمون الارض فتساءلوا أين سيرعون مواشيهم بعد الآن ؟ كما انهم منوا أنفسهم بأن يصيبهم شيء من الارض ؟ لكن سلوما فاجأهم وقال لهم بأن نصيبهم البادية للرعي وتابع :
- تأخذون البادية كلها للرعي . هذا مكانكم الطبيعي . وكأن سلوما أصبح مشرعا في القانون وقائد قسمة الأرض ، كما انه أصبح يبحث في تاريخ الفلسفة .
وقال :

- لقد روى لنا الشيخ عبد الرحمن حديثا عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه انه قال في نهج البلاغة «الأرض

لمن يعمل بها ولكل حسب جهده» فقبل الف وثلاثمائة وستين سنة قال علي هذا الكلام ونحن نذل ونضطهد تارة من قبل العثمانيين وتارة من قبل الفرنسيين . كل هذه القرون والأقوياء يطمسون هذه الحقيقة وعلينا نحن الآن أن نطبق أقوال علي والرسول الكريم .

وعجب الفلاحون من أين أتت كل هذه الشجاعة والجرأة لسلوم وقد كان بالأمس ضعيفا خائفا تحت كراييج المخاتير والوكلاء التي تأكل جلده . الان أصبح فيلسوفا يتحدث عن الرسل ورجال التاريخ والاقوال الماثورة .

وأخذ الفلاحون يضحكون من هذه المفارقة العجيبة ومن الحبل الذي يحمله كي يشرع بقسمة الأرض .

تذكر سلوم خلال ساعات مضت ما سمعه وما قاله له الشيخ سعدو والآخرين من قصص التاريخ من سيرة بني هلال العربية الى القرآن الكريم الى أحاديث الرسول إلى أقوال علي بن أبي طالب ، كل هذا دفعة واحدة ، وقلب الأفكار في رأسه وقارنها بما يحدث ، فتوصل الى نتيجة مؤكدة بأن الزمن لصالح الفلاحين .

كان ينادي :

- علينا ان نوزع الارض الآن حتى لا تلغي الدولة هذا التوزيع . فاذا وزعناها قبل الالغاء سوف يكون بإمكاننا ان ندافع عن ملكياتنا . واذا لم نوزعها اليوم فسوف يأتي اقطاعيون آخرون أو يعود سعادته وفي هذه المرة سوف ندوق الولايات منهم . أنا أنصحكم بتوزيع الأرض فوراً .

وضع الفلاحون من جديد ، وتناقشوا حول أفكار سلوم ، واحتد النقاش ، حتى تدخل ابراهيم واستطاع ان يفرض شيئاً من الهدوء على الجميع ونتيجة خبرته السابقة وعمره الذي يناهز الستين عاماً ، لم يستطع ان يجاري الآخرين في فوضاهم . فكر ان الامور أكثر تعقيداً مما يفكر به الآخرون . فهل يستطيع الجيش بعد هزيمة العام الماضي ان يقوم بهذا العمل بمفرده ؟ وهل يستطيع ان يتغلب على السادة الذين يحكمون البلاد منذ قرون ؟ كان يفكر بأن الذين حكموا البلاد لم يكونوا عرباً فإذا هناك حلقة مفقودة هي التي تكشف اللغز ؟ وهذا اللغز يجب ان يتضح كي يعرف الفلاحون كيف يتصرفون ؟ وتحدث بأفكاره لابي عمر ورجاه ان يعمل معه على تهدئة الفلاحين حتى لا يتصرفوا برعونة . وتكون العواقب اسوأ .

وعندما لمح الوكيل جاسم ابراهيم وهو يهدىء الجميع ويدعوهم الى التفكير الرصين ، تقدم نحوه وقد أعجبه كلامه . لكن ابراهيم نصحه بالذهاب الى خان الحجى ليعرف الاخبار الصحيحة عن الحجى والمخاتير وأحوال البلاد . وقد راققت الفكرة للوكيل جاسم . فركب فرسه باتجاه المدينة .

كان جاسم يفكر على نحو مختلف :

اذا مات سعادته فمعنى ذلك ان دور المخاتير قد انتهى ولا بد ان يكون للحكومة وكلاء في هذه المنطقة وأنا أفضل الوكلاء الذين يستطيعون السيطرة على الفلاحين بالسوط . وفي الطريق عند تل الصفا التقى الوكيل جاسم عبد الله العائد من المدينة بعد ان حصل على اخبار كثيرة عن الانقلاب في مكتب الحزب . لقد بقي فيه ساعات عدة وصلت خلالها الاخبار من العاصمة بالهاتف والاذاعة . أذيع بلاغ منع التجول ، وبلاغ آخر يحذر الذين يحملون السلاح ويتجولون به تحت طائلة العقوبة بالاعدام . عندما أخذ عبد الله يروي للوكيل جاسم هذه الاخبار خاف هذا وقال :

- ما رأيك في أن تعيد بنديتي معك الى زوجتي

سوف اذهب من غير سلاح . طالما ان حمل السلاح ممنوع . وقال له عبد الله :
- ان أسياذك انتهوا .

فرد الوكيل :

- علينا ألا نشمت بأسيادنا . ارحموا عزيز قوم ذل .
اذهب الى القرية يا رجل وهدىء الناس قليلا .
ورد عليه عبد الله :

- وأي عزيز قوم ذل هذا ؟ لقد مات ولحق بالمختار
سحيم . وباليك المختار سحيم مات منذ زمن بعيد ليلحق
به سعادته .
وأردف الوكيل :

- ما رأيك هل يعود المختار الى وضعهم السابق ؟
أم انهم سوف يتحولون الى اناس عاديين يعيشون بين
الناس بلا كبرياء أو اختيال . وهل تعتقد بأن عمداً
سيأخذ حميدة بنت المختار .

وأجاب عبد الله :

علمها عند الله . لا يعلم ما في الغيب إلا علام
الغيوب .

كانا يتحدثان بلهجة بدوية . لم يكونا خصمين .
وكان النقاش بينهما هادئا .

تابع عبد الله :

- ما رأيك يا جاسم في أن توزع منشير الحزب
الاشتراكي .

وانتفض الوكيل جاسم وقال :

- وهل أصبح منافقا في أواخر عمري بعد كل هذا
العمر في خدمة الاسياد أوزع المنشير ضدهم . ولصالح
من ؟ لصالح الاشتراكية عدوة الله والدين كما يقول الشيخ
عبد الرحمن .

وقال عبد الله :

- لماذا الاشتراكية ضد الدين ؟ ألم يأمر الاقدمون
بالاشتراكية والعدالة ؟ ألم يقل الرسول الكريم ان الناس
سواسية ؟

أجابه جاسم قائلا :

- أسرع يا رجل الى القرية الآن .

ورد عبد الله :

- لكن الشيخ عبد الرحمن يقول ان الله خلقنا طبقات فوق طبقات . هناك طبقة الاقطاعيين وطبقة المخاتير وطبقة الوكلاء . وتهد قليلاً ثم تابع :

- العسس وسلوم يريدان ان يوزعا الأراضي على الفلاحين . وربما الآن يقسماها فيما بينهم . وخطرت الفكرة لعبد الله « لو اقتسما الارض الآن وكل فلاح عرف انها أرضه ففي المستقبل سوف يدافع عنها ولن يستطيع الاقطاعي ان يعود ثانية . حتى لو عاد ثانية فلن يستطيع ان يأخذ الأرض » عندئذ سلم عبد الله على الوكيل جاسم وافترقا بعد أن أخذ بندقيته ليعيدها الى القرية .

وصل عبد الله إلى القرية وكان في استقباله ابراهيم ليعرف منه بعض الاخبار . كان الفلاحون يعتقدون بأن الاستاذ عادل يملك معلومات كثيرة عن الانقلاب يحصل عليها عبر الهاتف من العاصمة مباشرة لم يكونوا يعلمون أن معلومات الاستاذ كانت من عنده حول مشاركة الحزب في الانقلاب . لقد توقع أن يكون الحزب وراء الانقلاب لكنه لم يكن متأكدا . وعندما اشاع هذا الخبر كان يرمي الى تحريض الفلاحين ضد الاقطاع بغض النظر عن طبيعة الانقلاب ومن هم وراءه . كانوا يعتقدون ان لديه اسراراً

أكثر من تلك الاخبار التي يذيعها الراديو . وان الاستاذ عادل حريص على بعض اسرار الحزب وهو لذلك لن يقول الاخبار كلها . كانوا يعتبرون ان سرية الحزب هي سر انتصاره بينما استسلموا لهدف وحيد هو ان الحزب والاشتراكية يعنيان بالنسبة اليهم الحصول على الارض . وقد نجح الحزب في البرلمان في اصدار قانون منع تهجير الفلاحين خلال السنة الزراعية بعد الاستقلال . ففي نهاية السنة الزراعية يمكن للاقطاعي ان يهجر الفلاح اذا رغب كما يحق للفلاح ان يهاجر اذا رغب . أما خلال الفترة الزراعية فيمنع التهجير كما تمنع الهجرة . وقد كان في السابق بإمكان الاقطاعيين وأصحاب الاراضي طرد الفلاحين من قراهم في أي وقت يشاؤون دون اي شرط . وكان الفلاح المطرود يجمع أولاده وثيابه ويخرج من القرية دون أي أجر .

سأل ابراهيم :

- ما هي أخبارك ؟

ورد عبد الله :

- قتل سعادته وفخامته ، ومنع التجول ما يزال ساري المفعول ، والجيش تسلم السلطة وهو يدعو

المواطنين الى الهدوء ويمنعهم من حمل السلاح نهائيا فكل شخص يشاهد حاملا سلاحه سوف يعدم .

وخاف الفلاحون الحاضرون . لانهم جميعهم يملكون الاسلحة . ولكنهم سرعان ما غادروا المكان واتجهوا الى بيوتهم يجثون اسلحتهم .

وعاد سلوم ويده الحبل وصاح :

- علينا أن نقسم الأرض .

وأما الشباب الاقل سنا فقد تجمعوا حول سلوم

وقالوا له :

- مبروك لمحمود حميدة بنت المختار .

كانوا يحدثونه وكان الأمر قائم لاشك فيه . حتى إنه اقتنع بالفكرة ، رغم أنه لا يعرف شيئاً عن المختار ، فهو ما يزال في العاصمة .

- ٢ -

في العاصمة كان الحججي صاحب الخان والمخاتير في فندق الأهرام القريب من ملهى الكروان . وكانت تجلس معهم بغايا عدة من الملهى ، كانوا نياماً في الفندق منذ اللحظة الأولى للانقلاب . لقد اضربن عن العمل

وقادتهن المديرية كلود الفرنسية مطالبة برفع أجورهن .
وكانت المشكلة نادرة إلا أن مديرة دار البغاء قامت هي
الأخرى باضراب مماثل لرفع أجور العاملات لديها .
كانت كلود في الخمسين من عمرها عملت في فرقة فنية
وهي شابة ، ولكن عملها ترقى أكثر فأكثر في زمن
الفرنسيين فأدارت داراً للبغاء في العاصمة وبيتاً آخر في
حلب ، وبيتاً أخرى في بعض المدن . وكانت تشرف على
هذه البيوت بنفسها يساعدها بعض الأعوان . وفي كل دار
من هذه الدور كان لها رجال يتعاونون مع رجال الأمن
الفرنسيين وتتفق معهم على تنظيم البغاء وأغلب البغايا من
أوروبا وبينهن أمريكيات وأسبانيات .

لقد قابلت كلود وزير الداخلية بعد الإضراب وكانت
تضحك وتقول :

- أي استقلال هذا ونحن هنا .

كان لها الكثير من المعارف بين الضباط والشخصيات
الإجتماعية وكان معظم زبائنها من العسكريين . لكن كان
للعاملات عندها مهمات أخرى لصالح الأمن الفرنسي .
وكانت كلود توفد بدورها كل عام طاقماً من النساء الأقل
سناً حتى يستمر العمل .

كانت دار البغاء قريبة من فندق سميراميس والإذاعة فهو يقع في أجمل منطقة من العاصمة . ودار البغاء ليس خافياً على الناس . كان يراه العابرون ويزورونه . وكان الشبان جميعهم يعرفون كلود الفرنسية وقد أطلقت على نفسها ذات يوم اسم الحاجة كلود . كانت تتكلم العربية الركيكة . وتتحدث أحياناً عن مغفرة الرب . وإلى هذا كانت تدير مجموعة من البيوت السرية للنواب وزعماء العشائر والضباط الكبار . بيت تديره شهناز وآخر تديره جيهان في باب توما . وبيوت أخرى في العاصمة يرتادها الضباط ويلعبون فيها القمار ويسكرون . وكان من زبنها الجنرال نفسه الذي قاد الانقلاب . الناس وهم يرون الجنرال قائداً أعلى للانقلاب . لم يصدقوا ولم يعرفوا كيف حدث ذلك .

ساد الصمت في ردهات الفندق ، فقد كان الزوار على أهبة السفر . لقد انطلقوا إلى محطة القطار باتجاه قراهم . وعندما جلس الجميع في مقطورتهم ساد صمت حذر آخر ، وكان الحجي أكثرهم شروداً . لقد سمعوا بلاغ تسلم الجيش للسلطة ، وبلاغ منع التجول وعقوبة حاملي الأسلحة ، لكن ما يعذبهم كان جهلهم تفصيلات

الإنتقلاب . وفي الحافلة انقطعت عنهم الأخبار تماماً . فكر الحجي : ربما كان الحزب العربي الإشتراكي ضد هذا الإنتقلاب . وربما يستلم السلطة وتطبق الاشتراكية عندئذ ستكون الكارثة . عاد بأفكاره إلى الورا متحسراً : منذ شهر لو أطعت الشيخ عبد الرحمن وأرسلت ابني إلى هذا الحزب ، لكنت ضمننت اصبعاً فيه . أنا عندي خمسة أولاد وبنات كثيرات ، البنات لسن مشكلة . المشكلة بالأولاد . عليّ أن أوزعهم واحداً واحداً في الأحزاب . سوف أرسل الكبير إلى العربي الإشتراكي والثاني إلى حزب الإخوان المسلمين والثالث يبقى مع حزب الشعب والرابع مع القوميون السوريين . تلك كانت نصيحة الشيخ عبد الرحمن لكنني لم انفذها فهل فات الأوان . من يدري فد يكون الوقت قد فات ولكن إذا استلم العربي الإشتراكي فلا بد له من أن يجلب إليه الأنصار خصوصاً بين طلاب المدارس . لو أعلم ما سوف يحدث في الأيام المقبلة وقبل هذا هل العربي الإشتراكي مشترك في هذا الإنتقلاب أم لا ؟

المختار أبو حميدة كان متوقعاً على نفسه كمن جلد بالسياط . لم يكن يعرف شيئاً عن سعادته . ذهب ليقابله

فقال له تعال غداً ، لكنه لم يره . فكر : من سيكون مختار
المختير في هذه المنطقة بعد موت المختار سحيم . كل مختار
من المختير يتطلع إلى هذا المنصب . ولكن إذا كان الحزب
مشاركاً في هذا الانقلاب فسوف يوزع الأراضي على
الفلاحين كما يقول برنامجهم . وعندما نصح الشيخ
عبد الرحمن بالدخول في الحزب والتقرب منه وألا نمنع
توزيع مناشيره كنا متحمسين لمقاومة هذا الحزب وقلنا
معقول بعد هذا العمر أن نصبح اشتراكيين وندافع لحزب
ملحد . ولكن ها قد جاء الزمن الذي يجب فيه أن نكون
كذلك .

الحجي كان يعيد في ذهنه الأفكار نفسها وكيف
يحصل ديونه من الفلاحين إذا تمردوا . كانت له ديون كثيرة
في قرى الريف فعلى من يعتمد على تحصيلها ومن يحميه
بعد الآن . وقال في نفسه : حتى الغجر لن أستطيع أن
أتحكم بهم في المستقبل . وإذا السلطة وقفت مع الفلاحين
فهناك ستكون الكارثة الكبرى . فماذا سيحل بتجارته
وديونه والخان ؟ وكيف ستكون علاقته بالبدو بعد ذلك ؟
كيف ستكون علاقته بينك سوريا ولبنان وبنك باريس
وبنك روتشيلد ، التي يودع لديها أمواله ؟

لم يكن الحجى رجلاً مثقفاً لكن خبرته الطويلة في مجال التجارة علمته الكثير . لقد مضى عليه في عمله هذا أربعون عاماً . يحاسب الفلاحين ويسجل ديونهم ويذهب إلى البنك ويودع مئآت الآلاف من الليرات التي تعود عليه بأرباح طائلة يحسبها قرشاً قرشاً . لم يكن لديه محاسب فهو الذي يحسب كل شيء ولا يفوته شيء . أما الآن . فقد اختلطت الأمور في رأسه وتوقف عقله عن التفكير . كان وجهه مصفراً وهو يفكر بمصيره . بينما انتبه له المختار أبو حميدة ، فأخذ يربت على يده بلطف مطمئناً .

- لنتظر فرج الله يا حجي .

كان يواسيه بهذه الكلمات بين حين وآخر .

شيوخ البدو لم يكونوا يفكرون بهذا النحو . كانوا مرتبطين بالدول المجاورة أكثر من ارتباطهم ببلادهم ، فهم لذلك لم يكونوا يهتمون بما يجري . وكانوا على قناعة أن أي حكم سيأتي لا بد من أن يستعين بهم ويقربهم . وأعضاء البرلمان منهم لم يكونوا أبداً يفهمون ما يجري داخل قبته ، كانوا ينظرون إلى بقية الأعضاء فيرفعون أيديهم مع الأكثرية أو ينزلونها مع الأكثرية . لم تكن القوانين لتهمهم فعشائهم تنتقل في البادية ويرعون مواشيهم على

أطرافها ، ولذلك كانوا أداة طيعة لأية سلطة حتى السلطات الفرنسية . وقبلها السلطات العثمانية . هم مع السلطة الحاكمة ، ونادراً ما تمردوا على أية سلطة . وبالرغم من جهلهم فهم أمام مصلحتهم مثل الذئب يعرفون متى يهاجمون الخصم .

أما المخترار أبو حميدة فقد كان يفكر تفكيراً معاكساً لتفكير الحجبي . ليست لديه ديون على الفلاحين وليس عنده خان فلا يقترض ولا يقترض . كل أفكاره كانت محصورة في : هل يبقى مختاراً أم لا ؟ إذا بقي مختاراً فسوف يحافظ على وضعه وعلى كرامته بين الفلاحين . وحتى لا تهز هيبته بين الفلاحين عليه أن يتصرف بأسلوب جديد . كان يفكر بأن يجذبهم إليه . ابراهيم رجل عنيد ولكنه هادىء إذا اقتنع بشيء يجب أن ينفذه . فهو لا يخاف أحداً عندما يصمم على شيء . وإذا أرغم على شيء فإنه سرعان ما يترك القرية ويرحل .

كان المخترار أبو حميدة يتفحص شخصية إبراهيم في ذهنه وكيف يتعامل معها ليضمن تبعية الفلاحين إليه . أبو عمر هو الآخر رجل طيب ويشكل أداة طيعة بيدي الشيخ عبد الرحمن وهو يستطيع أن يقدمه بكل شيء . فهو رجل

سطحي لا يفكر بأعماق الأمور وخلفياتها . كل همه أن يعيش ويستر أسرته ويحميها من الفقر والعوز . وزوجته أم عمر تعمل طبيبة شعبية في القرية ، تداوي لسعات الأفاعي والمصايين بالحمى . وأدويتها تحضرها من الأعشاب . وكان الشيخ عبد الرحمن ينافسها في عملها من خلال الحجب والأحراز .

أما سلوم فهو رجل يخاف العصا عندما يخالف أو يتمرد يكون له الوكيل جاسم في المرصاد . أما الوكيل جاسم فهو ينظر للمختار دائماً نظرة حذرة . وهو يطمع إلى أن يصبح مختاراً ذات يوم . ولذلك فكر أبو حميدة : عليّ أن أتخلص من هذا الوكيل . أما الشيخ عبد الرحمن فكيف أقنعه بأن يعمل معي ؟ هو رجل متقلب انتهازي عندما يشعر بأن الحزب يسيطر على زمام الأمور فلن يتأخر عن أن يصبح حزبياً . إنه يبرر كل شيء أمام الناس بقوله لكل زمان دولته ورجاله . وعندما كان سعادته يريد شيئاً كان يقول للفلاحين : «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» .

والآن إذا اختلفت الأمور فالشيخ عبد الرحمن قد يخرج بمائة فتوى في اليوم تناسب الظروف والزمان . ولا يستبعد أن يذهب في الغد إلى مكتب الحزب ويدعو إلى الإشتراكية

ويضرب مثلاً بعلي بن أبي طالب . كان عندما يخُطب بين الناس يضرب الأمثال به . والآن ربما جاء الوقت الذي سوف يركز فيه على العدل في الإسلام .

كان الشيخ عبد الرحمن يجلس إلى جانب المختار أبي حميدة في الحافلة وكذلك الشيخ سعدو ، والمختار داوود . جميعهم يجلس بعضهم إلى جوار بعض . وكل واحد منهم يفكر بماذا وكيف يجب أن يتصرفوا كي يحافظوا على مواقفهم .

الشيخ سعدو رجل طيب - تابع المختار أبو حميدة حديثه لنفسه : ببعض الزكاة يمكن أن أملكه . أما النساء فيمكن أن يسيطر عليهن من خلال رجالهن . هو مختار القرية ويستطيع أن يرتب أمورهما وينظمها بالطريقة التي تجعله الأمر الناهي فيها .

ولكن هذه المرة عليه أن يرتبها وينظمها كي يبقى مختاراً دون أن يلجأ إلى العنف . الآن زمن الاشتراكية فكيف يتصرف معها ؟ ابنه الكبير سوف يرسله إلى الحزب هذه ليست مشكلة . فكما قال الشيخ عبد الرحمن ارسلوا أولادكم إلى الحزب ، لا تعرفون ماذا تخبىء الأيام . لكن الحجى اعترض وقال :

- هل تريدنا أن نصبح في هذا العمر اشتراكيين .
وفكر أبو حميدة . ولكن ما العمل ؟ هل أعمل بنصيحة
الشيخ عبد الرحمن أم بكلام الحجي . الحجي له أموال
كثيرة فهو لا يخاف من المستقبل أما أنا فعلي أن أضمن
المستقبل من خلال الحزب . ولكن ربما استلم الحكم
الإخوان المسلمون فإذا سأفعل ؟ المهم الأقرب إلى العقل
الآن أن الحزب العربي الإشتراكي هو المرشح الوحيد
للسلطة . ولذلك يجب الا يفوتني الأمر .

كان ينقل نظراته بالركاب فتوقف عند وجه الحجي
الذي بدا عليه القلق . كان يتسم بين حين وآخر ابتسامة
كثيبة ليؤكد أنه موجود فحسب . دارت الأفكار في ذهنه
من جديد واستعرض تاريخ حياته ، ماضيه مع الفلاحين
ومع سعادته ومع السلطة . لم يكن واثقاً من المستقبل .
وهو غير واثق بالمخاطر والى انقلاب . فالمخاطر يحاول كل
منهم أن يكون مختاراً رئيساً وكل منهم يحاول أن يتقرب منه
هو لأنه يأتي بعد المختار سحيم أهمية . لكنه لا يعرف شيئاً
عن سعادته . المختار مجحم لم يكن موجوداً وهو الوحيد
الذي يساويه بالأهمية في منطقته . ومجحم هذا رجل كبير
في السن وله خبرات كثيرة مع أهل الحل والربط . ربما حل

محل المختار سحيم . أخذت الأفكار تشغل باله وما ارتاح إلا عندما نظر إلى المختار داوود ، لم يكن يشكل هذا المختار أية عقبة أمام أبي حميدة ، لكنه كان شاباً وقد وصل إلى مركز مرموق في فترة قصيرة وربما لم يفته أن يفكر بأن يصبح كبير المخاتير . لكن الانقلاب قد لا يطمئن إليه ، فهو لا يملك خبرة ما بالإضافة إلى أنه فقير ويرتبط مع البدو أكثر مما يرتبط مع أهل القرى الآخرين . ليس لديه عشيرة ولكن لديه طموح شخصي فهو خبيث ويحوز ثقة الحجبي .

وفكر المختار أبو حميدة : ماذا سيكون تصرفي مع الحجبي أحمد في الفترة المقبلة . ماذا سيكون وضعه هو مع الفلاحين ومعني شخصياً ؟ هل أبقى على علاقة جيدة معه ، وهل يبقى هو كذلك معي ؟

وأخذ أبو حميدة يستعرض مصالح الحجبي مع الفلاحين ويناقد بينه وبين نفسه كيف يمكن أن يحكمها الحجبي لتماشى مع الظروف الجديدة . وتوقف عند فكرة هي أن الحجبي لن يستطيع تخليص ديونه إذا لم تكن علاقته معه جيدة .

فمصلحة الحجبي مرتبطة مباشرة بالعلاقة مع المختار . وإذا اختلت هذه العلاقة فسيبتج عن ذلك العديد من المتاعب .

فكل شيء له حساب . هكذا كان يفكر . والحافلة تسير
وتجتاز بعض المناطق الماطرة في طريقها إلى الزبداني ورياق
حيث ستستقر في حمص .

* * *

كان طموح المختار داوود كبيراً لأن سيده كان ضابطاً في
الجيش ولا بد أن يكون له دور في هذا الإنقلاب . كل
ما يعرفه أنه من الضباط الشيطيين وله رتبة كبيرة ومن
رجال الجنرال . كان يطمح إلى أن يكون وكيلاً لسيده في
المنطقة . فمركز المختار لم يعد مركزاً مهماً . لقد ضعف
دور المخاتير وجاء دور الحكم بالقوة إلى جانب العقل .
ومن يقوم بمثل هذا الدور أفضل من الوكلاء ؟ هكذا كان
المختار داوود يفكر . فهو يرغب في أن يصبح وكيلاً وربما
عندئذ يتزوج حميدة ، ولكن لماذا يفتح عليه كوة تأتيه منها
الريح . وأبو حميدة نفسه قلق لا يعرف ماذا وكيف
يتصرف . وضع المخاتير قلق والدور الآن للوكلاء
والأحزاب ، ولكن أي حزب سوف يتسلم السلطة ؟ في
كل الأحوال توصل المختار داوود إلى قرار هو أن يرتب
لنفسه دوراً أقوى من دور المختار وأذكى من دور الوكلاء
المعروفين الذين يستخدمون كراييجهم فقط دون أن

يستخدموا عقولهم .

أما المختار هارون ففكر على نحو مختلف . لقد سبق أن هجم عليه فلاحو قرية صوران وضربوه وشجّوا رأسه ، لم يعنه الإقطاعيون ، ولا الخان ، واشتكى للدرك فلم يستفد شيئاً . فكر لماذا أعادي الحزب العربي الإشتراكي ؟ قد يحميني أكثر من الآخرين . سوف أذهب إلى الحزب وأكون عضواً فيه . ويكون بيتي في القرية هو مكتب الحزب ، وبذلك أبقى مختاراً وحزبياً في وقت واحد . فإذا أبقى الحزب على المخاتير بقيت ، وإذا ألغاهم سأكون عندئذ في مأمن داخل الحزب ، وستبقى مكانتي في القرية .

الشيخ عبد الرحمن ، كان بدوره يفكر والحافلة تسير ويسود الوجوم والصمت بين ركاها . استعرض المفتي والمطران والخوري عندما كانوا يتناقشون حول الفضيلة والرذيلة ، وحول الاشتراكية . هل الاشتراكية فضيلة أم رذيلة ؟ وأعاد إلى ذاكرته آيات القرآن الكريم واستعرض التاريخ العربي كله فظهر له أن القيمة الوحيدة الباقية على مر العصور والحقب هي لمن يضع على رأسه اللفة وسيبقى سيد كل زمان وكلمته هي الكلمة العليا مهما تغير الزمن .

نظر الشيخ عبد الرحمن حوله ، وقطع الصمت قائلاً :

- هذه الحافلة لكي تسير كما نحب علينا أن نتحكم بها . ولن يتحقق ذلك إلا إذا انتقل واحد منا إلى غرفة القيادة . لقد نصحتكم منذ زمن أن ترسلوا أبناءكم الشباب إلى حزب العربي الاشتراكي لكنكم لم تفهموا ، ماذا ستفعلون الآن ؟
وصمت وصمت الآخرون .

تذكر الشيخ سعدو الفضيلة والرذيلة ولكن على نحو آخر تساءل : هل الفضيلة في القرية هي غيرها في العاصمة ؟ وهل شهنار وكلود وسارة في دمشق من السيدات الفاضلات اللواتي يجتمع عندهن أفضل الناس كالفتي والمطران وشيوخ البدو والعشائر ؟ لقد قدمها المفتي بلقب السيدة الفاضلة ، فهل هي كذلك حقاً ؟ عندما تضحك سعاد في القرية يرمونها بالرذيلة والخطيئة . نوفة الغجرية عندما ترقص يتهمونها بالعهر والقوادة ولكن هؤلاء النساء اللواتي لا ينظفهن كل ماء البحار يتحولن بقدرة قادر إلى نساء فاضلات .

لقد رأهن في ملهى الكروان . أنصاف عاريات يقدن عمليات البغاء بأنفسهن ماذا سيقول للفلاحين عن زيارته

للعاصمة ؟ أيقول لهم إنه زار الملهى ورأى العاريات
واستمع بالرقص مع البغايا ؟ ماذا سيكون مصيره بين
الفلاحين إذا حدثهم بصدق ؟ لم يفكر بالانقلاب
ولا بالاشتراكية . فكر بأنه خطب الفلاحين ذات مرة :
من يصلح الصهيونية فهو جاسوس ابن جاسوس . ورد
عليه المفتي : اترك السياسة لأهلها ؟ فما هي السياسة ؟
ومن هم أهلها ؟ أنا لا أعرف ! من يحكم هو الذي يفهم
في السياسة . أما أنا فما علي بعد أن أصل إلى القرية سوى
أن أرفع الأذان وأدعو الناس إلى الصلاة ، ثم أذهب إلى
بيت سعاد لشرب الشاي عند الجلاس . انظر في وجهها
وأتساءل هل تمثل الفضيلة أو الرذيلة كما يعرفها
الأخرون ؟

لقد تورط الشيخ سعدو بالسفر مع المجموعة إلى
العاصمة . وقد نبه الشيخ عبد الرحمن الحججي إلى هذا
الأمر وقال له : يجب ألا يرى الإنسان أشياء إلا على قدر
عقله وعلى الفلاح أن يبقى فلاحاً ، وعلى الشيخ أن يبقى
في القرية ولا يشاهد المدينة حتى لا تؤثر فيه . عقل الشيخ
سعدو لا يحتمل ما سيراه وربما خلق لنا بعد ذلك بعض
المتاعب .

ولكن الشيخ سعدو انضم إلى المجموعة في فوضى
التنظيم وهاهو يعود معها مثقلاً بالأفكار والصور
التساؤلات .

كان ينظر في الوجوه حوله ويضحك في سره . هؤلاء
هم الذين يحددون حجم الفضيلة والرذيلة وطبيعتها ، وهم
غائصون حتى آذانهم في الرذيلة . وكانت نظراته تلبسهم .
فهم كانوا يخشون عليه من التحول بعدما شاهد الكثير من
العجائب في رفقتهم .

وتذكر المرأة التي جاءت إليه . مسحت له ظهره برقة . لقد
طبعت في ذاكرته فأخذ يقارنها بالفلاحات والفجريات ثم
يعود إلى الصورة الواقعية حوله ويحدق إلى الوجوه . المختار
والحجي والشيخ عبد الرحمن وبعض البغايا اللواتي ركب
الحافلة باتجاه حمص . وتساءل مرة أخرى . إذن عندما
يقول هؤلاء إنهم ذاهبون إلى العاصمة لأمر خطيرة
يبحثونها مع سعادته كانوا يكذبون . إنهم يذهبون إلى
العاصمة للسهر في ملهى الكروان ومرافقة البغايا . هناك
يتمتعون معهن ويعودون ليقولوا إنهم ناقشوا قضايا هامة
لا يعرفها الفلاحون ولا ينبغي لهم أن يعرفوها .

عندما حدثت كارثة فلسطين عام ١٩٤٨ تحدث في
ساحة القرية عن قضية الوطن والشعب . الآن عن
الإنقلاب ماذا بإمكانه أن يقول ، وهو لا يعرف شيئاً ؟ لقد
اختلطت الأمور في رأس الشيخ سعدو . وأصابه الدوار .
عندها قطع الشيخ عبد الرحمن الصمت مرة أخرى .
وقال :

- لماذا تصمتون ؟ لم نمت بعد ! إذا مات سعادته
فالحياة مستمرة . لقد مات رسول الله وبقيت الحياة والدين
مستمرين هل أنتم خائفون ؟ اطمئنا لا تخافوا اتبعوا
نصائحي وسوف تنجحون . في الأمس قلت لكم إذا
أردتم أن تحافظوا على مواقعكم ومصالحكم اضمنا
الأحزاب . لم يفت الأوان بعد . بإمكانكم أن تستدركوا
الأمر .

أتت كلمات الشيخ عبد الرحمن منقداً للجميع من
ضغوط الأفكار والمشاعر التي تتنازعهم . كان الشيخ عبد
الرحمن يجلس إلى جانب امرأة ذاهبة إلى حلب . كانت
تنظر إليه من زاوية عينيها بين حين وآخر وهي تدخن
بغزارة . كانت تنفث الدخان في وجهه وتهمس في أذن
زميلتها : يبدو أن هذا الشيخ يجب النساء لأنه يضايقني

وهو جالس وكل لحظة يفرك ركبته بفخذي .

والحق أن الشيخ عبد الرحمن كان يتحدث ويفكر ثم يلقي بنظراته الجائعة نحو المرأة المغناج التي تتكلم العربية بصعوبة . وكان من الواضح أنها أوروبية الجنسية . فلم يستطع أن يحدثها بشيء ولم يكن الشيخ عبد الرحمن الوحيد الذي يجتلس النظرات نحو النساء في المقصورة . فالجميع كانوا يفعلون ذلك بالرغم من أن الأفكار والوساوس كانت تقلقهم وتعكر أمزجتهم .

كان الركاب والحافلة التي تسير بهم في حالة واحدة من التوتر والاضطراب . كثير من الركاب لم يسمع بالانقلاب بعد ، ومنهم من علم توأ من خلال أحاديث المخاتير والشيوخ . ووصلت الحافلة أخيراً إلى حمص . كان الضباب يغطي المحطة ، ويحجب الرؤية . قال الشيخ سعدو :

- نحن نسير في الحياة مثل هذه الحافلة لا نشاهد شيئاً ولا نميز الأشياء . تماماً كما نخلط بين الفضيلة والرذيلة . الحافلة داخل الضباب مثلنا نحن في الحياة لا نرى الأشياء على حقيقتها .
كان يتحدث بمنطق الفيلسوف .

وتوقفت الحافلة عن السير . وأخذ الركاب ينزلون إلى الرصيف . وهناك سمعوا الأخبار الجديدة . كان هناك مذياع صوته عال يقول : لقد فتحت اليوم صفحة جديدة في حياة الشعب العربي في سورية وطويت صفحات . فتحت صفحة مجيدة لتسجيل البطولات والأجناد وقد طويت صفحات مليئة بالذل والعار .

كانت الكلمات تدق في آذان المخاتير والشيخو كالمطارق . إذن هناك تبدلات مفاجئة . ماذا سيفعلون ؟ عليهم الآن أن يفكروا بجدية أكثر بعيداً عن الهواجس والوساوس التي رادوتهم في دمشق وعلى الطريق . يفكرون كيف سيحافظون على مواقعهم ومكاسبهم المتفاوتة . ولكن عليهم قبل ذلك أن يصلوا إلى بيوتهم . الحجي إلى الحان والشيخ إلى القرية ، والمخاتير إلى مناطقهم سوف يتصلون بالفلاحين .

ولمعت فجأة في رأس أبي حميدة فكرة ارسال برقية تهنئة لجماعة الانقلاب . يؤيد فيها انقلابهم ولو كان ذلك على حساب حياة سعادته . فكر : نحن الآن لنا مصلحة جديدة . وسواء سمونا منافقين أو غير ذلك ، علينا أن نبحث عن مصالحنا .

وفتش الحجى في ذهنه عن أقرب رجل يستطيع أن يساعده في تحصيل ديونه . فتذكر قائد الدرك وقائد الموقع العسكري . إذن هناك رجال آخرون غير الإقطاعيين يمكن الاعتماد عليهم . من يحمي ويحمي مصالحه عليه أن يقدم له الولاء ولكن في هذا الانقلاب عليه أن يقدم الولاء لمن ؟ كل شيء غامض ومجهول ومختلط . عليه أن يقنع أصحاب الخانات الآخرين ليكونوا قوة متعاونة متكاتفة . وعليه أن ينسق معهم . إن كان في تأييد الانقلاب أو معارضته ولكن الأقرب إلى المعقول أن يكونوا إلى جانب الانقلاب أو أن يقوموا بتقديم التهاني للجنرال . وفكر : الشيخ عبد الرحمن أعلن ولاءه للإنتقال قبل أن يعرف شيئاً عنه . لعل إحساسه يدلّه على أن شيئاً خطيراً لن يحدث . هكذا كان يفكر الجميع . حتى أن المختار هارون فكر أن يقطع طريقه ويذهب إلى مكتب الحزب العربي الإشتراكي في حماه ويطلب الانتساب إليه ، ويعتذر عن كل كلمة أو فعل بدرا عنه ضد هذا الحزب . وفكر أن يدعو أعضائه القياديين وجميع الأساتذة إلى القرية ليلقوا الكلمات الحماسية بين الفلاحين ولو تضمنت الأفكار الإشتراكية .

وفجأة صرح المختار هارون بأفكاره للحجى الذي

فوجيء ، فقال له :

- وهل نسيت ما فعله بك الفلاحون .

فأجاب :

- علينا أن نتعامل مع الواقع الجديد ببصيرة جديدة
وإلا فسوف نذهب بين أقدام الفلاحين .

في تلك الأثناء خرجت زوجة مدير المحطة ثم دعت
الجميع إلى شرب الشاي في غرفتها . كانت تعرفهم
جميعاً . وتعرف أغلب رجال الدين والإقطاعيين في
المحافظات الذين كانوا ينزلون في المحطة ويسهرون عندها
ويقضون أوقاتهم بالتسلية واللهو مع النساء . وعندما
انضموا إليها رحبت بهم واستغربت مخاوفهم وقلقهم
وقالت تطمئنهم :

- وهل تتصورون أن هذا الانقلاب . سيقرب
الدنيا رأساً على عقب ؟ أنتم مخطئون . وضحكت ضحكة
عالية ثم تابعت :

- الدنيا باقية على حالها والانقلاب مجرد لعبة قام بها
أناس ليس لديهم عمل . اطمئنا .
ومازحت الشيخ سعدو قائلة :

- وأنت ما الذي جاء بك الى هنا ؟ أما كان أفضل لك لو بقيت في القرية ؟ كيف قدرت أن تتحمل ما شاهدته ؟ لا شك كان كل شيء غريباً عنك .

وأجابها الشيخ سعدو :

- معك حق . ثم صمت .

دخلت امرأة واعطتها رزمة من الاوراق . تفحصتها زوجة المدير وقلبتها ثم قالت :

- حسنا لتوزعي هذه الأوراق في الطريق .

ولم تفصح عن مضمونها .

كانت المرأة ذاهبة الى حلب . أخذت المناشير وفهمت ان عليها ان تعطي كل محطة تمر بها رزمة من هذه الاوراق . وتعلقت أنظار الجميع بالاوراق بتساؤل : ماذا تحوي والى ماذا تدعو ؟ لكن لهجة زوجة المدير اشاعت في قلوب الجميع الطمأنينة .

وأكدت زوجة المدير :

- لا تهتموا بشيء . سيبقى الشيوخ يؤذنون للصلاة والحوارنة في الكنائس . أما المخاتير فسيبقون في أماكنهم .

حتى سعادته لم يصبه شيء ولن يتأثر . انها عاصفة عمرها
قصير .

وأنعشت المعلومات الجديدة الرجال . وأخذوا
يتبادلون النظرات ويتساءلون عن حقيقة هذه الاخبار .
وقليل من انتابه الشك فيها .

توقفت الحافلة ساعتين في المحطة قبل ان تتابع
طريقها . وفي تلك الاثناء وصل أحد الرجال من شركة
التابلاين المجاورة لمحطة القطار . وتحدث مع مدير المحطة
حديثا سريا . نقل له خلاله التعليمات بالهدوء فكل الأمور
ستنجلي عما قريب ولن يكون فيها ما يخيف . وأكد له ان
مدير الاي بي سي ، مسرور جدا للانقلاب ، وأن هذا
الانقلاب سيعزز موقع شركته . وهذا سيكون في صالح
الجميع .

بعد ذلك دخل مدير المحطة ونقل للمخاتير
والشيوخ ماذا دار بينه وبين الرجل من حديث فانفجرت
اساريهم وعلت الاشراقة وجوههم .

لقد ارتاحوا وتنفسوا الصعداء . كانوا يعرفون ان
المدير يحظى بمكانة هامة في الدولة ولديه معلومات كثيرة
ويعرف الشيء الكثير بالاضافة الى انه يملك أموالا طائلة

اكثر مما تملكه خزينة الدولة . ومع ذلك ظل يراودهم شعور ضئيل بالقلق حتى ينجلي الموقف تماما . لا سيما ان منع التجول كان ساري المفعول في مدينة حمص أيضاً . والمحطة كانت خالية من المارة بينما المدينة تغط في نوم عميق . ورغم ذلك فمحطة القطار ومكاتب شركة الأبي بي سي ، ودار البغاء الى جانبها كانت ما تزال تشعل أضواء حجراتها .

بينما انتقلت العاملات في دار البغاء الى المحطة وجلسن على مقاعدها . مع الركاب الذاهين والعائدين . وشعر الشيخ سعدو بمخاوف البغايا المنتشرات في المحطة . هن ايضا يشعرن بالقلق على مصيرهن . وكانت المخاوف بادية على وجوههن . من يدري فرما كن يخشين ان تقوم دولة الانقلاب بالغاء الدعارة واغلاق بيوتهن . فمن أين يكسبن عيشهن بعد ذلك ؟

وتذكر الشيخ سعدو الفضيلة والرذيلة . ومرت أمامه امرأة جميلة تلبس ثيابا مكشوفة وقد ظهر نهداها تحت الشال . وعندما وصلت الى مجموعتها صاحت :

- لا تخفن فان أحداً لن يستطيع ان يوقفنا عن عملنا هذا فلولا مهنتنا هذه لكانت الحياة والدنيا ناقصة ولكانت

خرابا فالمتعة هي أساس الحياة . أيها الشيخ ألا تصدق
كلامي ؟

وجفل الشيخ سعدو من الدخول في حديث كهذا
وارتج عليه الجواب فهمهم قليلا ثم صمت . وأخذ يفكر
بانه ربما قامت القيامة في هذه المحطة . لا شبيه لما يحدث
الا في الخيال . وهذه هي النار وهذه هي الجنة . تفصل
بينها شعرة قصيرة . وفي رمشة عين يمكن ان يهوي المرء إما
الى اليمين وإما الى اليسار . وكرت الصور في ذاكرته .
ومرت نسوة ملهى الكروان في خياله عاريات بثياب داخلية
صغيرة . هن مثل هؤلاء العاهرات اللواتي يخطنون في
محطة خالية وفي زمن يمنع فيه التجول .

وعاد بذاكرته الى القرية : انني افقرهم جميعا ولباسي
يكاد يكون أسملاً . لماذا لا تبدو عليه النعمة مثل هؤلاء ؟
لماذا لا تتاح لي فرص الفحش والمتعة مثلهم ؟ الأنني أكثر
تدينا منهم ، أم لأن الحظ لم يبتسم لي مثلهم ؟ سبحتي مائة
حبة وحة . ولا تفارق الشهاداتان شفتي . ولكن أفكارني
غير مستقرة ، ترنو بعيدا الى أشياء افقدني اياها الحرمان .
ولكن لماذا اتيت لاعيش هذا الاضطراب والقلق كله ؟
ما شأنني في السياسة ؟ . سأترك السياسة لاهلها . سأعود

الى القرية وأعلّم الاطفال وأؤذن بالناس واقطف الأزاهير
من الحقول وازور سعاد التي يحبها قلبي . هل هذا
يكفي ؟

ان الخطيئة تراودني هي الأخرى . ماذا لو أطبقت
على احدى هؤلاء العاهرات واستمتعت بصحبتها ؟ ان
الخطيئة مغرية يا ويلك يا شيخ سعدو من نفسك . يارب
أنقذني من هذه التجربة .

* * *

- ٣ -

في حفلة القنصلية الاميركية في دمشق . نظر
الكولونيل سيمون الى وجه المستر جبارة وغمزه بعينه ثم
أشار له بيده اشارة فهم منها المستر جبارة أن كل الامور
تسير بسلام .

كان يحضر الحفلة سعاده وبعض الوزراء
والنواب . وكان الكولونيل سيمون قبل وصوله قد تجول في
المدينة وعاد الى مكتبه وتلقى أوامر جديدة . نقلها على
الاثر الى مزرعة باري حيث قرأها هناك جون فوستر .

- ٩١ -

وبعد أن قرأ هذه البرقية علق قائلاً : «تابعوا الى النهاية»
وبعد فترة وجيزة ضم الاجتماع في مزرعة باري أناساً
مختلفين . هم كل الذين شاركوا في احداث اليوم التالي .
لقد اشتد الخلاف بين المجتمعين . فالمستر هيل يريد ان
توقع اتفاقية التابلين على الورق ، والمستر أولزو يريد أن
توقع اتفاقية رودس بينما قال مدير شركة الأي بي سي :
نريد ان توقع اتفاقية الانكلو اوريان اولاً .
أما اتفاقية النقد مع فرنسا فقد كانت تشكل الحلقة
الضعيفة . في سلسلة الاتفاقيات . وقد عرضت جميع
الاتفاقيات على المستر جون فوستر . ففردها على طاولته
وأخذ يتمعن بها ثم ضحك وقال :

- انني ارى الشرق كله مبعثراً على طاولتي مثل هذه
الأوراق . ولكن علينا ان ننظمها بعضها فوق بعض .
لنعرف كيف نصحح اتجاهاتنا .

لا شك ان المستر جون كان يقصد بكلامه هذا ان
حل مشاكل أوروبا الخارجية من حربها مع النازية لا يمكن
ان يتم الا من خلال تبعية أوروبا للولايات المتحدة
الأميركية . وقد قال غير مرة إنه يجب الانتقال بالاشكال
الاستعمارية القديمة والمخططات والمشاريع الأوروبية

الاميريكية التي تضمن مصالح الجميع إلى مستويات أعلى ، من ضمنها ايجاد العملاء في البلدان وتحرير الاتفاقيات التي تخدم مصالح الحلفاء .

وأكد ذلك وهو يتفحص أوراقه :

- عليهم ان يعقدوا جميع الاتفاقيات التي نريدها .
والا كان لنا معهم شأن آخر . وكان قلقا بعض الشيء .
لقد ذهب الى فندق سمير أميس في ظروف منع التجول وهناك قابل الوزير الفرنسي المفوض المسيو جان وكان القنصل الامريكى حاضرا . ثم جاءت السيدتان كلود وشهناز من فندق الاهرام . ودار حديث باللغة الفرنسية بين المجتمعين . بينما لم يكن احد من حولهم من زبائن الفندق يعلم شيئا عما يتحدثون حوله . لقد اغرقوا في الحديث عن التفاصيل . وكان شهناز أكثر المجتمعين فرحا وتهليلا ، قالت :

- دبي الصغير هذا فعلها وعليه ان يتابع حتى

النهاية .

وابتسم الجميع لانهم فهموا انها كانت تطلق على

الجنرال لقب «دبي الصغير» .

وقالت كلود ، التي كانت متوترة الاعصاب خائفة
على دار البغاء وعلى بناتها المسؤولة عنهن :
- وهل تعتقدين أنه سوف ينجح ؟
فضحكت ثانية وقالت :

- سوف ينجح فهو قادر على ذلك . وسوف يساعده
المستر جبارة في كل ذلك . ولكن ماهي أخبار المستر
جبارة ؟

فرد الكولونيل :

- سيبقى في مكانه وربما أضفنا له منصباً آخر .
- ولكنني علمت أنه قد تضايق من سجن سعادته .
- سوف يرضى بعد حين . يجب ان يعلم ان الجنرال
ليس له برنامج معين . ولا خطة مدروسة . وسيقوم
بأفعال لا يرضى عنها الجميع . لقد اتصل برئيس البرلمان .
وهو كما تعلمين رجل وطني لكنه سلمي وكان من أبرز
الذين طالبوا الفرنسيين باعطاء الاستقلال لسورية . وهو
في تكوينه من أسرة بورجوازية كبيرة ويعرفه أغلب زعماء
الدول العربية ولكنه لا يؤمن بالنضال المسلح والعسكري
ضد الاعداء . وهذا أمر فيه مصلحتنا . لقد اختير رئيساً

للبرلمان . ولهذا اتصل به الجنرال وقام بزيارته في منزله ليبحث معه أمور البلاد المستجدة . لقد تحدثا عن الفساد الذي يعم البلاد . وقد اصغى طويلا للجنرال ونصحه باقامة اجتماع لاعضاء البرلمان .

كان الكولونيل يتحدث عن احداث الفترة الاخيرة . وقبل ان يقوم الجنرال بانقلابه العسكري . لم يكن لديه بالفعل اية خطة أو هدف سوى استرداد كرامته التي اهينت في البرلمان .

ولقد قام واحد من بينهم يدعى فيصل بيك وهو صاحب حزب يرتدي اعضاؤه قمصانا اطلق عليها اسم القمصان الحديدية متشبهين في ذلك بالنازية والهتلرية التي مضى زمانها . وقد كان يتمثل هتلر في شكله وفي لباسه وحركته . وعندما شتم الجنرال في البرلمان قرر الجنرال ان ينتقم منه بأن يخلق شعره ويدوس بجزمته على رقبته . وأول عمل قام به بعد الانقلاب كان اعتقاله من قبل الشرطة العسكرية حيث اعطى الاوامر بحلق شعره ، ثم ارسل من يدوس على رقبته لانه كان مشغولا بأحداث الانقلاب .

كان الجنرال في الستين من عمره . وأغلب سني

حياته أمضاها عازبا دون زواج . لكنه قبل عامين أي في الثامنة والخمسين من عمره تزوج امرأة في أواسط العمر . لقد امضى حياته بين النساء والسكر ولعب الميسر . تخرج من الدولة العثمانية ضابطا . لكنه أودع في آخر أيامهم في السجن مدة سنتين . ثم خدم في الجيش الفرنسي فترة طويلة وطرد من الجيش وعاد اليه بعد الاستقلال بعد ان ربح دعوى قضائية ضده . لكنه عاد أولا الى الشرطة المدنية . فتسلم منصب قائد قوى الامن الداخلي ثم كلف بقيادة الاركاب عام ١٩٤٨ في أعقاب حرب فلسطين .

كان مغرورا شديدا الاعتداد بنفسه . وكان كثيرا ما يقف أمام المرأة مرتديا بزته العسكرية . محتذيا جزمته ذات النطاق . متشبها بقيادة الجيوش العظيمة . ولأنه كان أقرب بشكله الى موسوليني فقد تمثله بوضع المونوكل* على عينه وعصا المارشالية تحت ابطه وأخذ يقلده في كل شيء . كان ينظر الى نفسه ويفكر بأنه يستطيع ان يحقق لسورية انتصارات كبيرة دون ان يدور في ذهنه ان سورية دولة صغيرة عدد سكانها ثلاثة ملايين نسمة وجيشها مكون من

* المونوكل : بالفرنسية نظارة لعين واحدة .

سرية من الشرطة العسكرية وفوجين أو ثلاثة أفواج من
العسكريين المقاتلين .

لم يكن يجب ان يؤدي احداً ، لكنه عندما يقبل على
التحدي كان يتحول الى وحش كاسر . كان مشاكسا في
التحدي . ولذلك اشتهر بالشجاعة والجرأة . لكنه لم يكن
قائدا عسكريا ناجحا كما أخذ يصوره اعوانه عشية
الانقلاب . وما أحس الا بعد وقت ان عمله لم يكن أكثر
من مغامرة دفع اليها وفوجيء انه خدع وترك بلا مخطط أو
برنامج .

كان يتساءل في حمى انقلابه ماذا سيعمل ؟ وكيف
يبدأ ؟ لقد اغراه المستر جبارة ووعدته بأن كل شيء سيكون
جاهزا . ولقد أعلن أمام سعادته وأمام الوزراء بانه غير
راض عما قام به الجنرال . انه يتظاهر بذلك . فلا شك ان
الخداع هو جزء من اللعبة .

كان المستر جبارة قد أخرج رواتب الجنود شهرين
مضيا ليزيد من حدة الازمة بحجة انه لا يوجد مال في
خزينة الدولة . ولكنه بعد ان نفذ الجنرال انقلابه . أعطى
أوامره للبنك فصرفت جميع رواتب العسكريين وهذا
ما شجع الجنرال وقواه بالاضافة الى ذلك فقد شجعت بقية

القوى الجنرال على عمله هذا ! الاحزاب والقوى الاخرى
وبعض الشخصيات التي كانت تكن الكراهية والعداوة
لسعادته . وعندما نفذ الانقلاب ابتهج هؤلاء الخصوم
لانهم كانوا يتصورون ان هذا العهد سينهي دور كل
الشخصيات السياسية القديمة . لكن التعليقات عشية
الانقلاب جاءت تطمئن الجميع بان التغيير لن يكون
كبيرا . ولذلك لا خوف على أحد . حتى ان السفارات
والقنصليات وصلتها ابناء مؤكدة بأن الانقلاب هو
للاصلاح فقط وليس لتغيير نظام السياسة المحلية . وقد
ارسل الكثير من البرقيات للدول العربية المجاورة على
سبيل الطمأنة وجلاء التكهينات ، كذلك فقد وصلت الى
التجار تطمينات مؤكدة بأن مصالحهم لن تمس فلا مبرر
للقلق . وبذلك سارت الامور دون اية مشاكل ودون اية
مصادمات أو اراقة دماء . وأعطي الجنرال زخما جديدا بين
الفلاحين والعمال والجماهير فقد ايدته جميع الاحزاب
ورمت بثقلها الى جانبه .

لقد كثرت خطب الخطباء التي كالت المديح للجنرال
وصورته على انه المنقذ . حتى ان الجنرال نفسه أخذ يطلق
على نفسه هذه الكلمة . ولقد وقف ذات يوم في مكتبه

واستدعى رجاله ووزراء المال والاقتصاد لكنه فوجيء
بالجميع يطلبون منه ان يخلي سبيل سعادته وفخامته . حتى
ان المستر جبارة قال :

- سيادة الجنرال . اذا لم تكن راغبا في اخلاء
سبيلهم فارجو ان تضمني اليهم في السجن . وقد انتقلت
احداث هذا الاجتماع الى الناس . وعلق زكي الارسوزي
بقوله على هذه الحادثة :

- ان المستر جبارة يطلب حبسه حزنا على سعادته !
يريد ان يغسل ثوبه ولكنه يظل مخطئا اذ ان ما اتسخ فيه
ليس ثوبه ، انما جلده وتنظيف الجلد مستحيل الا
بسلكه ! ان جلده متسخ من تعامله مع الفرنسيين ونحن
نعلم انه رئيس لجنة تصفية العلاقات بين سورية وفرنسا
وهو صديقهم المخلص . يحاول ان يأخذ دوراً في مسرحية
مكشوفة .

استدعى الجنرال بعض ضباطه وسلمهم قيادة
الجيش وتفرغ هو لمواجهة المواقف والمستجدات السياسية
الطارئة . اتصل برئيس المجلس النيابي يفاوضه ، عله يجد
له حلا سلميا يوفر له النجاح في مسعاه واستجابة لرغبة

فقد دعا الرئيس الى اجتماع اكبر عدد ممكن من نواب البرلمان ، واقترح ان يقام الاجتماع في فندق الشرق (اوريان بالاس) لكي لا يتخذ الاجتماع صفة رسمية .

وهكذا كان فقد اجتمع في الفندق اكثر النواب بهدف ايجاد وسيلة للخروج من الوضع المتأزم . ولقد جاؤوا بالرغم من قانون منع التجول واعتذر رئيس البرلمان بحجة المرض فترأس الجلسة نائبه .

جرى نقاش محتدم طويل لعلهم يقنعون فخامته بالاستقالة على ان يعاد انتخابه رئيسا جديدا وتشكل حكومة جديدة لاجراء الجنرال من مأزقه . لكن الاوامر السرية والمخطط غير المعلن كانت مخالفة لهذه المسرحية الكاريكاتورية التي كانت تدور بين نواب البرلمان من جهة وبين سعادته وفخامته من جهة أخرى .

لقد صدرت الأوامر : تابعوا إلى النهاية .

وما على الجنرال إلا أن يمثل ويتابع للنهاية . وقد ارسل المجتمعون في فندق السمر اميس شهناز الى الجنرال . فاستطاعت أن توهمه بأنه الحاكم المطلق لسورية وأن البرلمان يعيق مشاريعه الاصلاحية . وتابعت :

- اكمل يادبي الصغير . فانت الآن كل شيء .
كان ينظر اليها وينظر في المرأة أمامه ثم يدور في
مكانه مثل الدب الصغير الذي يلاعبه صاحبه من أجل
التسلية .

من ناحية اخرى كانت الجماهير ، مبتهجة بهذه
المستجدات دون ان تعرف ماذا يدور في الخفاء أو الى أين
يمكن ان تقودها الاحداث . وظهر الجنرال كقائد ملتزم
بالقضايا الوطنية وقضايا الجماهير الملحة .

وكانت المفاجأة أن من يتحدث عن الجماهير
ومصالح الشعب هو الجيش أكبر القوى الضاربة في
البلاد .

وسعد الناس وهم يرون للمرة الأولى . على أرض
الواقع ، الجيش يتحدث عن حقوقهم وعن الاستقرار
والازدهار المنشودين .

لم يسمع أحد منذ مئات السنين شيئاً يمثل هذه القوة
ويمثل هذا الوضوح . حكم العثمانيون البلاد أكثر من
أربعة قرون لم يسمعوا خلالها كلمة من هذا النوع ، ثم
جاء الفرنسيون فأكملوا مسيرة العثمانيين وبعد الاستقلال لم

ير أحد من فخامته وسعاده شيئا يمكن ان يوصف بالوطنية
ومراعاة مصالح الجماهير الكادحة العريضة . لقد استمر
حكم الاقطاعيين . أما الان فان الأمور مختلفة . هكذا
كان يتحدث الناس في كل مكان في المدن والأرياف .
معلقين آمالا عريضة على قائد البلاد الجديد وجيشه
الوطني .

وفي غمرة الاعتزاز بالنفس وباستشارة من الكولونيل
سيمون ، وبمزحة من شهناز شكل الجنرال مجلسا حريا
تزعمه بنفسه ، ثم أصدر بلاغا بحل البرلمان بكامله .
وتولى بنفسه السلطة المطلقة التشريعية والتنفيذية وأصبح
سيد سورية . ولم يكن لاي حزب أي اعتراض على ذلك
بل شجعتة الاحزاب معتقدة بأنه يقوم بما كان يجب أن
يقوموا به هم وهو انهاء العهد القديم .

وأصدر الجنرال بيانا للشعب انتشر في كل مكان .
فكان الناس يزغردون ويطلقون النار في الهواء ابتهاجا
بالانقلاب ويخرجون الى الشوارع ، بالرغم من حظر
التجول ، في مظاهرات حاشدة تأييداً للجنرال .
وأخذت البرقيات تنهال على مكتب الجنرال مؤيدة له
متهمة البرلمان وفخامته وسعاده بتعطيل التقدم ، مؤكدة

أن عهد الفساد والارهاب والمومسات قد انتهى . وكان
الجنرال يقرأ البرقيات بشغف . وقيس اوزان مرسلي
البرقيات . فلم ينتبه أي شك بعظمته .

برقية من قائد الثورة السورية الكبرى ، يهنيء فيها
الجنرال . برقية من عضو القيادة القطرية لحزب البعث
العربي . وفي خطبة أمام جماهير حاشدة في جامعة دمشق .
كال ممثل الحزب المديح للجنرال . وقد سمع الجنرال
ما قيل حوله ، فضحك وقال في نفسه :

- كنت يا شهناز دبا صغيرا - والآن اصبحت دبا
كبيراً ، ألا ترين ذلك أيتها الساقطة الجميلة ؟

وضع الجنرال في مكتبه مرآة يرى فيها نفسه بكامل
قامته . كان يمشي جيئة وذهابا وهو ينظر الى خياله في المرآة
من جميع الجوانب . وياوضاع مختلفة فلم يكن يشك ابدا
بانه الدوتشي موسوليني لم لا ، وقد أصبح اسمه على كل
لسان وفي كل محفل ، وفي كل قصر ؟

ملك مصر ، ملك العراق . رؤساء الدول
الاخري ، مشغولون في معرفته ومعرفته شخصيته ، وبماذا
يفكر وماذا يصنع . انه الآن الشغل الشاغل لكل

السياسيين العرب من حوله . وجماهيره معه ولم يحتاج الى
رخصة واحدة ليفرض سلطته على البلاد كلها . اذن
الناس كلهم معه ضد تلك الشخصيات المهترئة التي
سحقها واحاها الى غبار ! . نظر الى جزمته فرأى عليها
بعض الغبار فأمر بأن يلمعها أحد الضباط .

وكان الناس يعتقدون ان السياسيين السابقين كانوا
مع الاتفاقيات اللاوطنية المفروضة على البلاد . وان
الجنرال جاء لكي يخلص البلاد منها ومن هنا عندما اطاح
بهم اعتقدوا ان اول عمل سوف يقوم به الجنرال هو ابطال
هذه الاتفاقيات وانقاذ سورية منها .

في فندق الاهرام كان هناك مجنون يدور في حجرات
الفندق ويصيح بأعلى صوته «باعوها . . باعوها» .

وفي ذلك الصباح كانت جماعة من فنانات ملهى
الكروان قد استيقظن مبكرات ليستطلعن الانباء . لم يجدن
احدا في الفندق يسألنه عن الاحداث . فالشيوخ والمخاتير
الذين كانوا يملؤون بهو الفندق رحلوا الى قراهم . .
وما بقي الا أبو العز صاحب الفندق جالسا وراء مكتبه وهو
يدخن النرجيلة . تقدمت منه شهناز وقالت له :
- لقد فعلها الدب الصغير كما ترى .

كانت ترتدي فستانا شفافا أظهر كل مفاتن
جسدها .

فرد أبو العز :

- حسنا فعل ، ليأتِ الآن بعض المهومين ليتحدثوا
عن الاشتراكية .

وضحكت شهناز وقالت :

- وما يدريك . قد يكون الجنرال اشتراكياً ؟

كان أبو العز يعلم أن ما من شيء في العالم يمكن ان
يضابق الجنرال أكثر من كلمة «اشتراكية» أو «شيوعية» .

ولذلك ضحك وأجاب :

- على كل اذا كان كذلك ، فانه سيكون على الخط

الاشتراكي الذي نحبه (وغمزها بعينه) . وسيكون في أثناء
ذلك اشتراكياً بالقدر الذي يعرفه من اللغة العربية . فهو
كما تعلمين لا يعرف منها إلا القليل وينطقه بشكل
مضحك .

العادات في الفندق ما تزال على حالها . أبو العز
يناقش شهناز . وأبو نعيم ماسح الأحذية يدور في الصالون

ويناقش الجميع بمن فيهم البغايا . كان يناقشهن عادة عن الاشتراكية وتحرير فلسطين . فاذا غضب منه أبو العز كان يمنعه من الدخول الى الصالون . فأبو نعيم هذا يفلسف الامور كثيراً ولا يعجبه شيء . أما الحارس فيأتي ويذهب كالعادة ، وأحياناً تدفع له كل واحدة من النسوة قليلاً من المال كبخشيش .

فلا يملك عندئذ سوى ان يردد بصوت مسموع :

- ياساتر يارب استر على عبادك .

* * *

- ٤ -

أرسل الجنرال بعض ضباطه ليفاوضوا سعادته على الاستقالة لكنه رفض . كان يرى ان الجنرال وجد لينفذ مهمة ثم يمضي فلم يخضع للضغط رغم انه سجين . لقد نجحت الحركة الماسونية بتخطيط الانقلاب وتنفيذه وحافظت على الجميع . وظهر للوهلة الأولى للجماهير ان الاحزاب الوطنية هي وراء هذا الانقلاب . ووصلت الانباء الى الريف واقامت المهرجانات والخطب شارك فيها

ممثلوا الاحزاب وقياداتها . ومن قيادة الحزب العربي قام
عضو من بين الجماهير وحميا الجنرال . وارسل باسم الجماهير
المحتشدة برقية يعبر فيها عن مساندة جماهير حماه
للانقلاب . وهكذا ايدت الاحزاب الجنرال منذ الايام
الاولى للانقلاب .

وعلق الفلاحون في كل مكان آمالا عريضة على
الجنرال . فاقاموا مهرجانات الفرح التي اطلقوا فيها النار
كما في الاعراس ورأى آخرون أن يوزعوا الاراضي على
الفلاحين قبل ان يتراجع الجنرال عن قراراته .

وفي أيام الاضطراب تلك ، جمع الحجي اولاده
الخمسة ووزعهم بالاسم على الاحزاب وأبقى الاخير دون
حزبية ليساعده في تسيير أمور الخان .

خالد بك نفسه الذي يملك قرى عدة غرب حماه ،
ذهب الى فرع العربي الاشتراكي وأصبح عضوا فيه . لم
يصدق الفلاحون الحاضرون أن خالد بك يصبح عضوا في
حزب اشتراكي . ومع ذلك قبلت عضويته في الحزب ولم
يلبث أن أصبح عضوا قياديا فيه .

كان يجمع الفلاحين في القرية ويخطب بينهم عن

الاشتراكية . ويبدى استعداداه لتوزيع أراضييه على
الفلاحين فيما لو سمحت له الحكومة بذلك .

سأل أحد الفلاحين الرفيق خالد بك :

- لماذا لا تسمح الدولة بتوزيع أراضييك ؟

فأجابه :

- الحكومة تخاف أن يصبح هذا العمل مثل عدوى
المرض . فاذا وزعت الارض على الفلاحين في هذه
القرية ، فسوف يطالب الفلاحون الاخرون بتوزيع
أراضيهم بالمثل في اقطاعات أخرى . وهكذا يمكن أن
تشكل حالة فوضى والدولة غير قادرة على السيطرة
عليها . ثم إن الجنرال - (وصمت) - انتم تعرفون انه
لا يجب الحديث عن الاشتراكية .

* * *

- 0 -

فوجيء الفلاحون بتعيين عدد من المحافظين من بين
أصحاب الاملاك والاقطاعيين الكبار . واستغرب

- ١٠٨ -

الفلاحون مثل هذا التصرف وهم الذين كانوا يعتقدون أن زمن هؤلاء ولى دون رجعة . وأخذوا يعيدون في أذهانهم صورة الجنرال التي انطبعت في ذاكرتهم في الأيام الأولى للانقلاب .

وعبر يوسف عن مخاوف الجميع وهو يدخن أمام المضافة ، وتبدل لون الوجوه عندما قال :

- عندما غادرت فرنسا قلنا تخلصنا من المستشار الفرنسي ، ولكن بعده جاء الإقطاعيون وفي كل قرية أصبح هناك مستشار له .

ونفخ في الهواء دخان سيجارته ، وهز العسس برأسه وهو يطبخ القهوة :

- وقلنا عندما جاء الجنرال ذهب الإقطاعيون ، فظهر أن الإقطاعيين غدوا في مواقع أقوى . وعين منهم المحافظون .

وأردف أبو عمر :

- لا حول ولا قوة الا بالله - يبدو أن المخرز أقوى من العين .

وتكشفت الأمور الجديدة عن رغبات مكبوتة ،
فجرها الوكلاء في القرى . وعادت ايام السياط وتعذيب
الفلاحين واضطهادهم .

الوكيل جاسم اصبح مثل عنزة بن شداد عندما يمشي
في القرية يمشي خلفه العسس وعباءته تلوح خلفه . نادى
سلوما وربطه بالحبل الذي كان سيقسم به الاراضي على
الفلاحين وجره في شوارع القرية وهو يقول له :

- سوف أعلمك كيف توزع أرض سعادته يا كلب
يا بن الكلب .

وعلق الشيخ عبد الرحمن على الاحداث بأنه كان
يتوقع ذلك . واتهم الفلاحين بالغباء لانهم صدقوا أن
قرونا من السلطة والنفوذ يمكن أن تزول بين عشية
وضحاها . وقال :

- قلت لكم ألف مرة «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول
وأولي الأمر منكم» .

لقد تراجع عما قاله بالأمس . وكان يملك لكل حالة
لبوسها .

كان يفكر كيف يكبت صوت الشيخ سعدو الى

الابد ولا يدعه يكرر ذهابه الى العاصمة مرة ثانية .

* * *

- ٦ -

صاحت كلود في مبعها : مساكين هم القادة
السياسيون والحزبيون لقد تورطوا ودخلوا المستنقع ، اذا
انسحبوا تبللوا ، واذا تابعوا مغرقون ، فهم لا يستطيعون
الانسحاب ولا المتابعة ولن يصدقهم أحد في أن يغيروا
مواقفهم في غضون اسبوع أو اسبوعين وبرقيات التهينة
لا يمكن ان تصبح برقيات اذانة في وقت قصير .

دار البغاء كانت أشد نشاطاً من أي وقت مضى ، عمّ
الفرح فيها وتم توزيع الحلويات وتبودلت التهاني وكل
واحدة كانت تسأل عن صاحبها أين وصل في سلم سلطة
الجنرال .

كانت كلود تسخر من السياسيين على طريقتها
وكانت لا توفر سخرية عندما كانوا يجتمعون في بيتها وهي
تهزأ بهم . تعرف ان الجنرال تسلم كل مقاليد الحكم

التشريعية والتنفيذية وأخذ يتصرف بوحى ارادته الشخصية وحدها . كان يحاول ان يصبح الحاكم الفرد المطلق نظرتة الى الآخرين ليست أكثر من العوبة بين يديه .

هكذا أوحى له معاونوه العسكريون ، والكولونيل سيمون ، ومستر جبارة ، وصديقاته ، شهنار وكلود ، وسلفا ، ومستشاروه . مسكين الجنرال - قالت عنه شهنار- لقد جن دبي .

الجنرال تولى رئاسة الدولة والوزراء وحل البرلمان وكل ساعة كان له قرار أوامر . ومع ذلك ظلت امامه مجموعة من المهام والاعمال العاجلة التي عليه ان يفرغ منها : الاتفاقيات .

اق أصحاب الاتفاقيات . اق أصحاب الافخاخ الذين أوصلوه الى سدة الحكم . أخذوا يطالبون بتنفيذها . اتفاقية رودس ، والتابلاين والانكلو أوريان والنقد .

المستر جبارة هو العقل المفكر للجنرال والمبرمج لخطته . يحسب يوميا كم تزداد نقوده التي سيكسبها من هذه الصفقة أو تلك خاصة أنه الان وزير بحقائب عدة ،

وله باع طويل في حكم الجنرال مع انه كان يقول :
«الجنرال كل شيء انه هبة الله في عصرنا هذا» .

لقد غير منزل الجنرال وأقنعه بأن منزل رئيس
الدولة يجب ان يكون في مستوى لائق . واشترى له عصا
مارشالية . وقال له : انك لست جنرالاً عادياً . انت
رئيس دولة ويجب ان تترقى الى رتبة مارشال .

كان الكولونيل سيمون يلتقي مع المستر جبارة
ويرسم له الخطط وطرق تنفيذها . واستطاع ان يجذب
نحو الجنرال الاهتمام العربي والدولي اللازمين . فجلالة
ملك مصر اعترف بالانقلاب وشرعيته ثم كثرت بعد ذلك
الاعترافات متلاحقة . وأخذ الملوك والرؤساء العرب
يرسلون برقيات التهئة والهدايا والوعود بالتضامن
والتعاون .

كانت اتفاقية التابلاين هي ما يهم ملك السعودية ،
كان في السياسة مثل النسر يرى الاشياء من الاعلى والى
مسافات بعيدة . فأرسل البرقيات والهدايا والمساعدات
الكبيرة آملاً من الجنرال ان يوقعها في أسرع وقت ودون
ضجيج . ولم ينسَ الملك ان يطمئن بقية القادة السياسيين

السابقين ويطلب منهم أن يظلوا في مواقعهم الى ان تنجلي
الايام المضطربة تلك .

* * *

- ٧ -

وكان لدى الجنرال مشاغله الاخرى ايضا فهو يحاول
ان يقفز قليلا بالبلاد معطيا لها الطابع الحضاري القوي
وهذه كما قال آخرون احدى حسنات سياسته الجديدة .
وبتوجيه من كلود اعطى المرأة حق الانتخاب . ومنع
الطربوش ، وأمر بلبس البنطال بدلا من الجلابية ،
وخصص لرجال الدين ثيابا خاصة يظهر بها بين
الناس .

لقد طلب من المستر جبارة الذي عينه وزيرا للمالية
أن يضع في مقدمة اهتماماته تطور الجيش وتسليحه . قال
له وهو يدور في حجرة الجنرالية والعصا تحت إبطه
والمونوكل على عينه :

- يجب ان تشتري سلاحا من أية جهة وبأي ثمن .

(وهو لا يعرف شيئا عن الميزانية سوى ما يقوله جبارة
عنها) .

أجابه المستر جبارة :

- هذا موضوع مهم ومعقد . ولكن كيف
يا سيدي . ليس لدينا الاموال الكافية .

وصرخ الجنرال :

- تدبر الامر بأية وسيلة .
وقال المستر جبارة الذي يفهم نفسية الجنرال وافكاره
وقد يكون فيها شيء من النبل :

- ليس هناك وسيلة اخرى غير التوقيع على اتفاقية
التابلاين فالامريكيون عندها سيدفعون لنا الكثير من
الاموال .

وأحس الجنرال بأنه يسقط في الفخ المدبر له . فقد
قدم وزير العدل ووزير الأشغال العامة الى سيادته مذكرة
طويلة يبينان فيها أن اتفاقية التابلاين تمس بالسيادة الوطنية
والاستقلال ولذلك فانها يعترضان عليها اعتراضا تاما .

ضحك المستر جبارة والكولونيل سيمون من تلك
المذكرة . وأكدوا أن الجنرال سيعتقل الوزيرين بسبب
مذكرتهما تلك . لان ما يهم الجنرال الان هو الحصول على
المال بأية وسيلة . كان همه الوحيد ان يحصل على المال

ليشتري سلاحا للجيش الذي بات قائدا عاما له ويشعر
الان أكثر من أي وقت مضى أن أعوانه لن يغفروا له اذا لم
يف بوعده بتطوير الجيش . ولكن من أين يحصل على
المال ؟ الطريقة الوحيدة المتوفرة أمامه هي توقيع اتفاقية
التابلاين . عندئذ قد يدفع الامريكيون التزاماتهم ويقدم
ملك الصحراء بعض القروض التي تفيد الاقتصاد الوطني
كما وعد بذلك .

أما ما يتعلق باتفاقية رودس فقد شجعه عليها ملك
مصر لقد شعر بالزهو وهو يعتبر نفسه مساويا لملك مصر
عندما دعاه لزيارته . الان هو مثل بقية الملوك . لم يعرف
عن حياتهم شيئا . ولكنه تصور أن حياتهم مليئة بالنساء
الجميلات والسكر ولعب الميسر ، آه لو وصل الى هذا
المكان قبل الاربعين من العمر ؟ ولكنه لم يقصر في هذا
المضمار قبل وصوله الى السلطة . ولكن كل شيء يغدوله
طعم خاص داخل السلطة . وعليه الى جانب ذلك ان
يعمل على اقامة دولة حديثة . كان يشعر بمسؤوليته تلك ،
فهو امام شعب أمي في الريف وجيش متخلف في السلاح
والادارة . فأقر قانون التجنيد فورا ، لتدعيمه وزيادة
عدده .

ركب الطائرة واستقبله الملك في مطار القاهرة بدعوة شخصية منه .

لقد سخر الملك بينه وبين نفسه من هذا الفيل الصغير لكن السياسة الواقعية تفرض احيانا كثيرا من المفارقات . دار به في حديقة الحيوانات التي يملكها الى جوار قصره يوما كاملا وهو يناديه بالمرشال . بعد ذلك نصحه بالتوقيع على اتفاقية رودس التي وقعتها حكومة جلالاته قبل شهرين .

وللحظة شعر الجنرال انه مع الملك بحجم واحد ولو أن الملك يزيد بحوالي عشرين كيلو غراما من ناحية الوزن . لقد أمضى معه طوال ذلك النهار في حديقة الحيوانات . ثم انتقل الى مزرعته .

وعندما عاد الجنرال تحدث لضباطه ومعاونيه عن تلك الزيارة الرائعة وعن (قروود) جلالاته وفيلته وعن اناقته وهيبته . ثم فوض اثنين من ضباطه للذهاب الى رودس لتابعة المفاوضات هناك .

لم يذع المذياع نبأ سفر الضباط الى رودس لتوقيع الاتفاق . لكن تسربت انبأؤه بهدوء الى الشعب . هكذا

علمه جلالة الملك فن السرية في السياسة .

* * *

- ٨ -

في القرية عندما علم الشيخ سعدو بالانباء الجديدة ، اختلطت الامور في عقله فتحول همسه الى صراخ ، وأخذ يخلط الاحاديث فلا يتضح ما يريد قوله . خلط بين الفضيلة والرذيلة بين السياسة والدين ، حتى اعتقد الآخرون انه جن . كان يجلس أمام دار سعاد ساهما . فتسكب له الشاي وتقول له ضاحكة :

- شيخني الجليل اشرب الشاي ولا يهملك شيء .
الدنيا مقلوبة على رأسها ، لا تفقد عقلك بكثرة التفكير ولا تنظر بعد اليوم الى أبعد من جدار القرية حيث يلعب داخله الاطفال ويرعون فيه الخراف الصغيرة .

ويعلق الوكيل جاسم ساخرا :

- «هذا الذي يعرف الكثير ويزور العاصمة ، نحن حدودنا يا شيخ سعدو خان الحجى وقصر سعادته في

القرية ، أما أن تذهب الى العاصمة فهذا من شأن الحجي
والشيخ عبد الرحمن .

ويجز الشيخ سعدو رأسه قائلا :

- استغفر الله واتوب اليه انه لغفور رحيم .

وجاء اليه بعض الناس ينصحونه بالذهاب الى
الطبيب كي يداوي نفسه . ولكنه لم يصغ لاحد ،
اختلطت في خياله صور البغايا العاريات في ملهى
الكروان . وتخيل الجنرال وهو يقود جمهورا من اللاهين
لمصافحة الاعداء . تخيل نفسه في يوم القيامة ولا يستر
جسده شيء خائفا مذعورا من الحساب . تذكر تلك الأيام
التي قضاها بين الفلاحين وهو يتحدث عن فلسطين
والتحريير . ويشد الهمم . وكيف آلت الامور أخيرا الى
المصالحة . فحبس نفسه عن الكلام الا لقضاء الواجب
الديني في القرية .

في حماء التقى الحجي مع الشيخ عبد الرحمن . وقال

له :

- لقد لبيت طلبك ووزعت الاولاد على كل

الاحزاب .

وعلق الشيخ عبد الرحمن :

- حسنا فعلت هذه دنيا لا أمان لها ولا نعرف غدا
ماذا يحدث ؟ وكما أتصور يا حجي فعلى المخاتير ان يغيروا
سلوكهم ، صحيح ان القبضة الفولاذية الان ما تزال
للاقطاعيين وهم في المناصب الحكومية ، لكن من يعلم
الغيب ؟ فقد تتبدل الاحوال .

* * *

- ٩ -

قالت شهناز «أبو العز» وهي تعبر عن مخازفها :
- هل يستطيع الدب الصغير أن يسير بهذا المخطط
بمفرده . أنا خائفة عليه يا رجل . مسكين ، صدقوني أنه
لا يعرف شيئا ، ولولا مرض السكر لكان سكران دائما أنا
أشفق عليه - آه كم اقترضته اثناء لعب الميسر عندما كان
عازبا . لماذا تزوج هذا الدب بعد أن هرم وسمن .
فرد عليها أبو العز وهو ينفث دخان نرجيلته :
- لقد أصبح عبقريا فجأة في هذه الايام ، وقد

- ١٢٠ -

يستطيع ان يفعل مايشاء دون رقيب أو حسيب الا
وجدانه .

وتساءلت شهناز :

- السيد محسن هو الوحيد الذي يعمل معه . مع انه
رجل نظيف وشريف حقا كما يقولون . لقد أوقعه في
المصيدة مستر جبارة . أتى به الى وزارة الخارجية وحاول أن
يقوم باصلاحات واتصالات ولكنه اصطدم بجدار سميك
لم يستطع أن يخترقه فوقف عاجزا . وحاول الناس أن
يدسوا عليه عند الجنرال ولكن الجنرال تمسك به لسببين كما
قالت لي كلود .

أولا لأنه من قوميته ، وثانيا لانه نظيف ووطني .
ولقد حاول محسن ان يصلح من وضع الجنرال وان يبعده
عن الرجال السيئين ولكن يبدو أن الطبع غلب على
التطبع ، فستون عاما مرت على الجنرال ، كان من
الصعب على محسن أن يغيرها .

وأردف أبو العز وهو يصرخ :

- بدل الشاي للمدام بشاي ساخن يا ولد . اتركها
على الله يا مدام ولا تفكري فيه قد ينسأك غدا وأنت أدري

الناس به وبمحسن بك . على محسن بك أن ينفذ أوامر
الجنرال دون نقاش . ولم يعد يسمح له بالاقتراح عليه .
المستر جبارة هو الذي يقود الجنرال بعقله وأفكاره . فهو
يدير المالية والذي يملك المال هو الذي يستطيع أن يسيطر
هكذا تقول التجربة والحياة .

ونظر أبو العز من خلال النافذة الى مبنى مجلس
الوزراء . وتنهت قائلا :

- دنيا . ما تزال في بداية الطريق . في أول خطوة
ومن يعلم ما تحبئه الايام . لقد سمح الجنرال بالمظاهرات
السلمية والخطباء يتكلمون في كل مكان عن الجنرال .
يا إلهي من أين أتت كل هذه العظمة للجنرال دفعة
واحدة .

* * *

- ١٠ -

الجنرال نفسه لم يكن يصدق ما يراه ويسمعه . كان
يدور في مكتبه ويذرع أرض الحجره جيئة وذهابا وهو ينظر
الى المرأة الكبيرة . أمعقول ما حدث ؟ . وهل أصبح في

- ١٢٢ -

رمشة عين زعيما للبلاد؟ وهل غدوت المنقذ الوحيد
للوطن؟ وكان يجيب نفسه : ولم لا؟ الناس كلهم
يحترموني وينتظرون الخلاص على يدي .

هنا تجتاحها المظاهرات الحماسية . الطلاب ينامون
ويأكلون في المدارس التي تحولت الى ثكنات عسكرية .
كان الجيش يدهم بالغذاء فيطبخونه ويأكلونه . ثم
يخرجون للتظاهر تأييدا للانقلاب .

الاستاذ علي يخطب ويحاضر بينهم ويؤكد أن قيادة
الحزب وراء الانقلاب . وكان يعطي المنشورات لتوزيعها
وتعليقها على جدران المحلات في الشوارع .

قال لهم :

- الان سنحقق كل شيء ، وسوف نصل الى كل
شيء كما يريد الناس . سوف نحقق الاشتراكية .

جاءت الطلبة تهتف بحماسة بحياة الحزب
والاشتراكية . وانها لتطلبت الانتساب الى الحزب من
كل مكان . آلاف الطلبة من جميع اصناف الناس بمن
فيهم الاقطاعيون واصحاب الخانات والتجار . وجاءت
شخصيات من عليّة القوم الى مكتب الحزب وأخذت

تدرس الاوضاع العامة مع قيادي الفرع . بينما الفلاحون ينتظرون في الردهات وهم يتساءلون عما يحدث أمامهم ولا يفهمونه .

كان المكتب مقابل جامع السلطان . وكان يتواجد فيه في كل الاوقات رجال مختلفون من الاقطاعي الى الفلاح . من الغني الى الفقير . من الانتهازي الى المخلص . وهكذا اختلط الحابل بالنابل فلم يعد أحد يقدر الأمور على ما هي عليه في الحقيقة . اذ كيف يدخل الاقطاعي الحزب الذي يعمل ضده ؟ وكيف يدخل رجل الدين الى الحزب الاشتراكي وهو عدو الاشتراكية .

* * *

- II -

وصل المختار أبو حميدة الى القرية مطمئنا على أنه باق بالمخترة . وكذلك الوكيل . لاشيء تغير كل في مكانه . وهذا ما كان يضايق أهل القرية ويزيدهم استغرابا وقلقا . عندما سمع سلوم الاخبار الجديدة ودخول الاقطاعيين الى الحزب . طوى حبله وحبس نفسه

عن الكلام ولزم بيته لا يغادره .

لقد أفرغت القرارات الجديدة الفلاحين وهم يرون أمام أعينهم تعيين أحد رجال الاقطاع محافظا على مدينة حلب . اذن ما الذي حدث وما الذي يحدث ، والى أين يسير بنا هذا الانقلاب الذي علقنا عليه آمالا كبيرة؟ هكذا كان الفلاحون يتساءلون ويتهامسون لان الرعب لجمهم من جديد . لم يشاركوا في صنع شيء . واقتصر دورهم على التأييد وارسال البرقيات .

بينما كان الراديو يذيع بين حين وآخر برقيات التهئة المنهالة على الجنرال من القوى التقدمية وبعض الاحزاب الاشتراكية والوطنية . وقد اذاع حزب العربي الاشتراكي . بيانا مطولا أيد فيه الانقلاب . وصار زعيم الحزب عضوا في لجنة الرقابة والتفتيش التي تحاسب سعادته . وأصدر الحزب بيانا يؤكد بتوقيع الامين العام المؤسس للحزب تأييده للانقلاب .

إذا لا لبس في الامر ولا غموض . ومن جانب آخر فقد أيد حزب الشعب الانقلاب وكذلك حزب الاخوان المسلمين وشخصيات سياسية عديدة . على الرغم من تناقض هذه الاحزاب فيما بينها واختلافها في الاراء

والمبادئ السياسية . سلطان باشا قائد الثورة السورية الكبرى ، نفسه أيد الانقلاب ووقف الى جانبه .

لقد قوي الجنرال ، بهذا التأييد الشامل . واعتبر نفسه قوة وطنية خارقة لا تقهر . وزاده لباسه العسكري المارشالي زهوا واعتزاز . فأصدر بيانا للشعب ينصب فيه نفسه حاكما مطلقا للبلاد . وأقام حفلة كبيرة لضباط القوات المسلحة الذين اعتبروه قائدا لهم ، ومنقذا أنقذ البلاد من كارثة محققة .

* * *

- ١٢ -

لم يطل الوقت بالجنرال حتى بدأ يعبر عن آرائه . فلقد تحدث باسم الشعب عن خطر الاشتراكية واعتبرها وباء وهو لهذا لن يوفر جهدا كي يحطمها من جذورها . عندما انتشر الخبر في القرية بأن الجنرال ضد الاشتراكية بدأت تعليقات الفلاحين .

- لماذا انقلب على الحزب . نحن ساعدناه وكنا نأمل فيه خيرا .

- ١٢٦ -

وقال سلوم :

- لو نعرف ما يدور برأسه ؟ ولكن قد يمرر فلسطين وهذا يكفي ، وان كنت أشعر بالظلم أكثر من أيام سعادته .

وأردف أبو عمر :

- ان بطانته سيئة جدا ، هكذا يقال في الحزب .

ولكن الوكيل جاسم قال :

- آه - العصا لمن عصى ! وأشار بسبابته نحو

الفلاحين .

أما الشيخ سعدو فقد قال :

- كلما اتت أمة لعنت أختها . والله شديد العقاب .

سعاد كانت تتذكر ايام سعادته ، ولم يتغير شيء في الواقع ، بل زاد الوكيل من حذره ، وأصبح أغلب الأحيان يقضي وقته وهو جالس أمام باب دارها يرقب حركة القرية .

لقد أجرى الجنرال الاتصالات مع جميع القوى التي تعارض الاشتراكية ومع امناء الوزارات والمدراء . وأطلق

سراح الاقطاعيين وعادوا الى الساحة أقوى مما كانوا .
هذه الامور لم تعد سرا . فقد انتشرت الاخبار
والشائعات بين المواطنين . فاكتفوا بالمراقبة وانتظار
ما سيأتي .

وبينما كان أبو العز وشهناز وأبو نعيم جالسين في
ردهة فندق الاهرام مرّ معتوه في الشارع وهو يصيح :
باعوها ... باعوها .

عندئذ غادرت شهناز الفندق واتجهت الى باب توما
لان موعد اجتماع السياسيين قد حان . هناك بيت سلفا في
باب توما . يلتقي فيه كبار السياسيين ويتناقشون عن
الظروف الراهنة والمقبلة ويستطلعون رأي النادي
الماسوني . لان الحركة الماسونية كانت في أشد فترات
نشاطها في دمشق . وكانت نشاطاتها تلك شبه عليية
تقريبا ، وأغلب السياسيين وكبار الضباط كانوا اعضاء
فيها .

الفلاحون رغم انهم لم يعودوا يفهمون شيئا مما
يجري ، ظلوا على آمالهم بالانقلاب . كانوا مؤمنين
بالقناعة التي رسمها الحزب بينهم ، وهي أن الانقلاب من

صنعه ومن تدبيره ، كانوا مقتنعين بأن أي جهة تقف ضد
الاقطاعيين هم معها الى أقصى حد ، ولم تكن تساورهم
الشكوك بالجنرال . ولكن بعد القرارات الاخيرة أخذوا
يوازنون أفكارهم ، فأبقوا على قناعة وحيدة هي ان
الجنرال رغم كل ما يحدث هو مع تحرير فلسطين وسيعمل
في هذا الاتجاه وهذا يكفي ليكونوا في صفه .

وهكذا استمرت الافراح والمهرجانات في القرى .
فالفلاحون في النهاية لا يريدون ان يسمعوا الا ما يرغبون
ولا أن يفكروا الا بما ينعش آمالهم .

* * *

- ١٣ -

يد خفية تسيّر الاحداث وترسم أقدار الناس
والبلاد . لا أحد يعلم كيف تجري الأمور ومن يتحكم
بها . ورغم تناقضات ما يحدث ، ما يزال الانقلاب يشغل
بال الناس .

جميع القوى أيده ، الداخلية والعربية والدولية .
ووصلت جماعات عديدة من السياسيين لزيارة البلاد .

- ١٢٩ -

الوزراء والنواب والفعاليات الاقتصادية يتجمعون في المركز
الماسوني الاعلى في دمشق سرا ، ومراكز القمار أخذت تفتح
أبوابها للسياسيين من جديد حيث لا شيء تغير عن
الامس .

ونشطت العمليات الجاسوسية في المنطقة وكثرت
اجتماعات المدراء والديبلوماسيين . وما انتظر الناس طويلا
حتى وقّعت اتفاقية رودس . وعندها أعلن دالاس : لقد
وضعنا الآن قدما في الشرق .

والمستر هيل كان يريد توقيع اتفاقية التابلاين ،
بسرعة ، كان يتلقى توجيهات بهذا الخصوص ، وكان
يصدر التعليمات الى عملائه في الشرق بضرورة توقيع هذه
الاتفاقية بل اتفاقية الانكلو اوريان . والمستر هانس في
حمص يريد توقيع اتفاقية الانكلو اوريان بسرعة . لان
الامور قلقة والمستقبل غامض .

خرج سعادته من السجن ، فأرسلت شهناز الى بيته
اكليلا من الورد مهنته بالسلامة . كما انهالت الاكاليل على
بيت سعادته من كل الجهات .

ولكن بعد توقيع اتفاقية رودس خفت حماسة الناس
قليلا . واختلف الوزراء حول توقيع اتفاقية التابلاين ،

فبدأت المشاكل تطفو على السطح . واحتج وزير العدل والاشغال العامة على الاتفاقية من وجهة نظر قانونية معلنا بانها تضر استقلال سورية وتمس سيادتها . ولكن المستر جبارة أعلن للجنرال ان الاتفاقية هي المصدر الوحيد للنقد . كان يدخل اليه في جلساته الخاصة ويناقشه في الأمر . ويؤكد له أن صفقة البنادق التي اشتراها من فرنسا سوف تلغى ان هو لم يسارع الى عقد الاتفاقية للحصول على المال اللازم . وكان الجنرال يصغي في حيرة . فهو يريد تقوية الجيش وتسليحه ليقا تل به مرة ثانية . وهذا لن يحدث الا على حساب اشياء اخرى . كان يفكر بقناعة ثابتة انه المنقذ الوحيد للبلاد وانه يجب أن يكون عند حسن ظن الناس به . لكن الظروف كما يبدو لن تدعه مرتاحاً .

كانت احلامه كبيرة وقواه ضعيفة . وكان المستر جبارة يعرف كيف يمسه من العضو الذي يؤمله ويقول له :

- ان احلامك يا سيدي تحتاج الى نقود . واتفاقية التابلاين هي الحل الوحيد .

وكانت كلود في الوقت نفسه تضغط على عملائها في بيت باب توما وتضغط على سلفا وشهناز . كانت تضغط

بدورها على المستر جبارة والكولونيل سيمون وقد اندرتها
بأن التأخير في توقيع الاتفاقية يهدد مصيرهما .

لم تكن كلود كما كان يتصورها الزوار امرأة تعنى
بالجنس والقوادة فقط . ففي الوقت المناسب ظهرت امرأة
مندورة للمهمات الكبرى . كانت تتلقى تعليماتها من
الخارج ثم تعود لتنفيذها في سورية . لقد ارهبت المستر
جبارة . الذي كان كمن يكافح للخلاص من شبكة
ضخمة . فهو يعلم ان دولة كبرى اقوى من فرنسا دخلت
على الخط . وهو منذ نشأته عمل كل ما بوسعه لصالح
فرنسا . أما الآن كيف يخلص الأمور وهو يعلم أن امريكا
دخلت بثقلها وبعملائها الكثيرين الى الساحة . فهاذا
بوسعه أن يعمل وهو فرد لا حزب يقف وراءه ولا جماعة .
مجرد عميل صغير لفرنسا . فما وجد بعد ذلك وسيلة سوى
الضغط على الجنرال من زاوية التسليح التي يمسكه بها .
ولقد عينه الجنرال لثقتة به وزيرا للاقتصاد والمالية . وعليه
أن يشغل منصبه الى آخر مدى .

فكر : الجنرال بحاجة الى عشرين الف ليرة ذهبية
وهي ثمن اتفاقية التابلين . وعندما عرض المبلغ على
الجنرال فتح هذا عينيه . ثم دعا وزراءه الى اجتماع

عاجل ، وعرض عليهم فكرة الاتفاقية ومشاريعه لتطوير الجيش وتسليحه .

لكن وزير العدل احتج على التوقيع لان ذلك يمس استقلال الوطن وسيادته . على الرغم من انه كان يعلم ان المستر جبارة وضع الجنرال بين المطرقة والسندان ومن جهة ثانية فقد كان يعلم ان الجنرال واقع تحت ضغوط عربية أخرى .

وتساءل الجنرال :

- لماذا كل هذا الغضب يا معالي الوزير . ولماذا تتضايق الى هذا الحد من توقيع الاتفاقية ؟ نحن دولة ديمقراطية ولكل مواطن رأيه . سوف نناقش هذه الاتفاقية في المجلس ونطرحها على التصويت . فاذا نالت الاكثية فسوف نوقع الاتفاقية .

كان وزير العدل يدرك انه الوحيد في ذلك المجلس الذي يعارض الاتفاقية . أما البقية فقد عينهم الجنرال تعيينا ولن يخالفوه الرأي . وهكذا طرحت القضية للتصويت فنالت الاكثية ، وقع الجنرال أوراق الاتفاقية التي سارع المستر جبارة بوضعها أمامه على الطاولة قائلا :
- بوسعك الان أن تشتري الاسلحة التي تريدها .

بعد ساعات وصلت التهاني والمباركات على توقيع
الاتفاقية . وزار الجنرال العديد من المستشارين الاجانب
مباركين هذا العمل الجريء الذي سيعزز الاقتصاد
السوري ويعزز مكانة الجنرال دوليا .

ودعا الكولونيل سيمون الى حفلة فخمة أقامها في
السفارة الفرنسية حضرها الوزراء والسلك الدبلوماسي
بمناسبة توقيع الاتفاقية وعلى شرف وزير المالية والاقتصاد
المستر جبارة .

كان المستر جبارة يعيش اجمل لحظات حياته . لقد
قبض اموالا على الصفقة وأخذ يحصي الفوائد التي
سيكسبها لاحقا . لقد اطمأن فهي تكفي اولاد اولاده
وأحفادهم وما بقي عليه الا اتفاقية الانكلو اوريان .
فالمستر هانس لا يرحمه وهو يلاحقه وعليه ان ينفذ ما اتفقوا
عليه .

أربع اتفاقيات والا

قالت المسز كلود وهي توزع الورق في نادي القمار
للكولونيل سيمون :

- لا تنسَ الانكلو اوريان . التابلاين لا تكفي .

وهي تهم فرنسا كثيرا كما تهم انكلترا .
باري محاصرة من قبل الاميركان . علينا ان نكون
حذرين من كل شيء . وان نحصل في الوقت نفسه على
كل شيء .

وانتشرت الأخبار في كل مكان . واتضح وجه
الانقلاب الحقيقي للناس . فأخذوا يعيدون حساباتهم في
تأييد الجنرال . وهكذا تراجع زعيم حزب البعث العربي
عن سياسته وأخذ يعارض سياسة الجنرال المفضوحة .
لكن الجنرال سرعان ما اعتقله . وتمت الضغط دفعه إلى
توقيع عهد بحل الحزب وعدم الاشتغال بالسياسة . بعد
ذلك أخرجه الجنرال . واعترض مرسلو البرقيات وخالفوا
آراءهم التي أعلنوها بالأمس ، وأقاموا الخطب الجماهيرية في
كل مكان استنكاراً لسياسة الجنرال الحمقاء ، اللاوطنية .
لكن قبضة الجنرال كانت لهم بالمرصاد . واشتد ساعده
وأخذ يفكر أنه لا يحتاج إلى برلمان بعد اليوم وهو في طريقه
إلى تنصيب نفسه رئيساً للجمهورية . المهم كشف أمام
الناس ضعف الأحزاب وحماتها .

ولذلك أعلن أنه سيرشح نفسه لمنصب رئيس
الجمهورية أمام الشعب لينتخبه وأعلن عن استفتاء عام

للجماهير . فساعدته القوى الرجعية والإقطاعية مباركة
هذا الترشيح .

لقد انجرف الجميع في هذا التيار . وفاز الجنرال
بالاستفتاء بنسبة ٩٩,٩٩٩ وتصور الجنرال في لحظة
عظمته أن الشعب كله يسير وراءه وأن الشعب بكامله
انتخبه ولم يتخلف شخص واحد عن الادلاء برأيه لم يكن
على علم بتفاصيل الأمور ولا بتزوير الانتخابات وتدخل
المخابرات والشرطة العسكرية التي كانت دورياتها تتصل
وتجول على مراكز الإقتراع .

* * *

- ١٤ -

في محطة القطار كان الفلاحون يسلمون حبوبهم
لمركز المحطة . ولم يكن ثمة صندوق للاقتراع . فعلمت
المدام زوجة مدير المحطة ساخرة :

- قلوبنا مع الجنرال . لا أصواتنا فحسب .
والتفتت إلى المختار أبي حميدة وقالت له :

- ١٣٦ -

- فكر جيداً يا مختار . لماذا لا تزوج ابنتك
للجنرال . عندئذ قد تصبح أكبر من سعادته نفسه وربما
يعينك محافظاً أو وزيراً للزراعة .
وابتسم المختار قائلاً :

«لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم» كان يهز برأسه
ولا يريد الحديث ولكنه قال في سره :

- هل أنا مغفل إلى هذا الحد . من الواضح جداً
أن هذا الجنرال لا مستقبل له بيننا .

ودهشت المدام عندما شاهدت المختار يهز برأسه وابتسم
دون أن يتكلم ولكنها فهمت فقالت :

- أصبحت تفكر بالمستقبل أيضاً .
وضحكوا جميعاً لكلمات المدام وهي تغمز بعينيها
اللعبتين .

حتى نوفة رفضت أن ترقص في الاحتفالات . لأنها
لا تستطيع أن ترقص لمن لا مستقبل له «حتى لا يعاقبني من
يأتي بعده» . وهكذا شاعت هذه الكلمة بين الناس ،
وأحس الجميع أن الجنرال لن يدوم طويلاً .

بينما في مكان آخر اجتمع المجلس العسكري وقرر

ترفيه الجنرال إلى رتبة مشير . ووضع الجنرال المونوكل وشكر المجلس . وقد كانت بزة المشير جاهزة فلم تمض ساعة حتى كان قد ارتداها . ودعا المصورين لالتقاط الصور التذكارية مع أعضاء المجلس وأعضاء حكومته . ووعدهم بأن يصلح البلاد اصلاً جذرياً .

* * *

- ١٥ -

كان أول حدث له وقع مؤثر في تلك الفترة العاصفة من حياة المشير ، هو القاء القبض على زعيم حزب القوميين السوريين . ومفاوضته مع الحكومة اللبنانية على بعض المصالح الشخصية مقابل تسليمه . وعندئذ . قام المشير بتسليم الزعيم للبنان . حيث قامت الحكومة اللبنانية بإجراء محاكمة شكلية عاجلة أعدمت الزعيم على أثرها وفي اليوم نفسه . كان رد فعل الجماهير غاضباً ، وشاع بين الناس أن المارشال غير وفي وغير مخلص ولا يلتزم بوعوده . لقد خدع زعيم القوميين السوريين واعتبر عمله هذا من قبل الناس (نذالة) .

- ١٣٨ -

بدأ الحصاد في بداية شهر أيار . ذهب الفلاحون إلى جني المحصول . وتوافد الحصادون من الساحل إلى المنطقة للعمل في حصاد القمح والشعير والعدس . الحصاد يبدأ قبل الشروق وينتهي بعد الغروب . وطعام الحصادين هو عبارة عن رغيف من خبز الشعير مع البصل وفي الغداء يضاف قليل من اللبن المشنون للوجبة وعلى الحصادين ألا يتجمعوا في أوقات تناول الطعام . وما أن ينتهي العمل حتى ينتفس الحصادون الصعداء بعد يوم عمل شاق ثم يمضون إلى المكان الذي ينامون فيه جماعات جماعات وبجانب بعضهم بعضاً كالماشية . ينامون في العراء بلا أغطية ويلباسهم الذي يعشعش فيه القمل . فأحياناً يذهبون إلى التنور وينفضون ثيابهم على فوهته ليتخلصوا من القمل . وكثيراً ما يصابون بضربة شمس خلال علمهم الرهيب هذا تحت الشمس الحارقة .

فالحصاد الموسمي هو عمل من ليس لهم عمل في قراهم الفقيرة . ينتظرون الموسم للهجرة والعمل في المناطق الداخلية . وكثيراً ما يصطادهم السهارة عندما يميرون في المدينة أو ينامون في الخانات . ويتعرضون للإهانات الكثيرة في فصل العمل ذاك .

نسي الفلاحون الأحداث السياسية وانهمكوا
بأعمالهم . وكذلك الفجر ، أوقفوا الاحتفالات والأفراح
وشرعوا بصناعة الغرابيل والمذاري التي يحتاج إليها
الفلاحون .

كان الشيخ سعدو يشرب الشاي في بيت سعاد .
ولقد انتبهت إليه وهو غارق في شروده ، فقدرت أن
الشيخ مهموم . سألته عما يشغله . فلم يقل شيئاً . كل
شيء مختلط في رأسه الجنرال والأحزاب ، والبغايا ،
والفضيلة والرذيلة . واعدام زعيم القوميين السوريين .
لم يعد يتبين الحقائق من بين ركام أفكاره المزدحمة . كانت
زيارته الأخيرة للعاصمة محرقة له ولأعصابه حاولت سعاد
أن تسري عنه فألحت عليه بالسؤال لكنه رفض الحديث ،
وهو الذي لا يعرف بماذا يتحدث . فقبلت سعاد صمته
المعتاد وتركته لشأنه وهي التي لا تريد أن تتخلى عن
صحبه بعد العشرة الطويلة بينهما .

* * *

تحركت الحياة في خان الحجبي رغم أن الفلاحين انقطعوا عن المجيء إليه في حمى اشتغالهم بالحصاد . ولكن البدو استمروا في المجيء وجلب انتاجهم من الخراف والجبين والألبان . وكان الخان يزدهر بهذه التجارة الرباحة ، فهو يشتري المتوجات بأثمان منخفضة ويبيعها بأثمان مرتفعة . كان صاحب الخان يعرف كيف يأكل حق الفلاحين والبدو وكيف يستغل المشتريين ، لتتكسد في خزانته الأموال الطائلة . ولقد تفنن في البيع والشراء إلى ذلك الحد الذي يبيع فيه نفسه للشيطان من أجل سعادته . وفي لبنان كانت تربطه ببيت الياس علاقات اقتصادية متينة فالياس صاحب بنك لبنان صديقه ، وكلايس امرأة جميلة هي بنت الياس يرتاح عندما يلتقي بها ، وأمها أم كلادس امرأة تحب الحجبي وتستقبله بترحاب . فهو لا يأتي إلا محملاً بالهدايا . حيث يقضون معاً وقتاً ممتعاً بالتجول بين المصايف والقرى اللبنانية الجميلة . وكان غريمه في ذلك

كله رشاد بك الذي يهوى كلابس وكثيراً ما سافروا معاً إلى باريس بذريعة تدقيق الحسابات في البنوك الفرنسية . وهناك كان الحجى يكتشف تبذير رشاد بك وبذخه وهو يحاول أن يظهر نفسه حضارياً فلا يتحدث إلا باللغة الفرنسية .

ولم يكن الحجى يتقن من الفرنسية سوى بعض الكلمات القليلة ككلمات المجاملة والسلام . ومرة حاولت كلابس أن تلبسه طقمًا وربطة عنق ، لكن منظره كان بهما مريعاً . ولم يستطع أن يتحمل ذلك أكثر من يوم واحد . لم يكن قادراً على تغيير سحته ولباسه بعد ذلك العمر المديد . بالطربوش والعمامة والشروال يجد نفسه طبيعياً .

وأكثر صفقات الحجى المحلية كانت تتم في الجوامع . كان يذهب إلى الصلاة ويتفق على البيع والشراء مع الآخرين . دون أن ينسى أن يتبرع للمساجد من فائض ربحه وهذه التبرعات كانت تدخل ضمن نشاطه التجاري والاجتماعي .

أم جيسكار هي التي نهته إلى ذلك قالت له : إن العمل في خدمة المسجد أو الكنيسة له أجر مضاعف في

الدنيا والآخرة . وضربت له مثلاً بما تصنعه هي . فهي
تتبرع للكنيسة سنوياً بمبالغ طائلة لذلك كانت حظوتها لدى
الحوارنة كبيرة .

والكنيسة عمرها مئات السنين حتى لتكاد تغدو من
الأثار التاريخية .

أما بيتها فقد كان مجمعاً للاسبانيات والفرنسيات
والانكليزيات والهولنديات لكأن أوروبا بكاملها قد انتقلت
إلى هذا البيت . وكانت تستقبل فيه كبار رجال الدولة في
لبنان وقادة الجيوش من سوريين ولبنانيين . وكان كثيراً
ما يحضر مآدباتها المطران نفسه ليبارك الحفلة ويذكر
بالشهداء الذين قضوا في زمن العثمانيين . ثم ينتقل
المحتفلون إلى الطعام والشراب والفحش وعقد الصفقات
التجارية والسياسية .

فكر الحجي بأن عليه أن يستعد الآن لجمع
المحصول . عليه أن يتفق مع أصحاب الخانات الأخرى
حول تحديد الأسعار وتوريد المحصول عبر مرفأ بيروت .
وفكر أن عليه أن يستثمر محطات القطار حيث توجد في كل
محطة امرأة جميلة هي زوجة مدير المحطة . لا أحد يعرف
كيف كان يختار مدير المحطة ولا كيف وبقوة من يجيء . في

البدء كانت المحطات لخدمة الحجاج إلى مكة . ثم بعد ذلك انقلبت الأمور ، وأخذت المحطات تدار من قبل الفرنسيين . وغالباً ما اكتشف أمر الكثيرات من زوجات مدراء المحطات على أنهم أعضاء في الحركة الصهيونية العالمية وهذا لم يكن ليغير من واقع الأمر شيئاً ولا يهم أحداً بشيء .

كن صديقات الإقطاعيين يجلبن لهم البغايا من مختلف المدن ، وكن يخلقن الفتن بين عشائر البدو . وقد استمر ذلك زمناً طويلاً ، فلم يشعر أحد أن شيئاً من هذا قد تغير في زمن الجنرال . لقد أصبح مشيراً وله بيت خاص وطائرة خاصة . ووصلت إلى جيشه ألف بندقية وبدأ يقنع ضباطه الخائفين من مغامرته القوضوية . وفي الوقت نفسه أخذ يزوج في سجونهم زعماء الأحزاب المعارضة ، وكل من يخالف سياسته علناً .

* * *

قالت شهناز لأبي العز :

- إن دبي الصغير أصبح دباً كبيراً . إذا دخل البيت
كسر كل شيء فيه . ماذا بوسعنا أن نعمل . إنه يفكر
بشكل جدي بأنه بات الحاكم الفرد المطلق .
وهز أبو العز رأسه قائلاً :

- لقد نسيتك أليس كذلك ؟ هذه هي حال الدنيا .
لقد كبر الجنرال حقاً . ومن طبيعة الأمور أن ينسى أصحابه
وأصدقاءه القدامى .

في بيت سلفا كانت تدار طاولة القمار وكان الكولونيل
أديب ينظر مترقباً ماذا يحدث الآن وهو القريب من
الجنرال . أما الجنرال سامي فقد أصبح اليد اليمنى للمشير
في الجيش ، والكولونيل بهيج أصبح المستشار في القوات
المسلحة رغم أنه يعتبر صديقاً للعربي الإشتراكي الذي
سجن زعيمه وحل الحزب وبات مثار غضب المشير .

لقد توضحت أمور الحزب الآن للجماهير ، فقد استسلم قاداته عند الضربة الأولى ، ولم يستطع أن يقاوم ضربات المشير . فقد أعدم زعيم القوميين السوريين وقبض ثمن اعدامه في لبنان .

وهاهو يوقع الإتفاقيات وهو في سبيله إلى قبض ثمنها . وتمضي الأيام سريعةً غاصّةً بالأحداث . وحاول بعض الطلاب الخروج في مظاهرات ضد المشير لكنها قمعت بالقوة .

الجماهير لم تقبل فكرة الصلح مع العدو ، واعتبرت الهدنة مؤامرة . وسرت الأخبار مثل النار بين الناس ينقلها المعلمون والمثقفون بوساطة طلاب المدارس إلى كل مكان .

حتى سعاد التي كانت تجلس هي وحميدة عند الباب وأمامها الشيخ سعدو ، أخذت تتحدث عن الاتفاقيات وقالت انها تضر بمصالح الناس . وتجلب الأذى للفلاحين .

لكن المخاتير والوكلاء شددوا قبضاتهم من جديد على الفلاحين ، وانهمك الناس بالعمل اليومي ونسوا السياسة إلى حين .

ابراهيم الوحيد الذي لم يتسرع بحكمه على
الانقلاب ولم يوافق سلوما على توزيع الأراضي قبل أن
تنجلي حقيقة الانقلاب . ولم يفاجأ عندما انتقم منه الوكيل
جاسم فقد عادت الأمور كما كانت وربما أقسى وأشد .

كان الفلاحون والحصادون يعملون في الحقول تحت
أشعة الشمس ، والوكلاء يتجولون على خيولهم ويطلقون
الأوامر ، ويوجهون الحصادين . وكانوا يجلدون من تأخر
في عمله بكرابيجهم ، لقد عادت سطوتهم ، فانفجروا
بكل ما في قلوبهم من حقد ونزوع إلى التسلط .

والوكيل جاسم لم ينسَ محمود بن سلوم وما فعله معه
في الأيام الأولى للانقلاب ، فلاحقه واتهمه بالتحرش
بإحدى الحاصدات وعاقبه بالجلد أمام الجميع . نظرت
إليه حميدة بنت المختار وهو يهان أمام الجميع فبكت .
واقسمت نوفة العجرية ألا ترقص مرة ثانية في هذه
القرية التي يجلد فيها الشبان .

انتهى شهر الحصاد . ونقلت المحاصيل من محطات
القطار الى بيروت . واستمر العمل على هذا المنوال طوال
فترة الصيف وبداية الخريف .

في تلك الايام يتحول الحجى الى حاسب آلي والى
محرك متنقل يحمل دفترا صغيرا ، يسجل فيه الارقام
والاسماء . منذ اربعين عاما وهو يتعامل ويتاجر مع
الفلاحين والبدو يملك أكثر من مائة محل تجاري . فهو
يصدر الثياب للأعراس ويشترى الجمال والاعنام
ومتوجاتها ويشحنها الى المدن الاخرى . ويراسل بنك
سورية ولبنان ، وبنك باريس . وماضحك يوما كما
ضحك عندما جاءه ابنه المنتسب الى العربي الاشتراكي
ليحدثه عن الاشتراكية . كيف انهم في الحزب يتناقشون
مع أبناء الاقطاعيين والتجار الكبار عن الاصلاح الزراعي
وتطبيق الاشتراكية في مكاتب الحزب . لقد اطمأن على
المستقبل طالما ان أبناء علية القوم هم الذين يسرون

الحزب الاشتراكي . وقال في نفسه وهو يضحك اذا كان هؤلاء هم الاشتراكيون ، فأنا أول اشتراكي في العالم .

أخذت الاحداث تتابع . وبدأ المشير يغير بعض كوادره القيادية في الجيش وغيره . خاف الكولونيل اديب من هذه التغييرات وشاركه وساوسه الكولونيل بهيج . خافا ان يأتي الدور عليهما . فاجتمعا في باب توما مع الكولونيل سيمون وشرحا له مخاوفهما .

قال الكولونيل سيمون :

- لقد ادى المشير دوره ولم يعد مفيدا في شيء .

كان المستر جبارة حاضرا في الاجتماع . فأبدى مخاوفه على اتفاقية النقد . وأكد حرصه على توقيعها قبل ان يحدث شيء للمشير .

كان من الواضح للجميع ان أمورا تجري في الخفاء وأن مقتل زعيم القوميين السوريين ، زعزع كرسيه . فقد تسلل العديد من الضباط القوميين السوريين الى الجيش ، ولن يوفرؤا فرصة للانتقام منه .

كما ان حزب البعث العربي الذي حل ظاهريا ما يزال اعضاؤه يعملون في السر ضد المشير . رغم أن

زعيمه هرب الى ايطاليا .

كل الامور تشير الى ان وضع المشير أخذ بالاهتزاز .
رغم ان الدكتور محسن ، لم يوفر جهدا في دعم المارشال
واصلاح قراراته ، وترتيب بعض الامور الوطنية .
وجاءت القشة التي قصمت ظهر البعير في تأخير
توقيع اتفاقية النقد مع فرنسا الامر الذي أغضب
الفرنسيين .

وعلى حد ما فهم المستر جبارة فان الفرنسيين لم ينسوا
ذلك للمريشال .

ونشطت الفعاليات والسياسيون والماسونيون وضباط
الجيش واختلطت الامور ، وتوالت الاجتماعات السرية
والعلنية .

وفي بيت باب توما كانت العاملات النشيطات يحاولن
ان يدفعن المشير باتجاه توقيع الاتفاقية الاخيرة بكل السبل
الممكنة لديهن . ولم يكن المستر جبارة أقل حماسة منهن .
وتدخلت ميلر وانذرت المستر جبارة . قالت له اذا لم
توقع الاتفاقية التي قبض ثمنها فسيُدفع الثمن غاليا ولربما
كان الثمن رأسه بالذات .

ودخل المستر جبارة الى مكتب المشير وقال له انه
أعطى وعوداً بتوقيع الاتفاقية لكونه رئيس لجنة تصفية
العلاقات مع الفرنسيين . واستهجن سلوك الدكتور
محسن ، وشرح له كيف يحاول اعاقه اعماله وخططه .

عندئذ نظر المشير الى وجه جبارة . وقال له :
- هات الاتفاقية ووثائقها لا وقعها .

وهكذا كان . وقعت الاتفاقية في مساء
١٣/٨/١٩٤٩ الساعة الحادية عشرة ليلاً .

- هكذا تريد يا مستر جبارة فانت الصديق الذي
أثق به أكثر من الجميع . كان يتكلم وهو يوقع الاتفاقية في
آخر ليل له .

* * *

- ١٩ -

أقبل شهر تموز موسم نقل المحصول من الاراضي
الى البيادر . وانهمك الفلاحون باعمالهم من جديد أملين
تأمين معاشهم لسنة مقبلة . كان الموسم جيداً فلم يتابعوا

- ١٥١ -

ما يدور في العاصمة أو في فرع وقيادة الحزب . ما يهمهم
الان جني المحصول وتأمين العلف لمواشيهم . وتأمين
حياتهم اليومية .

محمود الذي جلده الوكيل جاسم بكر باجه أمام أهل
القرية ، ما يزال يتألم . لقد جلد أمام الفتاة التي يحبها ولا
حول له ولا طول . كان ينجل من نفسه ومن الظهور بين
الناس ، كاد يتحطم لولا أن آخرين جلدوا مثله لاسباب
شتى . ولكن العمل فرض عليه الظهور ، فنزل مع ابيه
الى نقل المحصول . كان يسير خلف العربة التي تجرها
الخيول ليحمل عليها المحصول . وبدأ يفكر كم يجب
حميدة وكم تحبه هي ؟ لقد بادلته الحب ولا شك في ذلك .
وكان يلتقيها كثيرا ويتحدثان عن المستقبل وقد اتفقا على
الزواج رغم كل الظروف . لكن الاحداث تصاعدت
وخطبها المختار سحيم ثم مات . والان بقيت وحيدة .
لا تزال على حبه ؟ هكذا أخذ يتساءل بينه وبين نفسه
ما العمل ؟ . رغم تأكيدها له بأنها تحبه .

أبوها المختار . حاول في الايام الاولى للانقلاب ان
يساير الفلاحين خوفا من المستقبل . حتى الرعاية أخذ
يتحدث اليهم بلهجة ودية أما الان وقد انكشف وجه

الانقلاب على حقيقته وعاد كل شيء الى سالف عهده .
فالمخاتير مستمرون في أعمالهم وليس هناك اي تغير يذكره
شدد المختار أبوحميدة قبضته وأخذ يجمع الفلاحين
ويشعرهم بان ما جرى لم يكن أكثر من وهم .
فالاقطاعيون عادوا وعاد معهم سعادته . والحجي ما يزال
مركز كل شيء في المدينة .

كانت الصور قائمة في ذهن محمود . وما الانقلاب
الذي علقوا عليه بعض الامال أكثر من كلام أو وهم كما
يقول المختار أبوحميدة . على العكس من ذلك عاد السادة
أقوى مما كانوا وشددوا سطوتهم ليبرهنوا للناس انهم أقوى
من كل انقلاب وانهم سيظلون قادرين على فعل كل
شيء .

وأكثر من ذلك استلم الحزب الاشتراكي في البداية
لجنة المحاسبة والمراقبة واصبح شريكا في النظام . الامر
الذي عبر عنه الفلاحون بأنهم أصبحوا بين نارين ، نار
الحزب في المدينة ونار الاقطاع وازلامهم في القرية .

جلس محمود تحت الشمس المحرقة وهو يتفحص
الاحداث التي مرت دون ان يشعر بشدة الحر . فالفكار
في ذهنه أشد سخونة من النار . واستعرض في ذاكرته

الاهانة التي وجهها الوكيل جاسم لابيہ سلوم . هل تبقى
الاضاع هكذا والى متى ؟ كان يائسا من واقعه ومما نجبته له
القدر . وحبہ لحميدة لا يفيد شيئا طالما انه يبقى كلاما في
طي المجهول فهو لا يعرف ماذا ستكون النتيجة ؟

كان خائفا من القيام بأي عمل لم يفعل شيئا لكن
الوكيل جاسم عاقبه بالجلد . فكيف اذا قام بأي عمل . لم
يكن بطبعه يحب المغامرة . وبعد أن قهرته سياط الوكيل
أخذ يخاف من كل شيء . لقد استدعاه مخفر الدرك .
واتهمه رئيس المخفر بالتحريض على سعادته وشم
الاقطاعيين . وهناك كالوا له اللكمات من جديد . تلك
هي مهمة المخفر في ذلك الزمن تأديب العصاين
والفلاحين . وكان يكفي البك ان يأمر المخفر بجلد فلان
من الناس ، ليقوم الدرك بهذه المهمة على خير وجه .
وغالبا ما كان البك يعطي اوامره تلك ضد الفلاحين راميا
من وراء ذلك تأديبهم وارهابهم بين حين وآخر لاطهار قوة
الاقطاعيين .

وكان الوكيل ورجال سعادته يقومون بهذا العمل
احيانا . وعندما تستفحل الامور كان يحال الفلاحون
المغضوب عليهم الى المخفر . وعندئذ تأتي دوريات الدرك

على الخيول ، ويجمعون الفلاحين في ساحة القرية
لاهانتهم .

كان محمود يتألم من جروح ظهره . وقد رأته سعاد
في هذه الحالة فأشفقت عليه . شق عليها أن يتألم عاشق
كل هذا الألم عقوبة على جريمة هي الحب ؟ ! . لم تكن
سعاد خالية من المشاعر كما كان يتصوره بعض الفلاحين .
كانت ترأف بهم سرا ، وتواسيهم . لكن الظروف
وضعتها في مكانة محرجة . كان قلبها مع الفلاحين ولذلك
لم تكن مكروهة ومع انها كانت تتدخل في شؤون الحب بين
الشبان والشابات الا انها لم تكن لتجرؤ على التدخل في
قضايا الطلاق . وهذه هي عادة القرى . اذ أن أشد
ما يكرهه الفلاحون هو الطلاق ويعد من المحرمات .
والشيخ عبد الرحمن من أنصار ذلك . يشجع على الزواج
من ثانية وثالثة ورابعة بدلا من الطلاق ، حتى يبقى من
يعتني بالاولاد وتربيتهم .

كانت سعاد تتأمل وضع محمود وتتساءل كيف يمكن
ان تساعده وهو في حاله هذه ؟ كان شابا جميلا يعمل في
الرعي والحصاد . وليس هناك ما يسيء اليه سوى حبه
لحميدة اذا كان الحب سيئا كما في هذا الزمن . فهو يحبها

أكثر فأكثر كلما ازداد الضغط عليه .

لم يكن يشغل بال محمود سوى ذلك الحب . كان جالسا على الارض يرنو الى الافاق الملتهبة وحوله تتسلل الافاعي ، وترتفع اشواك الدردار ، والجمال تقضم طعامها بهدوء . والاغنام ترعى الارض الموجودة . فكر ربما كان حبه لحميدة السبب في عذابات ابيه سلوم . ولكنه تذكر ان اباه أراد منذ الايام الاولى للانقلاب ان يوزع الاراضي على الفلاحين وهذه جريمة كبرى عاقبه عليها الوكيل جاسم . فالوكيل جاسم أخذ يتصرف كما يشاء دون أن يعود لاستشارة سعادته . وهو الوحيد الذي يملك سلاحا يرهب به الفلاحين علانية . وكان يرى أن يؤدب سلوما حتى لا تستفحل الافكار الشيطانية في رؤوس الفلاحين . ولم ينس بعد ذلك فكلما مر الى جانبه كان يصفعه بالكرباج وهو يقول له :

- هل مازلت تريد أن توزع الاراضي . اذن خذ .

كانت زوجة سلوم تبكي وتبكي لما آلت اليه اوضاع زوجها . كانت تتألم وتبكي وهي تراه يتلقى الاهانات كل لحظة وكانت تعاتبه قائلة :

- قلت لك الف مرة لا تتعجل يا سلوم . لكنك لم
تسمع مني .

ماذا بوسعها أن تعمل ؟ وما هو مصير اسرتها بعد
ان صمم المختار والوكيل على ترحيلهم من القرية اتخذ
المختار القرار ليخيف أهل القرية وليبعد ابن سلوم عن
ابنته حميدة . الى أين يذهبون وكل القرى فيها مخاتير
ووكلاء . وربما لا يقبلونهم في أية قرية . سوف يسألونهم
عما فعلوه . وتكثر التحقيقات وربما سبقتهم الى كل
القرى ، توصيات سعادته بطردهم . وعندئذ سوف
يطردون دون سؤال .

كان الشيخ سعدو يقيم الصلاة في ساحة القرية
حيث لا يوجد جامع . ويتلو الصلاة بصوت منخفض .
والمصلون يفرشون التراب حوله . ومنهم من يمد عباءته
على الأرض ليصلي . ولقلة المياه فانهم لا يعرفون
الوضوء . لقد تيمموا بالتراب وهذا يكفي في ظروف شح
المياه .

* * *

في العاصمة انتشرت الانباء والشائعات المختلفة ولم يعد الناس يعرفون الحقيقة من الكذب . وكثرت خطب الجنرال ، وغرق رئيس وزرائه بتبعات الحكم ، ومسؤولية الاتفاقيات . لم يرغب في تنفيذ أي من الاتفاقيات ، ولكن عدم تنفيذها يعني بالنسبة إليه غضب الجنرال وهذا يعني بدوره الطرد من سدة الحكم .

كانا صديقين . ولم تنفع مع الجنرال كل محاولات اقناعه . فقد كان هذا متهورا لا يقدر عواقب الامور . وما يريد الان هو ما يفكر به فقط . وهكذا روي عنه من خلال منشورات الحزب التي اخذت توزع سرا ، بأنه كان للجنرال صديقة فرنسية اسمها الكونتيسة اندوران . وقد حصلت في فترة الاستعمار الفرنسي على حق الاستثمار التجاري لاثار تدمير التاريخية . وقد اختلفت الكونتيسة مع كومندان اسمه كولي والذي كان يومها قائداً لاحد الافواج الشركسية التابعة للجيش الفرنسي . فغضب الجنرال

الذي كان بدوره قائدا لآحد الافواج العسكرية . وقاد هجوما على الكومندان كولي من أجل الكونتيسة . وعلى أثر ذلك نقل الجنرال من الفوج . وبعد أن أصبح الجنرال الحاكم الاعلى في البلاد ، سمعت الكونتيسة ترقى صاحبها القديم في السلطة فزارت دمشق والتقت الجنرال وكانت ما تزال تحتفظ بحق استثمار الأثار . لقد جلس معها الجنرال طويلا ، وظل يستشيرها ويطلب رأيها في الاتفاقيات المعروضة عليه . ويتبادلان الآراء حولها . وهو الأمر الذي وصل الى مسامع شهناز وجيهان ، فأثار حفيظتهما . كيف ظهرت هذه المرأة فجأة في حياة الجنرال ؟ ولم يكن غضبها أشد من غضب الدكتور محسن رئيس الوزراء ، الذي شعر انه يفرق في وسط تيار جارف .

الحزب من جهة ثانية صار تحت قيادة أحد الاقطاعيين . كان يجمع فلاحي قريته ويقنعهم بأنه لا يهتم بملكية الاراضي . ولو أن الحكومة أمرت بتوزيع الاراضي ، لكان أول من يوزعها . وقد حاول ان يقوم بذلك ببادرة شخصية غير مرة لكن الحكومة منعتة من توزيعها . كان الفلاحون يصغون الى اقواله مكرهين ،

ولكنهم مع ذلك سعدوا لانهم للمرة الأولى حصلوا على قرار من البرلمان يمنع بموجبه تهجير الفلاحين من قراهم ، خلال السنة الزراعية .

وتدخل الفلاحون لحل مشكلة سلوم وأسرته .
وتدخل ابراهيم وأبو عمر لدى المختار ليتراجع عن قراره بتهجيره . والمحا اليه بأن ذلك يشكل فضيحة له ولابنته حميدة . لاسيما ان سلوما لم يقترف جرما يستحق العقاب . كل ما هنالك انه حمل حبلا في فوضى الايام الاولى للانقلاب ليوزع الاراضي . وقالوا للمختار : أما اذا كنت تود ان تعاقب محمودا لانه يعشق ابنتك فهذا أمر آخر . وستصيبك من جرائه متاعب أكثر مما تتخيل بكثير .
وهز المختار رأسه وقال :

- ماذا بوسعي ان أعمل . لقد نصحت ابنتي بالإبتعاد عن هذا الولد لان سمعتها أخذت تلوكها اللسن . ولو وافقت الان على زواجهما ، لما تركتني اللسن من التشهير . سيقول الجميع لولا أن محمودا اقترب معهما اثما لما وافق المختار على هذا الزواج . اني حائر . فبعد ان تحدث الفلاحون عن حبهما أنا غير قادر على الموافقة على زواجهما . لا أريد أن أقضي بقية حياتي في

المذلة والمهانة بين الفلاحين والمخاتير . انتم اصدقائي .
وعلينا ان نتعاون جميعا لحل هذه المشكلة . لقد خطبها
المختار سحيم . لكن القدر شاء أن يموت .

ورد أبو عمر :

- رحمة الله عليه . ولكن علينا ان نجد مخرجا
لننقذك أيها المختار فنحن جيران . والناس يتكلمون عنك
كثيرا ونحن حريصون عليك .

كان المختار الرجل الاول في القرية . وعندما حدثه
أبو عمر وابراهيم لمصلحته فقد كانا صادقين . كان يملك
المضافة وبكلمة واحدة منه يقرر التهجير . لكنه في النهاية
ليس اقطاعيا وليس أكثر من فلاح مثل بقية الفلاحين
والفرق هو أن سعادته كلفه بالمخترة دون غيره ، الامر
الذي كان يحدث غالبا عن طريق المصادفة .

لقد تناقشوا حول وضع حميدة طويلا في السر .
فأمور كهذه لا ينبغي ان تثار بين الفلاحين . وقد برهن أبو
عمر وابراهيم عن خبرات عميقة في الحياة . فقد علمتهما
التجارب مع الاقطاعيين والمخاتير والفلاحين الكثير من
الحكم والخبرات . بالرغم من انها كانا مثل غيرهما من

الفلاحين أميين لا يقرأن ولا يكتبان الا أن قسوة العيش علمتها الكثير وجعلت منها متحدثين لبقين هادئين . لا تثيرهما الانفعالات .

علمتها الطبيعة مثلما علمت غيرها كيف يمكن العيش في الظروف الصعبة . العمل تحت الشمس الحارقة وهم ينقلون المحصول دون توقف . حيث كثيرا ما تلدغ أحد الفلاحين أفعى في قدمه وهو ينقل الغمر من مكان إلى آخر . وأحيانا يسعف وأحيانا لا يصل إلى المدينة فيموت في الطريق . كثير من الفلاحين ماتوا من لدغات الافاعي . الاقطاعي لا يقدم سوى الأرض أما العمل فمن شأن الفلاحين . ويأتي صاحب الخان بعد ذلك لاستغلالهم . يقرضهم بالفائدة التي يقررها ، ويزور السجلات ، ويتحكم بالسوق والأسعار ، حسب ما يقرره أصحاب الخانات مجتمعين بالاتفاق مع البنوك والأسواق الخارجية . ولهم عملاء في المنطقة يجبرونهم عن المواسم والمضاربات . والفلاحون يدركون ذلك بحسهم الغريزي ولكن ماذا يستطيعون ان يفعلوا وقدرهم الزراعة ؟ وهم لا يعرفون شيئا آخر سوى الأرض ؟

ومع ذلك فقد تغيرت الاحوال قليلا . أيام

الاستعمار الفرنسي كان الاقطاعيون يعاملونهم معاملة
الاقنان . وكان الوكيل المشرف على نقل المحصول الى
البيادر يتحول في تلك الفترة من الزمن الى وحش كاسر .
أي فلاح ينقل سنبلة الى داره يعتبره سارقاً فيجلده .

الفلاحون الان يعملون في البيادر . ترسل لهم
زوجاتهم الطعام من اللبن المخضوض والخبز والتمر
والبصل . وعليهم ان يظلوا أياماً عدة نياماً في العراء .
وعندما يعودون الى القرية يكون لباسهم متجلداً من العرق
والغبار .

وذات عصر لدغت أفعى قدم أحد الفلاحين من
الخلف لكنها لم تؤثر فيه . فقد كان جلده العاري متينا .
وقد علقت اسنان الافعى بشحمة القدم فركض بها الفلاح
حتى انسحقت تحته وبقيت اسنانها منغرزة في كعبه .

اغلب الفلاحين لا يلبسون الاحذية . يظلون حفاة
رغم الحرارة الشديدة والارض الحارقة . هؤلاء الحفاة
العراة ، لم يعودوا يتابعون اخبار الانقلاب ، ومغامرات
الجنرال . كانوا منهمكين باعمالهم الشاقة . فلا يسمعون
من الاخبار سوى التنف التي يوصلها الحزب اليهم .
وليس هناك حقيقة سوى العرق المتصبب من الجباه

وأصوات الصراخ، وزحف الافاعي نهارا ، وأصوات
الذئب ليلا .

لم يكن في القرية مذياع .

ذات مرة جلب أحد الاقطاعيين مذياعا الى القرية
مع بطارية كبيرة ، وعندما شغله ، سمع الناس ألحانا
وأصواتا غريبة فدهشوا واستمتعوا وأصفوا طويلا الى
صوت مغنية ، ثم جاء لسماعها البدو من كل مكان .
وعندما اسعدهم الصوت سأل بدوي :

- أين تغني هذه المرأة ؟

فقبل له :

- من العاصمة .

عندئذ انسحب من الجلسة وهو يقول :

- نحن نريد مغنية من عندنا ، تغني هنا . لا نريد

مغنية لا نستطيع ان نراها ولا نستطيع أن ترائنا .

ولذلك لم يدخل المذياع بعد ذلك الى القرية .

* * *

أخيرا استطاع المخاتير الذين ذهبوا الى العاصمة
مقابلة سعادته . وتلقوا منه تعليمات كثيرة تتعلق بالزراعة
والارض والفلاحين . ونبههم الى عدم التدخل في القضايا
العامة والامور السياسية . كانت تعليمات سعادته
للمخاتير وتوجيهاته مختصرة واضحة . ومع ذلك فان المخاتير
بعد ان عادوا لم ينفذوا الا القدر القليل منها خوفا من
النتائج ، وانقلاب الامور لاسيما ان معالم الانقلاب لم
تتضح بعد كثيرا . وقد لا يكون من صالحهم تحول
الامور . لكنهم كانوا مطمئنين لوجود الاقطاعيين في
العربي الاشتراكي .

وعند الغروب في فترة الاستراحة تجمع الرجال في
مضافة المختار وكان هناك أبو عمر و ابراهيم والوكيل
جاسم . كانوا يتحدثون عن بعض القضايا التي تهم القرية
وعن خوفهم من حدوث حريق في السهل . فالبدو الذين
يرعون في الأرض المجاورة قد لا ينتبهون لهذا الأمر

فعليهم ان يسرعوا في العمل أكثر . الطقس حار وأي شرارة قد تسبب حريقا في السهل كله ، يأتي على المحصول . في أثناء النقاش قال المختار :

- مارأيكم في الذهاب الى محطة القطار لنعرف مزيدا من الاخبار .

لكن أبا عمر لم يتحمس للفكرة . كانت تنتظره أعمال كثيرة ، كان أكبر الرجال سنا ، فقد اقترب من الستين وقد تعب من الحياة . لكنه جذب الفكرة للآخرين . فركب المختار و ابراهيم والوكيل جاسم خيولهم وانطلقوا الى محطة القطار . وفي الطريق تحدث ابراهيم مع المختار في أموره الشخصية ونصحه بأن يحافظ على ابنته وعلى كرامته ، بأن يزوج ابنته لابن سلوم رغم كل ما يقال . وكان المختار يرفض النصيحة ويقول :

- لوزوجتها لابن سلوم لامتلأت القرى بحديثي ، ولشهرت بي الألسن . وأنا لا أستطيع احتمال الفضيحة .

ورد ابراهيم بكلمات هادئة :

- السترة أفضل من استمرار الفضائح ، اذا أخذها بالحلل أفضل من أن يخطفها عندئذ ستكون الفضيحة

أكبر . ومن ثم فان ترحيل سلوم وأسرته من القرية ، تثير الشكوك أكثر . وقد لا يفيدك ذلك في شيء . وربما اذا رحل من هذه القرية فستثبت التهمة ، ويتيقن الناس من شكوكهم . ومن ثم فان سلوما فلاح طيب . لا يتدخل في القضايا العامة وليس عضوا في العربي الاشتراكي . وان اشتكى لاعضاء هذا الحزب ، فقد فعل ذلك دفاعا عن النفس بعد ان لحقته الاهانة .

وقال المختار :

- أنسيت ما فعله عندما ظن أن حكومة الجنرال ستوزع الاراضي لقد اعتقد ان الحياة ستقلب رأسا على عقب . فلم ينتظر حتى تنجلي الامور . يا ابراهيم ذوو النفوس الضعيفة أمثال سلوم لا يملكون عقلا يفكرون به . لو وزعت الاراضي على الناس لانتشرت الفوضى ، ولا بد لهؤلاء الفلاحين من رجال أقوياء عقلاء يقودونهم ، وهؤلاء هم البيكاوات هم يعرفون أكثر مما نعرف ولهم خبرات كثيرة في قيادة الناس والفلاحين ، فهل تظن أن ذلك سينتهي في رفة عين .

وأجاب ابراهيم :

- ما دامت الدولة تريد أن تحافظ على الاستقلال .

فلا بد من أن تهتم بالفلاحين الذين يعملون في الأرض .
ويجب ان تنصفهم . ومن ثم فهم وأبناؤهم الذين
سيخدمون الوطن ويحربون فلسطين ، ان هذه الهدنة
هدنة مؤقتة ولن تلبث الحرب ان تعود بيننا وبين
الصهيونية .

وقاطعه المختار قائلا :

- هذه أمور كبيرة . اكبر منا فلنتركها لسعادته . فهو
الذي يعالجها بحكمته .

وتابع ابراهيم متسائلا :

- الجنرال الذي قاد الجيش قبل سنة . هل يستطيع
الصمود ويطرد الصهيونية من فلسطين . هل تتصور أن
الجيش السوري بأسلحته الايطالية الفاسدة والمخلفات
التي تركها الفرنسيون ، وبهذا العدد القليل من الجنود ،
هل تتصور جيشا كهذا يستطيع أن يتغلب على الصهيونية
ومن معهم من الجيش الانكليزي الذي قهر هتلر
وايطاليا ؟ انت تعرف ماذا حل بالدولة العثمانية حين كانت
تركيا مع الحلفاء . لكن الظروف تغيرت . إلى أي حد ؟
الله يعلم .

ويقول المختار :

- الله أعلم يا ابراهيم عمّ ستكشف الايام المقبلة .
ولكن ثقتي كلها بسعادته ، فهو يعرف كيف سيدبر
الاموال ، وينظم الجيش ويشكل القيادات . لكن الجنرال
هو الذي يتصرف بكل شيء الان وسعادته في بيته .
مع هذا أعتقد أن له رأيا وخطة في كل ذلك . نحن
يا ابراهيم لا نعرف من الامور الا بقدر حجمنا الصغير .
هناك أمور وأسرار ومعلومات لا نعرفها ، ولا أحد يعطيها
لنا . فهم يدركون اننا اذا عرفنا أكثر من اللزوم فربما
تحدث كوارث . تذكر ماذا حدث مع الشيخ سعدو الذي
ذهب معنا الى العاصمة . وماذا حل به ؟ نحن نقول انه
جن ؟ أخذ يتحدث مع نفسه وهو يسير في الدروب لقد
أصبح لدينا مجنونان اضافة الى مجنون القرية الذي يصيح :
باعوها . . . باعوها . . . ولقد جلدناه غير مرة ليقلع عن
هذه العادة دون فائدة . تصور يا ابراهيم في العاصمة
كنت مع الشيخ والنواب مجتمعين في صالون فندق
الاهرام . وسمعنا من الشارع صوت مجنون يقول :
باعوها . . . باعوها . . . مثل مجنوننا هذا وللوهلة الأولى
فكرت ما الذي جاء بهذا المجنون الى هنا ؟ وعندما نظرنا

نحوه وجدنا مجنوناً آخر يصيح الصيحات نفسها . ماذا يقصد هؤلاء المجانين ؟ الله أعلم !!

والآن أخذ المعلمون يزورون القرى . وأغلبهم من العربي الاشتراكي . انهم يوزعون المنشير في هذه المنطقة ويتحدثون عن الوحدة العربية والاشتراكية والحرية . وأي حرية هذه ؟ عندما يصرخ الحجي في وجهي فأنا أسكت يقول : أنت مختار لا تفهم . هذه حقيقة يا ابراهيم . وأغلب الفلاحين مثلي . انا فلاح في الاصل . وقد اختارني سعادته لا كون مختاراً . في سنين القحط كان الاقطاعيون يختارون المختير من النوع الاذكي والابخث أو من الذين ينقلون لهم أخبار القرية . أما أنا فقد اختارني سعادته لانني ظهرت في وجهه في اللحظة التي تكونت في رأسه فكرة المختار هذه . وهكذا كان .

جفلت الخيول وهي تسير في الطريق عندما مرت ثلة من الذئاب تعبر الطريق مسرعةً أمامهم . وكادت الخيول تلقي بفرسانها على الأرض وعندئذ صرخ ابراهيم :
- جهزوا البنادق .

وأطلق الوكيل باتجاهها طلقةً ناريةً . فصاح ابراهيم :

- إياك أن تلحق بها بمفردك . فقد تعود وتنقض عليك خاصةً إذا جرح أحدها ولم يمت . وتوقف إطلاق النار بعد الطلقة الأولى ، لأن كل طلقة تحتاج إلى تعبئة . ونظر الوكيل جاسم . وقد توقف ذئبان على مرتفع . وقال للمختار :

- لتركها . المسافة بعيدة .

وانتقل الحديث بعد أن مر الحادث بسلام عن الذئاب وخطرها فالذئب حيوان شرس ومهاجم لا يهرب ولو أحس بالخطر . ومن عادة الذئاب أن تركز على نقطة واحدة وضحية واحدة ثم تهاجم بكل عنفها وشراستها . وفي المنطقة المكشوفة كما في البادية لا تهاجم القطيع بكامله إنما تهاجم شاة أو شاتين من أضعف القطيع ، لتستطيع أن تقتنصها . وإذا هاجمتها كلاب القطيع فإنها تنفرد بكل واحد منها وتمزقه حتى تخيف بقية الكلاب . لكنها تهرب من الرعاة الذين يطلقون النار . والراعي الذي لا يصيب هدفه من الطلقة الأولى قد لا يجد فرصة لتعبئة الرصاصة الثانية ، لأن الذئاب تنقض عليه بسرعة فائقة وتمسكه من عنقه .

والذئاب عندما تسير فإنها تسير على نسق واحد وهي تبذل أقصى طاقتها للسير بسرعة وعيونها تتركز في نقطة واحدة والوسط في الذئاب هو الذي يقود الهجوم . فيتقدم الذئاب الأخرى أقل من خطوة لكي ترى عيون الذئاب الأخرى خط الهجوم . وهي تهاجم جماعات جماعات . وعندما يتراجع ذئب ما عن الخطة . تهجم عليه بقية الذئاب وتمزقه ليكون عبرةً لبقية الذئاب المهاجمة .

ومن طبيعة هذا الحيوان الغريزية أنه يبدأ الهجوم على القطيع بالزحف على بطنه حتى يكاد يغوص في الأرض المتموجة . حتى لا تراه كلاب الرعاة . ويقفز فيصل إلى فريسته وينقض عليها ويمزق عنقها بسرعة ثم يحملها بفكيه ويهرب بها . . . ويستغرق عمله هذا أقل من دقيقة . وعندما يهرب لا يستطيع الراعي أن يلاحقه لكنه قد يستطيع أن يصطاده ببندقيته وهو هارب .

كانت الجماعة تسير وحديثهم يدور حول الذئاب وقصصها .

قال الوكيل لجاسم :

- أنا شاهدت غير مرة غارة من الذئاب . وأنا أؤيد

كلام إبراهيم في ما يتعلق بهجوم الذئب .
وروى إبراهيم قصة رجل في طرف البادية كان يملك بندقيّة
وفرساً وعندما شاهد خمسة ذئاب أخذ يطلق عليها النار من
بندقيته ذات الخمس طلقات . وكانت كل طلقة تقتل ذئباً
أما الطلقة الخامسة فلم تنطلق . وقبل أن يطلقها صاحبها
كان الذئب الخامس قد وصل إليه وقتله . وقد سمي
إبراهيم اسم الرجل واسم أبيه وعشيرته وابن من .
ثم انتقل الحديث إلى عادات الوحوش التي تعيش في
المنطقة وتحدث إبراهيم قائلاً :

- أنا لا أخاف كثيراً من الوحوش الكاسرة كالضباع
والذئاب . لأنني أعرف كيف أتعامل معها . ولكن
ما يخيفني هو الأفاعي التي لا يراها في الأغمار أو في الحقول
أو تحت شوك الدردار . فالأفاعي أخطر شيء على
الإنسان . إنه لا يراها إلا عندما تلدغه وهو لا يستطيع أن
يقاومها أبداً . أما الذئب فيستطيع المرء أن يراه إذا كان
منتبهاً ويقظاً . فالذئب لا يبدأ العدوان على الإنسان
بشكل مباشر إلا في حالة الجوع أو البرد . فالذئاب
لا تأكل الإنسان كالضباع . ولا تلتفت إلى الإنسان حتى

لا تثير انتباهه . أما الضباع فقد تأكل الجثث والجبناء من الرجال . وهي تجرهم إذا خافوا هاجتهم وإذا كانوا شجعاناً مضت في طريقها . فالضبع يخاف من المغامرات غير المضمونة . وهو لا يهاجم مباشرةً باتجاه الرجال وجهاً لوجه . بل من الخلف . وعندما يلتفت إليه الرجل بحزم قد يهرب ويتراجع عن الهجوم حتى لو كان الرجل غير مسلح .

قال المختار :

- معك حق فالأفاعي خطيرة . وخصوصاً الأفاعي التي تعيش في مستودعات التبن في القرية . وهنا التفت ابراهيم وقال مازحاً :

- وهذا ما يضرب به المثل حول الناس المؤذين الخبيثاء فيقال عنهم : مثل أفعى التبن . وقال الوكيل :

- إذا كنت تقصدنا يا ابراهيم . فنحن لسنا أفاعي ولسنا ضد الفلاحين . نحن مأمورون وعلينا أن ننفذ ما نؤمر به يجب أن تعرف يا ابراهيم نحن فلاحون أولاً . وقسم من الوكلاء افقر من الفلاحين . وفي هذه القرية

يوجد الكثير من الفلاحين أغنى مني وأفضل حالاً . ولكن مهنتي هي أن أنفذ ما يطلبه مني سعادته والحجبي . لكن طيلة عمري لم انقل حديثاً لسعادته عن فلاح أساء إليه .
وتابع المختار الحديث قائلاً :

- هذا صحيح . وأنا كمختار في هذه القرية من واجبي أن أضع سعادته في صورة وضع الفلاحين . وأحياناً أتحدث للفلاحين وأقول لهم بأنني قلت لسعادته كذا وكذا ليأخذوا حذرهم ، فلا يفاجؤوا بنيات سعادته .
لقد اقتربوا من المحطة . ومرت أمامهم أفعى فعبرت الطريق ودخلت في الأرض البور واختفت بين أشواك الدرادار . وحاول الوكيل جاسم أن يطلق عليها . لكنه لم يعد يراها فقال :

- هذه اللعينة هي التي تخيفنا أما الذئاب فلا . . .
وقال المختار مازحاً :

- كم من الذئاب في هذا العالم الواسع . عندما نزور العاصمة وننام عند أبي العز في فندق الأهرام . كل شيء في العاصمة يخيفني أكثر من الذئاب والأفاعي . ولقد تحدثنا قبل قليل عن عادات الذئاب . وأولئك مثلهم

يحاولون أن يسيروا على نسق واحد ومن يتأخر منهم أو لا يهاجم فسوف يقتلونه فلذلك يا ابراهيم يجب أن تقدر موقفى بين حين وآخر عندما أنقل أخبار الفلاحين لسعادته أو للحجى . فمن يملك المال والنفوذ هو مثل الذئب فى القطيع البشرى . أبى لم يكن مختاراً لكنه كان فلاحاً فى هذه القرية مثل الآخرين . وعندما اختارنى سعادته مختاراً وضع ثقته بى فأنا لم أغشه يوماً ، ولم أخف عنه الصورة الحقيقية . وأنقل إليه ما يدور فى القرية . وكل شىء عن أوضاع وأحوال أهلها وما يقوله الناس عنه . هذه حقيقة يعرفها الفلاحون . لماذا وضعنى مختاراً إلا لأكون عينه فى هذه القرية وعليكم أن تغفروا لى كل هذه الأمور .

وصلوا إلى المحطة . كان الجمالون يجولون فى الساحة . والخيم منصوبة يرد إليها القمح بانتظار شحنه إلى مناطق المستودعات فى مرافئ طرابلس وبيروت . حيث ستشحن بعدها مع غيرها من البضائع إلى فرنسا ، عبر التجار والسامسة الذين يعقدون الصفقات الكبيرة ، مع اصحاب الخانات والتجار المحليين .

ربطوا خيولهم بجدار خاص . وأنزل المختار خرجه وحمله لسايس هب لاستقباله .

كان في الخرج سلة فيها بعض أفراخ الحمام ، وبعض الصفائح المملوءة جنباً ولبناً . وقال المختار للسائس :

- هذه للمدام .

وخاطب المختار جماعته قائلاً :

- لتسلى قليلاً عند المدام وبعدها نزور مدير المحطة . هل تعرف يا ابراهيم أن الهدية هي دائماً مفتاح الحديث . يجب أن لا نذهب إلى أي مكان بدون هدية . لا تعتبرها كما يعتبرها الفلاحون رشوة . عندما أرسلت أولادك لتسجيلهم في النفوس لادخالهم إلى المدارس قيل إنك أخذت الديوك واللبين لكاتب النفوس . وأكد ابراهيم كلامه قائلاً :

- نعم وقد أخذت الديوك وطار أحدها وهرب من سراي الحكومة . يومها أخذتها هدية لكاتب النفوس لأقنعه بتسجيل الأسر المكتومة التي ليس لها نفوس أو هويات . فأغلب الفلاحين عندنا لم يكونوا يملكون هويات شخصية . وأنت أولهم يا مختار . ليس لدينا هوية ماذا نعمل . منذ العهد العثماني ليس للعربي هوية . ولذلك كان علينا أن نحصل على هوية حتى يعرف الناس بعضهم

بعضاً . وعندما قدمت تلك الهدية فإنما قدمتها في سبيل
الخير .

ورد المختار :

- حسناً وأنا أفعل ذلك مع المدام . بعد هذا يمكن
أن ترحب بنا أكثر ، ويمكن أن نجلس عندها فترة أطول .
وقد تذبج لنا أفراخ الحمام ويتولى الوكيل جاسم الشوي .
وسوف نسمع عندها الكثير من أخبار العاصمة وأخبار
الحكومة ، وسعاده . لنعرف كيف سيكون مستقبلنا في
هذه المنطقة .

وقال ابراهيم :

- يا لهذا الزمن الظالم . تصور أن المدام هي التي
تقرر مصير الفلاحين في هذه البلاد .

ورد عليه المختار :

- هذه هي الحقيقة يا ابراهيم . لا تكن واهماً إذا
لم تقتنع أن المدام في هذه المحطة تستطيع أن تهجر نصف
الفلاحين ، فأنت لا تفقه شيئاً بأمور ما يجري هنا . إنها
تؤثر في سعاده أكثر من المخاتير . أنتم لا تقدرون سطوتها
وقيمتها وأثرها في هذا المحيط الذي تعيشون فيه .

تتصورون أنها مجرد امرأة جميلة ترتب شعرها وتلبس
الفساتين الجميلة لاستقبال سعادته . وتذهب معه ليدعو
إلى داره العجر فيرقصون أمامها ليسعدوها . لكنها عندما
تغضب من أي فلاح فإنها ستهجره . ومن يدري فإنها هي
التي تريد أن تهجر سلوماً قبلي . كان يأتي إليها ، وهو كما
تعلم شاب قوي جميل وربما كانت تراوده عن نفسه .
ولكنه رفض . وربما لأنها ما تزال تحبه ، توسطت لدى
الدرك كي لا يسلموها جلده . وربما هي التي حتمته من قبل
عندما أراد سعادته أن يهجره ولولاها لما بقي يوماً واحداً في
القرية . يجب أن تعرف جيداً أن للمرأة مهما كانت غبيةً
وجاهلةً دوراً كبيراً في حياة الرجال . حتى العجورية التي
ترقص لإبهاج سعادته كثيراً ما تنتهز فرصة فرحه فتطلب
منه الكثير من القضايا ليحلها لها . ألم تسمع قول المثل :

«إن في اصبع العجورية قوة أكثر من ثورين» فكيف
تفسر هذا المثل . إن أحداً لن يستطيع أن يفسره ولن يجروء
أحد على تفسيره أمام سعادته . فهي بعد كل حفلة أمام
المستشارين في قصره توسطه وتحل أية مشكلة . قد يكون
غاضباً من فلاح فإنها تطلب له الغفران . وقد تكون هي
غاضبة من فلاح لأنه لم يرسل لها هدية آخر السنة من

الموسم ، وعندئذ تحاول تأليب سعادته عليه وتسبب له الأذى و«البهدلة». وما هي في النهاية أكثر من غجيرية .

* * *

كانت هناك مجموعة من البدو ترعى أغنامها في الأرض المرجودة المجاورة لمحطة القطار .

في تلك اللحظة سمع اطلاق نار من الرعاة . كانت ثلة من الذئاب تغير على القطيع . وكان هناك ذئبان يجتازان سكة الحديد . لقد استطلعت الذئاب المكان قبل أن تهاجم الماشية . وبعد اطلاق النار حصلت معركة بين الذئاب والكلاب . كانت المعركة حامية ، الذئاب شرسة في هجومها والكلاب العنيدة في دفاعها المستميت عن القطيع . مع ذلك استطاعت الذئاب أن تغنم بعض الخراف وأن تهرب بها .

هذه هي الحياة في البادية . فالكلاب تعرف مسبقاً مجيء الذئاب بحاسة الشم القوية عندها . والذئاب تستطيع أن تهجم على القطيع بسرعة وتأخذ فريستها منه . وعلى الغالب تكون فريستها أقل وزناً أو مريضة متخلفة

عن القطيع . والذئاب تنقسم إلى قسمين في أثناء الهجوم . قسم يتصدى للكلاب التي تمنعها عن المهاجمة . وتهاجم الراعي أحياناً وتقتله ، وقسم ينقض على القطيع .

مرت الذئاب وهي تجر فرائسها بسرعة رهيبية أمام محطة القطار . وعندما رأى اناس المحطة المنظر فروا إلى داخل القطار حتى لا يواجهوا الذئاب المستشرسة . كان الوكيل والمختار و ابراهيم في المحطة . فأطلقوا نيران بنادقهم على الذئاب حتى لا تقترب أكثر من المحطة ، في حين اتجهت الذئاب نحو الجنوب الشرقي باتجاه حقول شوك الدردار الشائكة التي تلتجئ إليها عادة في مثل هذه الظروف .

صعد مدير المحطة إلى الطابق العلوي وتعاون مع المدام على افراغ السلال التي حملها المختار ، ورحبت المدام بضيوفها وكلفت الوكيل جاسماً بصنع الشاي . ثم اجلستهم في صالونها . وعندئذ سألت المختار عن حميدة وترحمت على المختار سحيم مع أنها ألمحت أن خطبته من حميدة لم تكن طبيعية . وبدا من النافذة في تلك اللحظة مشهد غريب إذ أن عموداً من الهواء المحمل بالغبار والرمل

هب من الأراضي البور وتناول في السماء إلى أبعاد عالية .
نظر إليه الجميع باستغراب . ثم جلسوا يتابعون
أحاديثهم . كان سقف البيت الذي تقطنه المدام مسقوفاً
بالقرميد . له صالون واسع لاستقبال الضيوف . بالإضافة
إلى غرف نوم ومعيشة واسعة . ومن عادة المدام أن تستقبل
في بيتها هذا الناس جميعاً ومن مختلف الأصناف . تستقبل
الفلاحين وتسقيهم الشاي ، وتستقبل الإقطاعيين في
سهرات ماجنة . وغالباً ما تذهب معهم إلى قصورهم
لتحضر حفلاتهم التي يرقص فيها الفجر .

وتحدثت المدام عن وضع الإقطاعيين فقالت إن أوضاعهم
قلقة رغم أن بعضهم استلم مناصب هامة في المحافظات
والإدارات ، فقالت : انهم يخافون من الجنرال فهو رجل
مزاجي وقد ينقلب عليهم في أي وقت . ولذلك فهم
ليسوا مطمئنين إليه ولا استمراريته في الحكم . ولا شك أن
هذا القلق يدفعهم إلى التفكير بالإطاحة بالجنرال وتابعت
حديثها بخبث قائلة :

- انهم يجتمعون عندي ويتحدثون عن ذلك . وهم
لم ينسوا أن بعض المخاتير لم يكن وفيأ لهم بعد أن ذهب
قسم منهم إلى مكتب الحزب الإشتراكي ظناً منهم أنه هو

الذي قاد الانقلاب . ولا أكتفكم أن بعض الإقطاعيين صاروا ينظرون إلى بعض المخاتير بعين الحذر والشك . وقد يغيرونهم في هذا الموسم .

ورد ابراهيم قائلاً :

- لقد قضينا حياتنا في العراق يا مدام . كافحنا ضد الفرنسيين والأتراك وقد تبدلوا جميعاً ونحن لا نزال باقين نعيش في هذه الأرض التي نعمل بها . صحيح أن الأراضي للإقطاعيين والمخاتير هم عيونهم لكن يجب أن يدركوا في نهاية المطاف أن المخاتير من الفلاحين ، وعندما توضع السكين في أعناقهم سيتوجهون إلى الفلاحين لحمايتهم . ليس لهم إلا أن يكونوا من الفلاحين . ومع ذلك فإن مخاتير هذه الأيام يبيعون أنفسهم للشيطان أحياناً . أما مختارنا أبو حميدة فهو رجل طيب ومحترمه الناس جميعاً . يا مدام لقد اجتزنا الستين من العمر ونحن في هذه المنطقة . وعندما أتت فرنسا هربنا إلى الجبال لنقاومها . وعندما يتطلب الأمر ذلك مع الجنرال قد نفعل . لقد أعدم رجلاً يعتبره الناس بطلاً لأنه قاوم الإقطاعيين . ولهذا الرجل أغان شعبية يرددونها الناس لأنه قاوم القهر . فكيف إذا وجد حزب يتبعه الكثير من الناس ، لقد أرب

ذلك الرجل الإقطاعيين كان اسمه «أبو علي شيهين» .

كان المختار يفكر بما يقوله ابراهيم ويوازن الكلمات مع مستقبله . بينما كان الوكيل جاسم متحفزاً ينظر بدهشة ويتساءل : ماذا يقول ابراهيم !؟

وتابع ابراهيم قصة أبو علي شيهين . وقال إن تمرده لم ينشأ عن قضية وطنية في الأصل ، إنما نبعت من مشكلته الشخصية عندما حاول الإقطاعي أن يأخذ زوجته إلى قصره فدافع عنها واصطدم بوكيله فأطلق عليه النار وأرداه قتيلاً .

عندئذ فكر الوكيل جاسم في رعب وقال في نفسه : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لن أقوم بهذا العمل في يوم من الأيام حتى لا أقع في مثل هذه النهاية .

وتابع ابراهيم :

هذا الرجل أعدمه الجنرال . انه يريد أن يحذر الآخرين ألا يخالفوا القوانين السائدة . وقد نفذ أحكاماً

١ - شيهين = شاهين بطل شعبي فلاح تمرد على الإقطاعيين وقاوم السلطة وقتل

عددًا من أفراد الدرك ، ثم ألقي القبض عليه وأعدمه الجنرال .

مماثلة بمحكومين بالاعدام من قبل السلطات السابقة . ما رأيك يا مختار بهذا الرجل ؟ .

وتهد المختار أبو حميدة وأجاب :

- انه رجل مع انه فلاح بسيط . عندما يريد الانسان ان يموت لا أحد يستطيع ان يقف في وجهه لا اقطاعيون ولا وكلاء ولا مختاير . تعرفين عنه الكثير يا مدام . حاولت الشرطة اعتقاله غير مرة لكنه قتل منهم الكثيرين دون ان يستطيعوا القبض عليه .

وتابع ابراهيم :

- سنة كاملة وهم يلاحقونه حتى أصبح اسطورة في نظر الناس وكان أي فلاح يصل اليه يجثه ويطعمه ويشترى له الذخيرة . انت يا مختار تهين الان سلوما . قد يأتي يوم من يعلمه ويشترى له بندقية . وأنت يا وكيل جاسم مالك وما لهذه المشكلة ؟

وانتفض الوكيل جاسم قائلا :

- انا أنفذ الاوامر يا ابراهيم . المختار يعتبر حب ابنه لابنته جريمة ماذا أفعل أنا ؟

كانت المدام تصغي الى أحاديث الفلاحين في

شغف . عندئذ التفت ابراهيم اليها وقال :

- انت يامدام لك أكثر من سنة في هذه المحطة .
واصبحت تعرفين عنا الشيء الكثير . نحن في النهاية بشر
ولنا قدرة محدودة على الاحتمال . وكراييج الاقطاع هي التي
تدفع الفلاحين الى الحزب العربي الاشتراكي .
تهدت المدام ولم تقاطع ابراهيم في حديثه . كان في
ذهنها خطة عليها ان تنفذها بدقة .

وتابع ابراهيم :

- نحن الان فلاحون عند سعادته . ولكن رزقنا في
النهاية على الله .

وسألت المدام عن نشاط الحزب في المنطقة . كانت
تريد ان تعرف كل شيء عن الحزب ومنشوراته
وأشخاصه . واجتماعاته . وقد اعتمدت في ذلك على عناد
محدثها كما اعتقدت .

لكن أحدا لم يكن لديه جواب شاف عن ذلك .
ودخل الخواجة الى الصالون ، ورحب بالضيوف
مرة ثانية . وتحدث عن معارفه الكثر من الفلاحين .
وتذكر سلوما ، وقال انه رجل طيب .

عندئذ قال المختار :

- من أجل عينيك وعيني المدام سوف نصفح عنه ولن نهجره من القرية . وتحدث مدير المحطة ، عن غربته في هذه المنطقة . وكيف انه يعمل ليل نهار . وما الهدايا التي يقدمها الجميع الا جزءا من الاعتراف بجهوده الجبارة في نقل المحاصيل وتنظيم الأمور .

والتفت الى المختار أبي حميدة وحدثه بلهجة

مباشرة :

- اذا أردت أن تبقى مختارا فعليك ان تحافظ على ثلاث خصال : ألا تتكلم كلمة واحدة تزعج سعادته أو تزعج الدرك . وان توصل كل ما يحدث في قرينك الى سعادته أو الى الدرك . ومن ثم «ألا تنسانا بهداياك» .
وفكر ابراهيم بما يقوله الخواجة . نعم هذه هي العلاقة مع السلطة منذ وجدت على سطح الارض ،
ألا يتحدث عنها المرء الا بالمديح ، وأن يتقرب الى رجالاتها بالرشاوي والهدايا .

ونظر الى الجدار المواجه له فرأى صورة الجنرال ببزته العسكرية وهو يضع المونوكل على عينه . لقد وزعت صورة على كل المناطق لتعلق في كل مكان .

وتدخلت المدام في الحديث وقالت :
- ان ما وقعته المارشال لم يوقعه البرلمان ولا سعادته
ولافخامته . وقد تحدثت مع رشاد بك واحسان بك
وصبري بك عن ذلك كله . وشرحت لهم نظرية الفراغ
فلم يفهموها . ولا أعتقدكم ستفهمونها . الاقطاعيون
يملكون أموالا كثيرة لكنهم غير مثقفين . وينفقون أموالهم
على طاولات القمار وفي دور البغاء . وفكرت . «مع ذلك
فانهم لا ينفقون الكثير في بيتها هذا تريد ان ينفقوا أكثر ،
أن ينفقوا كل أموالهم لتعود الى موطنها بكل الثراء» كانت
تتحدث العربية بركاكة فتابعته :

- اعذروني اذا قلت انكم لن تفهموني ، فالقضايا
التي تبحث الان في المستويات السياسية العليا أعقد مما
تتصورون .

وهز ابراهيم رأسه موافقا :
- نعم ما تقوله صحيح يا مختار . انها تقول الحقيقة .
وان قالت هذا الكلام لرشاد بك لعمل جاهدا على نقلها
من المحطة .

وردت المدام :

.. ولماذا ينقلني . انه لن يستطيع ان يتخلى عني .
فعندي كل مايشتهي الاغنياء .

كان الحاجة يؤمن على كلماتها ، ويتذكر سلوما
الذي علمه بيتا من الشعر يقول فيه الشاعر :
أسرب القطا هل من يعير جناحه
لعلي الى من قد هويت أطير
كان يتذكره . بكل قوة الغريم .

كان سلوم يغني المواويل ويغني العتابا ويعزف على
الناي ويدق على الدربكة . وكان يؤلف بنفسه العتابا
رغم انه أمي . كان أهل القرية يجتمعون ليستمعوا اليه
وهو يعزف على المزمار . وكانت المدام تعطف عليه وتحبه
وقد اشترت له بعض الادوات الموسيقية وبنديّة صيد لكنها
نيهته ألا يحملها حتى لا يصادرها رجال الدرك فيزجوه في
السجن . ومع انها كانت تعتبر نفسها فوق جميع السلطات
في المنطقة ، الا انها لم تكن ترغب في ان تظهر الى العلن
بانها تحمي فلاحا . وكانت المدام تحترم الفلاح ابراهيم
رغم انها تعرف طباعه وشراسته . كان قاسيا لاينحني
لاحد . وقد زارته مرات عدة في بيته لترى كيف يحيا
الفلاحون . وقامت بزيارات عديدة لبيوت الفلاحين في

جميع القرى الواقعة على خط القطار . تريد أن تبدو لهم امرأة طيبة ذات دلال . تذهب مع الاقطاعيين فقط وتروح عنهم بالنساء اللواتي تستدعيهن الى المحطة . وما كان أحد من الفلاحين يعرف عنها أكثر من هذا . فالفلاحون لا يعرفون شيئاً من الماسونية والصهيونية والجواسيس الذين يجولون في المنطقة منذ عهد الفرنسيين .

كان الخواجة يستمع الى الحديث الدائر بين امرأته وضيوفها الفلاحين ، وهو لا يستطيع ان يميز لغتهم . كان يؤمن على كلامهم دون ان يفهم معناه .

اعتذر المختار وجماعته من اطالة الجلوس وودعوا المدام عائدين الى قريتهم . ودعتهم هي بحب وطلبت منهم ان يزوروها دائماً . وفي طريق العودة رأوا مجنوناً هائماً في الطريق . فنصححه الوكيل جاسم بالعودة حتى لا تأكله الذئب . لكن المجنون شتم الثلاثة ومضى متابعاً طريقه . عندئذ غضب الوكيل جاسم وحاول ضرب المجنون لولا ان ابراهيم منعه من ذلك قائلاً :

- وهل ستضرب مجنوناً يارجل!؟

وصاح المجنون بالوكيل جاسم :

- حاول ان تضربني . انت معك بندقية . ولكنني
بهذه العصا استطيع ان احطم رأسك . عندئذ سارت
الجماعة تاركة المجنون لشأنه . قال ابراهيم :

- ياوكيل جاسم دعك وضرب الناس . لقد تغيرت
الايام ، ولم يعد أحد يسكت على الضرب أرايت حتى
المجنون رفع عصاه ليرد الاذية .

وقال الوكيل جاسم :

- ماذا حدث في هذا العالم ؟ لم يعد هناك احترام
للكبار . ولا أحد يحترم الاكبر منه . قل لي يا ابراهيم هل
لهذا علاقة ما بالحزب؟! هل يقويهم الحزب علينا؟!!

ورد ابراهيم :

- ربما . فالحزب استطاع أن ينتزع القوانين بعدم
اهانة الفلاحين . وثمة محامون من الحزب يدافعون عن
كل مهان .

وقال المختار :

- لقد ضيّعنا وقتنا في المحطة . لكن مع ذلك
استفدنا من دروس المدام .

وصلوا الى القرية . فدخلوا بيوتهم وقت اذان المغرب .

اذن الشيخ سعدو لصلاة المغرب . لكن احدا من الفلاحين لم يأت للصلاة . فقالت له سعاد :

- الرجال في العمل . تعال صلّ على المصطبة .
ففرد الشيخ سعدو عباةته على الارض وصلى وحده .

في وسط القرية دكان يأتي اليه عند الغروب فلاحون يريدون بيع بيضهم ليشتروا بثممه الكازوز أو التمر .
كان صاحب الدكان يقرض الفلاحين على الموسم .
وكان الحججي يمده بالمواد التموينية من الخان ويحدد له أسعارها وربحه فيها . ويوجد في الدكان ، محارم وعطور بزجاجات كبيرة وصغيرة ، يغشها احيانا باضافة الماء اليها ليربح اضعاف ربحه الاصيلي . وكان الشبان يشترون منه المحارم والعطور ليهدوها لعشيقاتهم عن طريق سعاد .
فبيتها كان مكمنا اسرار العشاق في القرية ، وكانت تحظى ببعض الهدايا لقاء عملها هذا .

وفي الدكان تباع الخلاوة والتمر والمسكة . وأمام
مصطبة الدكان كان الفلاحون يجلسون ويلعبون الورق ،
فالدكان لايفلق ليلا . وهو جزء من منزل صاحبه .

ازرق الأفق بعد الغروب ثم اسودّ ، وظهرت
النجوم تتلامع في كبد السماء . في حين أشرق القمر بدرا
مهيبا . وفي تلك الاثناء خرجت النسوة من بيوتهن وجلسن
في ساحة القرية ، هربا من الحرارة الشديدة . وأخذن
يتحدثن احاديث مختلفة . انتهى الشيخ سعدو من
صلاته . وفكر : في مثل هذا الوقت قبل سنوات احترقت
بيادر أم حارتين ولم يعرف السبب . قال الشيخ سعدو
يومها : ان القرية طردت مجنونا متشردا ، فلم يطعمه احد
ولم يقدم له الماء أحد ، وقد دعا الدرويش ان يبلو الله
القرية بالجوع والالم ، فاحترقت البيادر من لحظتها .
كان يفكر انه مثل ذلك الدرويش ، فهو لا يفكر الا
باطعام اسرته .

جاء المختار وجلس الى جواره . فسأله المختار :

- لماذا ياشيخ سعدو لم تحدثنا عن قضية فلسطين .

فرد الشيخ سعدو :

- كل حديث في غير أوانه هو لغو وتفريط بالجهد .
الحديث عن فلسطين يجب ان يكون أمام جميع أهل
القرية . فلسطين كما وردت في القرآن بلاد الاسراء
والمعراج والصخرة التي عرج منها النبي صلوات الله عليه
الى السماء . وبيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين
الشريفين . وكل انسان مسلم يجب ان يفكر كيف تحتل
الصهيونية أولى القبلتين ونظل صامتين ساكتين . كل من
صاح الله أكبر يجب أن يذكر الارض المقدسة هذه وكيف
اغتصبها أعداء الله . لا نعرف ما الذي سيفعله المرشال
يقولون انه يعيد بناء الجيش ويعتزم تحرير فلسطين . نتمنى
ذلك .

لقد أصبح الشيخ سعدو يشك بجميع القيم التي
كان ينادي بها ويحافظ عليها . ولم يكن قبل ذلك ليجرؤ
على الجهار بأفكاره خصوصا أمام اصحاب النفوذ وأمام
الشيخ عبد الرحمن الذي يعتبر أعلى منه مرتبة ، نظرا
لثقافته الدينية الواسعة . لقد غدا يشك بكل ما يسمعه
وبكل ما يراه ، وما أرقته الفضيلة والرذيلة في أي وقت
مضى مثلما ما أرقته الان بعد زيارته الى العاصمة . ولقد آل
أخيرا الى الاقتناع ، بأن الدين وتعاليمه تقال وتفسر للناس

كما يريد لها السادة لآكما هي على حقيقتها . وهكذا غذا رجال الدين اتباعا للاقطاعيين وارتبفت مصالهم الصغيرة بوجودهم .

كان الشيخ سعدو يتحدث الى المختار وهما جالسان على الجلاس امام بيت سعاد . نظر الى النجوم وخاطب المختار :

- انظر الى هذا الكون الفسيح يا مختار . نجوم كثيرة لامعة هنا وهناك بقدره الله . وهناك نجم الميزان الذي ينظم العدل بين الناس . وهناك نجم القطب الذي يحدد الاتجاهات حتى لا يضيع المرء في هذا الوجود اللانهائي . وما الذي سنأخذه معنا الى الآخرة سوى اعمالنا الصالحة . الحق يا مختار ان ذنوبك كثرت في الآونة الآخرة .

وغضب المختار من الشيخ سعدو رغم أنه كان يعده قد جن ، وأنه لهذا أخذت تظهر عليه ملامح ادراك لم تكن فيه سابقا . قال له :

- ألا تخشى إن اغضبتني ان ابدلك بشيخ آخر في نهاية الموسم ؟ انت لاشيء في هذه القرية لولاي . انسيب خطاياك يا شيخ سعدو أم تريد ان أفصلها لك؟!

ورد عليه الشيخ سعدو :

- أنا على الأقل رغم ذنوبي أؤذن وأصلي وأعلم
الاولاد قراءة القرآن . ولكن انت ماذا تفعل ؟ انت
لا تفعل سوى الباطل مع هؤلاء المظالم الفلاحين . انني
لا اهتم لشيء بعد الان يا مختار . انني لا املك شيئاً
ولذلك فاني لا أخشى شيئاً . لن تخيفني بتهديدك . انني
استطيع العيش على رغيف الخبز ، وحتى الكلاب تعيش .
ومن ثم فان هناك قرى اخرى سوف تستقبلني . ولكن
لتعرف يا مختار انني منذ الان سأنطق كل كلمة حق
أعرفها . ولن اجامل أحدا بعد الان . فانا لست الشيخ
عبد الرحمن ، ولا أطمح لاصبح مفتياً . لا كذب وأنافق
كما يجلو للاخرين . انا رجل فقير وتكفيني الصلاة زادا .
وخشي المختار من تطور الامر ، ومن لهجة الشيخ
سعدو الجديدة . لقد ارعبه بحديثه المفاجيء فتركه وذهب
الى ساحة القرية وقد امتلأ قلبه بالقلق والهواجس من
تغيرات الشيخ المخيفة .

تجمع الفلاحون امام الدكان عند الغروب . منهم
من مدَّ عباةته وجلس عليها ومنهم من جلس على كراسي
صغيرة وضعها صاحب الدكان لرواده . منهم من كان

يلعب الورق ، ومنهم من كان يلعب بالمنقلة . وثمة شاب كان يعزف على الناي في ركن من المصطبة . عندما كان الشاب يتوقف كان الفلاحون يصيحون : تابع . . اعزف وكان الشاب يبدأ بعزف لحن آخر حزين .

في القرية تعود الناس على عزف سلوم . وكان السقا يرافقه أحياناً بالعزف على المزمار . وعندما كان يعزف كانت المواشي تتوقف عن شرب المياه وتستمع الى الموسيقى ، بينما كانت الخيول تتراقص وتتدافع .

جلس المختار و ابراهيم والوكيل أمام دار سعاد . تذكر المختار الانقلاب وسلوما عندما اراد أن يوزع الارض . لقد خدع كما خدع الآخرون لكن أحداً لا يجرؤ على الكلام الان خوفاً من العقاب . هكذا كان المختار يفكر في سره .

لقد شعر الفلاحون بالقوة . وظنوا أن أسيادهم عبر التاريخ أصيبوا بصفة قاسية . ولقد انعكس ذلك على معاملة الفلاحين لهم ، لقد سخروا من سعادته عندما علموا بسجنه وقالوا ها هو سجين مثل المجرمين .

مرت فترة صمت دخل بعدها الشيخ سعدو

المجلس . وأخذوا يتحدثون عن الحرارة الشديدة اليوم
وضحكت سعاد وهي تقدم الشاي لزوارها وخاطبت
الشيخ سعدو :

- أسمعونا الأخبار الطيبة يا جماعة . كنتم تخبثون
عنا أخبار رحلتكم الى العاصمة . وأنت يا شيخ سعدو
كيف تذهب مع هؤلاء ؟ كنت أتصور أنك رجل تقي
ورع .

ورد الشيخ سعدو :

- وهل تعاطينا المعاصي لا سمح الله .

وردت سعاد ضاحكة :

- ان من يذهب مع المخاتير والحجي وشيوخ البدو
لا بد أن يرتكب من المعاصي الشيء الكثير .

كانت سعاد قليلة المعرفة بعالم العاصمة . فحدودها
القرية وخان الحجي ، لكن خيالها الجامح كان يرسم لها
صوراً قريبة من الحقيقة عن فجور الفنادق ودور البغاء في
المدن الكبرى .

وتابعت :

- انكم تتحدثون كثيراً عن ذنوب الفلاحين ،
وتنسون ذنوبكم مساكين انهم لا يعرفون الخطايا
ولا يمكنهم أن يرتكبوها . فهم منهكون من العمل
والفقر . دعنا من هذا . حدثنا عن العاصمة يا مختار .
وتتم الشيخ سعدو لنفسه . «أرجو ألا تتعري عليها
ذات يوم والا سيصيبك ما أصابني من مس . إذا شاهدت
هذه المرأة ما في فندق الأهرام فستؤول الأمور في هذه القرية
الى كارثة . لا ينبغي لهذه المرأة أن تشاهد أبعد من خان
الحجي .

ويضحك المختار باصطناع ، ويفكر بحزن لائماً
جماعته لأنهم أخطؤوا عندما اصطحبوا الشيخ سعدو معهم
الى العاصمة . فقد شاهد أكثر مما ينبغي له أن يشاهد .
ومن ثم فلسانه طويل ويمكن أن يفضح الجميع وينشر
أخبارهم بين الناس ويكفي أن يقول قسطاً يسيراً
مما شاهده لسعاد لكي يكونوا حديث القرية في الغد .
ونظر الشيخ سعدو الى سعاد . وهم أن يقول شيئاً
لولا أن المختار سارع الى القول :

- وماذا يوجد هناك في فندق الأهرام ؟ شاي وقهوة
ونقاش في السياسة بين المخاتير والنواب والبيكاوات

ولوح الشيخ سعدو برأسه وفكر : لم يذكر هن الكروان ، ولا النساء العابثات اللواتي يأتين الى المقهى . كان يتملى سعاد تلك التي تلف رأسها بشال أسود ، فلا يظهر سوى وجهها الجميل الذي لوحته الشمس . ويتذكر في الوقت نفسه النساء العاريات في الملهى وسراويلهن الصغيرة الملونة ، كان يعود بين لحظة ولحظة الى كلمات المفتي عن السيدات الفاضلات ، فلا يملك سوى أن يلعن هذا المفتي .

وفجأة سقطت نحو الغرب نجمة مضيئة مذنبه فتشهد الشيخ سعدو وطلب من الآخرين أن يفعلوا ذلك . وهو يتساءل عن الولي الذي نزلت النجمة فوق قبته . لكنه أكدأنها نزلت فوق مكان الشيخ فرزات .

والشيخ فرزات يعتبر محجاً لأهل القرية . يزورونه في أوقات المرض والجائحات ، والقحط . أمام مسكنه صخرة سوداء مربعة من البازلت الأسود في وسطها حفرة . والشيخ اختصاصي في أمراض الروماتيزم ، والريح التي تصيب المفاصل . يذهب اليه الفلاحون ظهراً . ويأخذون الذور من دجاج وخراف ، ويذبحونها على الصخرة السوداء في الحفرة الصغيرة . ويقف المريض فوق الصخرة

حيث تكون درجة الحرارة عالية جداً فتبخر الدماء الموجودة في الحفرة وتدخل في جسد المريض . وبعدها غالباً ما يشعر المريض بالتحسن الفوري ويتعافى من آلامه زمنياً طويلاً . بينما يأخذ الشيخ فرزات الذبائح والزكوات بالمقابل .

قالت سعاد :

.. عندما تنزل الشهب فوق الشيخ فرزات يتأكد الله في خلقه . انه يشفي الأمراض ويستحق أكثر من شهاب .
وتذكر الشيخ سعدو أضواء الكهرباء اللامعة بألوان متعددة في فندق الأهرام . فسرح بذاكرته الى تلك الأيام العاصفة التي أمضاها في العاصمة .

دارت أحاديث شتى بين المجموعة . كان الجو هادئاً . وكان محمد جالساً في ساحة القرية أمام الدكان يستمع للمزمار كان يخفي تحت ثيابه بعض المناشير للعربي الاشتراكي ليوزعها ويقرأها بين الفلاحين . فقد اتخذ الحزب موقفاً جديداً من سياسة المشيروكان ينظر بحذر الى سياسته المتهورة . ويشك بها دون أن يقدم على أي صدام معه . ولقد أعلن العديد من قادة الحزب في الفرع انهم

ضد المشير وسياسته وان قيادة الحزب في العاصمة لا تمثل الحزب في مدينة حماه . ودار نقاش بين الفلاحين . كانوا حذرين في أحاديثهم وأفكارهم . وقد انتابتهم الشكوك في الموقف الجديد للحزب بعد أن أصبح العديد من الاقطاعيين والأثرياء في قيادته . والتلاميذ لا يعرفون شيئاً إلا ما يلقنه لهم الأستاذ عادل . كان يجمعهم في الصفوف ويسلمهم المناشير ليوزعوها . لا يشرح لهم كثيراً . الا عن الوحدة العربية من وجهة النظر الاشتراكية . أما في اجتماعات الحزب وبوجود بعض الاقطاعيين وأبنائهم ، فما كان يمر على هذه الأفكار إلا لماماً .

لقد خبر الفلاحون عبر الزمن العذابات والمرارات . فما عادت المناشير تثير اهتمامهم . ومع هذا كانوا يأخذونها ويستفسرون عما فيها دون أن يزيدوا عن التعليق :
- ليفرجها الله علينا .

- ٢٢ -

عندما حدث الانقلاب أقاموا الأفراح ومسابقات الخيول . ودقت طبول العجر وانعقدت الدبكة في ساحة

القرية . لقد طلب منهم رجال الدرك أن يفعلوا ذلك
ففعلوا . تركوا الأمور تسير كما قدر لها . أما المختار فقد
وجد هذه الحالة تناسبه فترك لهم مجالاً ليتناقشوا
ويستفسروا .

كان التلميذ محمد يجلس أمام الدكان عندما ذهب
اليه الوكيل جاسم وطلب منه أحد المناشير ليقرأه له الشيخ
سعدو . وأجاب محمد على طلبه فأعطاه منشوراً دون أن
يخاف . كانت المناشير في ذلك الوقت تطبع على ورق أحمر
إذا كانت ضد النظام والحكومة ، وعلى ورق أخضر
وأبيض إذا كانت معها .

وعندما وجد الوكيل جاسم لون المنشور أحمر ،
ضحك قائلاً :

- علق يا رجال . الحزب ضد الحكومة .

وتخاطفت الأيدي المنشور حتى وصل الى يد الشيخ
سعدو الذي أخذ يقرؤه ويفسره على هواه . وهكذا عرف
أهل القرية أن الحزب ضد المرشال وضد الاتفاقيات .

في زاوية أخري من القرية ، كانت أم عمر وفطيم
وأم حميدة يجلسن ويتحدثن عن العقارب ولدغات

الأفاعي . وتحدثت فطيم عن التعليم بينما تذكرت أم حميدة
مصير ابنتها . وعندئذ نصحتها أم عمر بأن تعطي ابنتها
حميدة لمحمود ابن سلوم زوجة له . وقالت لها :

- نحن جميعاً فلاحون وزوجك فلاح ابن فلاح .
لا بل أستطيع أن أقول إنه أغنى رجل في القرية ولذلك
وقع اختيار سعادته عليه ليجعل منه مختاراً .

وغضبت أم حميدة لشتيمة زوجها . عندما سمعت
أن بعض الفلاحين يشتم المختار . عندئذ علا صوت
الشيخ سعدو الذي لم يرغب في الحديث عن المنشور حتى
لا يدخل الناس في دوامة السياسة . ونبههم الى البيادر
وحراسة الأراضي والزرع من الحريق . وتدخلت سعاد من
جانبها وعلقت على التعليم والمتعلمين الذين يكتبون هذه
المناشير ويعرفون كل شيء . قالت :

- العلم أفضل من الجهل يا مختار .

وفهم المختار أنها تريد أن تخرجه ، فصمت .

ثم اتجهت نحو الشيخ سعدو وقالت :

- أنتم الشيوخ لا تعلمون الا فك الحروف وقراءة

القرآن .

فرد عليها الشيخ سعدو :

- لا بأس . اننا نعلمهم أصول الدين . حتى
لا ينسوا ربهم خالق الكون .

وتفجرت مشادة صغيرة بين سلوم والوكيل جاسم ،
فتدخل المختار لتهديتها قبل أن تستفحل وتكبر لأنه لا يريد
أن يحدث شيء في قريته والأمور ما تزال غامضة .

وتابع الشيخ سعدو :

- الحقيقة تؤلم الانسان . وأحياناً لا يريد أحد أن
يسمعها . عندما تحدث الامام علي كرم الله وجهه عن
الحقيقة قال : لقد آلمتني الحقيقة . ألم تسمع يا مختار قوله :
آيتها الحقيقة لن تتركني لي صديقاً .

وقالت سعاد :

- اننا نخطيء دائماً . ونطلب المغفرة من الله .

وقال الشيخ سعدو :

- صحيح أن الله غفور رحيم . يغفر بعد التوبة
لعباده اذا تابوا ، لكنه لا يقبل التوبة منهم وهم على حافة
القبر .

وعاد سلوم الى المختار والوكيل جاسم ليتابع الحديث بينما كان ابنه واقفاً الى جانب سعاد . ويتودد قليلاً للشيخ سعدو . فهو أحياناً قد يحل أزمت صغيرة في القرية ، وهو بحاجة اليه الآن أكثر من أي وقت مضى .
والجميع يعرف أن الشيخ سعدو غالباً ما يقول الحقائق التي يعرفها منقوصة . وعندما يواجه بأنه أخفى جزءاً من الحقيقة يتذرع بعيشه وعيش أولاده فيغفر له الناس ذلك .

الفجرية نوفة هي نموذج آخر تناقش في كل شيء حتى في السياسة والفلسفة والدين ولا يقف في طريقها شيء حتى سعادته ، وهو عندما يغضب منها ترحل من القرية الى قرية أخرى حتى يستدعيها ويسترضيها . ولقد مكنتها هذه الحياة من قول أكثر الحقائق سخونة .

صاح المختار :

- لقد جاءت نوفة .

وتقدمت نوفة وسلمت على الجميع وجلست متربعة أمام المختار بجانب الشيخ سعدو وقالت :

- عمّ تتحدثون ؟ لا شك أن الشيخ سعدو يهيم في

السماء . دعنا يا شيخنا الجليل نتحدث في شؤون حياتنا
ومشاكلنا اليومية . ما يفرحنا وما يتعسنا . نحن جزء من
الناس علينا أن نفرح مع فرحهم ونحزن مع أحزانهم .
أنت دائماً تناقشنا في قضايا لا نستوعبها . دائماً تقول اليهود
اليهود . ماذا نعمل اذا كانت الحكومة كلها عاجزة عن
مقاومتهم . يقولون ان الجنرال سيحرر فلسطين متى ؟
لا نعرف ذلك . لقد صفقنا له وفرحنا معه ورقصنا من
أجله في القرى خلال شهرين من الزمن ونحن نطبل ونزمر
للجنرال .

تنحج يوسف وأشعل سيكارة ثم أخذ منها نفساً
عميقاً وقال :

- (صوروا لنا قمح ويا ليته شعير) .

وقال الشيخ سعدو :

- لا تياسوا من رحمة الله يا جماعة .

وردت سعاد :

- لماذا تنشغلون بالسياسة وكأنكم مسؤولون في

العاصمة عن مصير البلاد والدنيا . ناقشوا أوضاع القرية
وأولادكم والبيادر .

وتذكر الشيخ سعدو ما قاله له المفتي في فندق
الاهرام : التفت يا شيخ الى أمور دينك ودينك ودنياك ودعك من
السياسة . اتركها لأهلها . رأي المفتي يشبه رأي سعاد من
هذه الناحية . ولكنه فكر مرة أخرى بأن سعاد أطلقت
فكرتها هذه بسذاجة وعفوية . أما المفتي فقد قالها بعد أن
خطط لها وبرمجها في ذهنه .

وجاء التلميذ محمد بالمنشير الحمراء ووزعها على
الفلاحين ليقرأوها مرة ثانية في الصباح . وقال يوسف :
- علينا أن نناقش الأستاذ علي والأستاذ عادل في فرع
الحزب فهما ينوران عقولنا أكثر ويوضحان لنا الأمور أكثر
لأنهما على اتصال بالعاصمة وبالذين يعرفون بواطن الأمور
التي لا يصلنا منها إلا القشور . نحن نعاني من الظلم .
وقد كرس الجنرال سلطة الاقطاعيين وسلمهم المناصب
وأحكم رجال الدرك قبضاتهم على أعناقنا ولم يعد يجرؤ أي
انسان على أن يتنفس . ولقد أعدم المشير من وقف في وجه
الاقطاع مثل أبو علي شيهين والذي يعدم رجلا مثله هو
ضد الفقراء والاشتراكية .

حسنا يا شيخ سعدو ، سأتحديث عن الاشتراكية ولو
انك تعتبر الحديث عنها كفرة . لقد قال لك الشيخ عبد

الرحمن ذلك ، وأنت تقوله لنا . لكن من يؤكد ذلك ؟
لا أحد . قال الله عز وجل : «ويل لكل همزة لمزة ، الذي
جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده . كلا لينبذن في
الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة ، التي
تطلع على الأفئدة ، انها عليهم مؤصدة ، في عمد
ممددة» .

وقال الشيخ سعدو :

- صدق الله العظيم . يسلم فمك يا يوسف . انت
تحفظ كلام الله المناسب . فالحجي الذي يأخذ الفوائد
ويغش الفلاحين سوف ينسى أين يذهب بماله هذا الذي
يكده في خانه . نحن نعرف أنه يصك السبائك الذهبية
من أموال الفلاحين من كدهم وتعبهم . وأظن انه سيكوى
بها كما يقول الله تعالى في جباههم ووجوههم يوم لا ينفع
مال ولا بنون .

وتابع يوسف :

- وهل تعتقد أن سعادته سيرفع رأسه بعد الآن ،
بعد ان وضعه الجنرال في السجن وأخذوه من بيته في ثياب
النوم ورموا نظارته عن وجهه وأصبح لا يرى الأشياء
أمامه . سمعنا انهم قادوه مثل الخروف .

وحاول المختار أن يبذل الحديث ، فقال :

- لنسمع من نوفة بعض العتابا والميجانا ولنبدل هذا الحديث . حتى لا تتوتر أعصاب الناس ونقلب السهرة إلى مشكلة .

لكن يوسف تابع الحديث :

- الشيخ سعدو يحدثنا دائماً عن قضية فلسطين وعن بيت المقدس وأرض الاسراء والمعراج . وعلينا نحن أن نعرف كل شيء عن هذا الموضوع . ان فلسطين مولد الديانات السماوية اليهودية والمسيحية .

كان يريد أن يتابع لكن المختار قاطعه قائلاً :

- مالنا وما لهذا الآن . علينا أن نبحث عن الرجاء ونقل المحصول الى البيادر ونستمع قليلا لنوفة . يا رجال هذه القضايا التي تتعبون أنفسكم بها أكبر منا وعقلنا لا يستوعب كل حقائقها .

وقال يوسف :

- المختار لا يريد الحديث عن موضوع قد يؤذيه . فقد تمس الأحاديث سعادته أو تمس الجنرال ،

وهو لا يستطيع أن يوافق أو يدافع نحن لا نخاف من الجنرال حتى لو سجننا الى الابد . عندما ناقش في مشكلة القدس فهذا من صلب ديننا والله لا يغفر لنا اذا تهاونا وتكاسلنا في تحريرها من الأنجاس . الصهاينة يزحفون الى اراضينا زحفاً قد يأخذون في المستقبل القدس وقد يصلون اليها الا إذا أوقفناهم عند حدودهم . الحكومة تقول لنا انها ستقاتلهم ولكن الى متى ؟ هل نتظر حتى يصلوا اليها ويقتلونا .

وتابعت نوفة :

- هذا صحيح . نحن غجر وليس لنا مكان ثابت في الأرض . نحن نتحرك مثل مياه النهر التي تجري الى البحر وتضيع فيه وعندما نتحرك بين الناس نحبههم ونشعر بمشاعرهم . ونتعاطف مع قضاياهم . عندما اندلعت الحرب الفلسطينية كنت مع جماعتي في الساحل . قالوا دخل اليهود وطرردوا العرب من أراضيهم . وما بقينا طويلا حتى جاء الفلسطينيون وسكنوا الخيام مثلنا . ولم يعد هناك فرق بين البدو والغجر واللاجئين . لكننا عندما ناوي الى الخيام فهذه عاداتنا . ندق الطبول ونقيم الأفراح فلا تفرق معنا الأمور كثيراً لأننا هكذا نعيش . أما هؤلاء الذين

تركوا ديارهم بعد ان اغتصبها منهم اليهود فيجب أن يدافعوا عن حقهم ويعودوا الى أرضهم .

تقولون إن الحكومة تعرف أكثر منا ؟ ولكن هذا ما نراه بأم أعيننا . نحن الفجر مصيرنا مرتبط بكم فاذا مسكم شر مسنا . وإذا أصابكم الخير أصابنا .
وقال يوسف :

- بارك الله فيك يا نوفة .

تجمع الفلاحون تحت ضياء القمر المكتمل .
وأخذوا يتناقشون في أمور الحياة اليومية . حول الرعي ونقل المحصول الى البيادر . وأمام دار سعاد كان يجلس المختار والوكيل جاسم ومعهما الشيخ سعدو . كان المختار يعنف الشيخ سعدو لأنه تحدث بمواضيع أكبر من طاقته أمام المفتي في فندق الاهرام . وانتقل الحديث بين الجميع عن الانقلاب وعن المستقبل . كان الفلاحون يأملون فيه الخير لكنهم أصبحوا الان خائفين كانوا مستبشرين ثم أصبحوا قلقين . وقد انتشرت بعض الشائعات التي تقول ان السلطة القوية قد اعتقلت قادة الحزب وبعضهم استنكر مواقف الجنرال بعد ان أيدها خصوصا ما يتعلق

بالاتفاقيات وقالوا : هل يستطيع الجنرال اقناع الناس الى ما لا نهاية . حتى الشيخ سعدو استنكر اتفاقية رودس لأنه شعر انها استسلام لليهود الاعداء . وهذا ما عنفه المختار لأجله .

وفكر الشيخ سعدو على نحو لم يفكر به قبل الآن . انه لا يملك شيئاً حتى البيت الذي يسكنه ليس ملكه وفي أي يوم يشاء الاقطاعي ، يمكن ان يطرده منه ومن القرية . ليس لديه مواش وهو يعيش على الصدقات مع زوجته وأولاده الستة . اذاً لماذا يخاف ؟ انه لن يجر شيئاً لأنه لا يملك شيئاً المهم ألا يبين الدرك كرامته .

وكان ينظر للمختار على انه دعامة السلطة في القرية . ولذلك عليه ان يحذر جانبه ، فسكت على تعنيفه .

في مكان آخر ، افترش بعض الفلاحين عباءاتهم على الارض ووضعوا احذيتهم تحت رؤوسهم كوسادة وناموا . وكان عبد الله الذي عاد من العاصمة غير مطمئن على الاخبار . وأفضى بمخاوفه لشقيقه ابراهيم . قال ان - الحزب لم يسر مع الجنرال الى النهاية . فقد خدعهم وانحرف عن اتجاهه الذي رسمه في بداية الانقلاب .

أصبح ضد الناس جميعا وهو الآن ليس معنا .
وطلب منه ابراهيم ان يحل محله في حراسة الاراضي
المرجودة . لأنه سيذهب مع اسرته ومع الشيخ سعدو الى
الغاب .

لكن عبد الله ظل يتحدث عن الانقلاب . قال :
ان الجماهير غير راضية عن هذه الاتفاقيات . وقد سجن
الجنرال أمين عام الحزب وجعله يوقع على وثيقة ، يمتنع
فيها عن العمل السياسي . وأكد عبد الله ان هذه الوثيقة
هي ضربة قاصمة للحزب والجماهير . وهو موقف تخاذلي
من قائد سياسي وعد الجماهير بالتغيير والمستقبل .
لكن ابراهيم لم يصغ للحديث الى النهاية . فقد
انتصف الليل وكان عليه ان يذهب الى الغاب .
اصطحب زوجته وابنه محمد والشيخ سعدو ، وسار
الجميع باتجاه الغاب . كان الشيخ سعدو من منطقة قريبة
من الغاب ويسكن اهله هناك ، وله صديق خوري .
أحب ان يراه في مثل هذه الظروف .
كان الخوري رجلا وطنيا يناهز الاربعين من
العمر ، لكنه كان يتحلى بثقافة واسعة ويحفظ الكثير من
آيات القرآن ، ويناقش في أمور الدين والدنيا .

كانا صديقين وكثيرا ما يلتقيان أمام باب الكنيسة
فترات طويلة .

وصلوا الى الكنيسة عند الشروق . وذهب الشيخ
سعدو يرافقه ابراهيم الى بيت الخوري المجاور للكنيسة
التي لا تختلف في مظهرها الخارجي عن جامع القرية سوى
بجرسها المعلق فوق سطحها .

استقبلهم الخوري وزوجته وأولاده الثمانية ، كانوا
صغاراً وبيتهم من التراب كسائر بيوت القرية . رحب بهم
الخوري ثم قامت زوجته فقدمت لهم الفطور . وأخذ
الخوري يسأل عن المواسم ومشاكل الناس وأوضاع
الخصادين . وقال :

- ان لنا بعض الخصادين يذهبون من هذه القرية ،
ولا يعودون الا بعد زمن طويل . لكن بأجور قليلة .
ولا ندري لماذا يأخذون منهم في الخانات نصف اجورهم
من اجل النوم ويجبرونهم على شراء بعض الحاجيات التي
لا لزوم لها .

وانتحي الرجال الثلاثة ركنا في الغرفة وأخذوا
يتابعون احاديثهم وقال الشيخ سعدو كأنه يعترف
للخوري :

- منذ فترة ذهبت الى دمشق مع المخاتير ونزلنا في فندق الاهرام . وشاهدت زعماءنا يرتادون الملاهي ويجلسون مع المومسات .
وسأل الخوري :

- كنت معهم اذن؟

- نعم يا أبونا . فقد قادني قدري الى هذه الخطيئة .

وقال الخوري :

- اطلب الغفران من الرب .

ونظر الخوري الى صورة معلقة في صدر البيت العذراء وتابع :

- ليسامحنا الرب .

وقال الشيخ سعدو :

- هناك ترتكب الفواحش ، ولا أستطيع أن أصفها

لك لأنني عاجز عن الوصف .

ورد الخوري :

- عندما وقف السيد المسيح مع الحق والناس

الضعفاء اتهمه اليهود بمخالفة تعاليم الرب ومن أجل هذا

عذبوه وصلبوه . ولم يتراجع عن كلمة حق قالها . ولولا

صلب المسيح لم تكن المسيحية الآن . بصلبه ازداد الانسان

قوة على التضحية ، وتعلق الناس بالحقيقة الثابتة ،
والقدرة على فداء الانسان .

لم يكن الشيخ سعدو يعرف الكثير عن المسيحية .
بينما كان الخوري يعرف الكثير ويتكلم اللاتينية واليونانية
والعربية . وهو رجل محترم من قبل جميع الناس .

تابع كلامه قائلاً :

عن صلب يسوع يجب علينا ان نناقش العالم .
علينا ان ندافع عن مبادئنا ونستشهد من اجلها لتبقى عبر
الزمن . ولناخذ مثلاً استشهد الحسين بن علي في
كربلاء . انت تعرف الاسلام اكثر مني وأن الحسين عندما
وصل نهر الفرات ولم يبق معه الا القليل من المقاتلين ،
عرف انه لا بد أن يقتل لكنه صمم على القتال واستشهد
من اجل مبادئه ، فتحول موته مع الزمن الى رمز ديني
كبير . وبعد مئات السنين زاد اتباعه حتى بلغوا الملايين .
كذلك مقتل عمر بن الخطاب فقد استشهد من اجل
مبادئ العدل والسلام والمساواة . أراد أن يحاسب الناس
فقتله المتضررون من مبادئه وهم الاغنياء . وبقي اسم
عمر الفاروق عبر التاريخ . الرسول العربي الكريم . قائد
أمة ، عمل على وحدتها والارتفاع بها الى مستوى رفيع .

لكن تملك الاتراك وغزوهم لبلادنا ، آل بنا الى الخنوع والضعف والتفكك . واصبحنا لقمة سائغة للغرباء . في فلسطين مثلا ، تعاونت كل القوى على تجميع اليهود اعداء المسيح والله ، من كل بقاع الارض واحلاهم فيها . يدعون انها ارضهم ، وان هيكلهم في بيت المقدس ونحن نقول ان هذا الهيكل الذي يزعمون لا وجود له وما هو الا اسطورة وخرافة وذريعة للسطو على هذه البلاد المقدسة . وعندما كانوا ذات يوم في فلسطين لم يكونوا يزيدون عن قبيلة صغيرة تجوب المناطق . فوصلوا اليها وسكنوا في المنطقة ايام سليمان واحتلوا جزءاً من سهل كنعان . نحن رجال الدين يجب ان نعرف التاريخ وان نقول الحق حتى لا نخدع انفسنا ونخدع الاخرين . وأنا مع الرأي القائل بأن الاتفاقيات التي وقعها الجنرال فيها بعض النصوص التي تخالف المنطق والاستقلال الوطني . ولذلك عندما أعلنت رأبي صراحة في الكنيسة جاء الدرك وهددوني بالاعتقال . ورفضت يوم الاحد التالي الحضور الى الكنيسة ، واجتمع اهل القرية وتساءلوا لماذا لا يأتي الخوري؟ عندئذ خرجت الى الناس ، وقلت لهم ، اني لا أشعر بأن الكنيسة يمكن ان تكون حرة مستقلة اذا لم

يكن الوطن كله حرا ومستقلا . لا حرية لشعب الا اذا
كان الوطن حرا . وفي غياب حرية الشعب ، تصبح
الاديان بلا قيمة . ونحن رجال الدين علينا ان نفهم هذه
الحقيقة . وندافع عنها علينا ان نقول الحقيقة للجميع مهما
كانت ولا نخاف من الحاكم مهما كان ظالما ، فالدين هو
حرية الانسان وكرامته . وعلينا ان نحافظ عليها بكل
قوة . وهل يستطيع الجنرال ان يسجن الوطن كله . لولا
ان المسيح ترك تعاليمه قبل ان يموت ، لما بقي له ذكر وكان
عقابه على تعاليمه يعني خلوده المقدس . جان دارك هي
قديسة الآن في نظر الفرنسيين لأنها قاتلت الغزاة حتى قتلت
وبعد ان قتلت اصبحت قديسة في نظر الفرنسيين . يجب
علينا ان نناضل من اجل الاستقلال وحرية الوطن .
هكذا قاتلنا الاتراك والفرنسيين واليوم علينا ان نقاتل ضد
اليهود اعداء الاسلام وقتلة المسيح . وعندما يعدم الناس
من اجل المبادئ التي آمنوا بها تنطلق المبادئ بين الجماهير
وتصبح قوة روحية مقدسة .

هل يستطيع الجنرال ان يسجن ويقتل الشعب
كله ، عندما يقول الشعب كلمته في هذه الاتفاقيات؟
لاشك انه هو الآخر مخدوع ولا ندري كيف خدع ، وحتى

الآن لانستطيع ان نعرف كيف يفكر .
وقال التلميذ محمد الذي أعجبه حديث الخوري :
- ولكن العربي الاشتراكي يناضل ضد هذه
الاتفاقيات .

ورد الخوري :

- وماذا يستطيع هذا الحزب ان يصنع ، فالقوة
والجيش بيد الجنرال . ليساعدنا الرب . وتابع : لقد زور
الصهاينة التاريخ كله لخدمة أغراضهم الاستيطانية .
وعلينا نحن ان نحرر هذا التاريخ من تزويرهم . فنقرأ
ونقرأ لنعرف من أين تسلل اليه هؤلاء المحتلون . نحن
نناضل من أجل ان يحل السلام في الارض ولذلك يجب
ان تكون ضد الشر لا نريد الشر للآخرين ، ولكننا
لا نقبل الشر منهم . لذلك يجب ان نعرف كل شيء عن
الصهيونية التي رعتها بريطانيا الاستعمارية ثم اوروبا من
اجل السيطرة على الشرق ونهب ثرواته . أتمنى ايها الشيخ
ان تفهمني فنحن صديقان منذ زمن طويل . واسمح لي ان
أقول وأعبر عن أفكاري . ان هيكل سليمان الذي يدعون
أنه في القدس لا وجود له أما عرش بلقيس فهو عرش
مغشوش . كان النبي سليمان تاجراً كبيراً ولديه من الذهب

الكثير يجمعه من زعماء القبائل ، التي سكنت سهل كنعان فكثرت مواشيهم واغتصبوا السهل . ولم يكن اليهود اول من نادى بالاله الواحد . كان فراعنة مصر مثلهم نادوا بذلك قبل قرون من الزمن ، فتمرد كهنة المعابد وغيروا الفرعون بفرعون آخر لانه هدد مصالحهم . . جعل النبي موسى من قبيلته الهاربة شعب الله المختار . تصور أن يكون هؤلاء اللصوص القتلة هم شعب الله المختار حيث لاحقوا موسى ليقتلوه ايضا ، بعد أن فقدوا الامل بتولي السلطة وازاحة فرعون .

اسمع ياشيخ سعدو . أريد أن تعرف أن ملك فرنسا لويس التاسع في زمن الحرب الصليبية أرسل جنوده باسم الصليب وخدمة المسيحية لكنها كانت غزوة استعمارية . يقصد بها الاستيلاء على الشرق واخضاعه للنفوذ الاوروبي ونهب ثرواته . وقد تابع نابليون السياسة نفسها وعندما حاصر عكا حمل اليهود معه كجواسيس ، ثم عملت فرنسا وبريطانيا على ارسال اليهود الى فلسطين ليمنعوا وحدة العرب بين آسيا العربية وافريقية العربية . وبعد الحرب العالمية الأولى نظم البريطانيون هجرات اليهود الى فلسطين ، وساعدوهم على انشاء مراكزهم

الاستيطانية ومن ثم دولتهم الغربية .

نحن اصحاب حضارات ومنطقتنا جميلة وخيراتها كثيرة ، وهذا ما يطمع به الاستعماريون . لذلك ارتبطت الصهيونية بالولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية .

يجب أن نعرف كل هذا يا شيخ . أن نقرأ الكتب ونفكر ، سوف أعطيك بعض الكتب لتقرأها .
كان الشيخ و ابراهيم يستمعان الى حديث الخوري بشغف .

وقال ابراهيم في نفسه :

- ان هذا الخوري هو رجل وطني وليس كما يقول الآخرون ، هو واسع الاطلاع يعرف اشياء كثيرة تغيب عن بال الكثيرين ويجهلها الآخرون . لقد قال الصدق والحقيقة ويجب أن التقيه بين حين وآخر .

وتحدث الخوري عن سرقة الآثار . للمرة الأولى يعرف ابراهيم أن قصر الوليد بن عبد الملك اهداه السلطان عبد الحميد الى غليوم امبراطور المانيا . ونقل القصر من سورية في حوران واربد الى برلين . وعن

أعمدة تدمر التي نقلت الى برلين ايضاً في زمن العثمانيين
الذين كانوا يحكمون المنطقة .

فكر الشيخ سعدو بكلام الخوري وبعرش بلقيس
المغشوش الذي صنعه من النحاس وطلته بالذهب وقدمته
لسليمان وعقدت معه عقد الزواج وعادت الى اليمن وقتلت
رجال النبي سليمان في العقبة . كل هذه المسائل مرت في
ثانية برأس الشيخ سعدو الذي لم يستطع أن يستوعبها بل
كان يهز برأسه واحيانا يغمض عينيه وينفخ قائلاً :
..... يالط..... ييف.....

وساد صمت .

وسأل الخوري :

- ألم يكن النبي سليمان يحدث الطيور؟ قالها
متعجباً! موجهاً الحديث الى الشيخ سعدو .
وتابع الحديث قائلاً :

- ليس لنا أي دليل على ذلك . أما الهدهد فهو رمز
الاستطلاع في كل جيوش العالم ويمكن ان يقوم به
الرجال . وما هذه المواضيع من الجن الا اسطورة يتخيلها
الناس ويعتقدون انها رؤى يا ابراهيم .

وغادر الرجال دار الخوري عائدين الى القرية . لقد اكتسب الخوري مكانة رفيعة في أذهانهم . القوا نظرة الى الورا ، كانت الكنيسة ترتفع فوق رابية وتشرف على سهل الغاب كله . وهو السهل الذي كان ذات يوم بحيرة ، بنى الاسكندر المكدوني على ضفافها قلعة افاميا وبقيت آثار منها حتى الآن .

وفكر الشيخ سعدو بالجنرال ، والمخاتير الذين نبهوه وانذروه بأنه يتحدث اكثر مما يجب ويجلب الفضيحة لهم ولسادتهم . لقد قال في ساحة القرية ، ان من يصلح اليهود جاسوس ابن جاسوس . وفكر : سوف يقول الحجبي عني انني مجنون وعندئذ يأمر سعادته المختار أبا حميدة بطردي من القرية . كان قلقا مضطربا من حديث الخوري . وسأل ابراهيم :

- مارأيك يا ابراهيم في كلام الخوري ؟

كان ابراهيم يفكر على نحو مختلف ، كيف يزعج الاقطاعيين .

فأجابه : انه كلام مفيد ومقنع .

كانا يسيران جنبا الى جنب ابراهيم على فرسه

والشيخ سعدو على جحشته ، وكانت انفاس الدابتين
عالية وقد بلل العرق خواصرهما .

وتابع الشيخ سعدو :

- لكن يا ابراهيم لو عرفت كل هذه المعرفة لما
استطعت ان اقولها للناس مثل الخوري . هناك الكنيسة
تحمي الخوري أما أنا فمن يحميني ؟ وتهد ابراهيم وقال :

- انا معك ياشيخ سعدو ولا تخف من شيء . ولكن
يجب أن تقرأ الكتب والمنشير لتعرف الأشياء وتحدث
بمنطق . واذا حاول المختار ان يضرك فإننا لن ندعه يفعل
ذلك سيحملك الفلاحون اذا اقتنعوا بأقوالك .

ورد الشيخ سعدو :

- لا حول ولا قوة إلا بالله . عقلي لم يعد يتحمل
يا ابراهيم ، الأسلم أن يكون كل واحد في حاله .
ولكن المشاكل لا تدع الانسان يرتاح . ناس مع
الاخوان المسلمين وناس مع العربي الاشتراكي ، وواحد
يأتي من هنا أو هناك ويقول انه مع الشيوعية الدنيا احزاب
ومصالح . حتى العجبرية نوفة . تشوبش احيانا للبكوات
وأحيانا اخرى تشوبش للاشتراكية .

قل يا ابراهيم في اوضاع مشوشة كهذه كيف يمكن
للانسان ان يفكر دون ان يصيبه الدوار . هل سنقف ضد
سعادته وننشر أفكار الحزب العربي الاشتراكي . هل
نستطيع ان نقف ضد الوكلاء والمخاتير وأصحاب
الخنانات ؟ والحججى يحج كل سنة الى بيت الله لكي يغفر
له الله ذنوبه . ويعود ليأخذ كل شيء من الفلاحين . واذا
عارضه أحد الفلاحين يذهب الى البيك ويشكوه ويبعث
هذا الوكيل ليجلد ظهره ويؤدبه تذكر ماذا فعلوا بسلوم .
والجنرال يوقع الاتفاقيات ويختلف الناس حوله ، فيرد
عليهم بالاعتقالات والزج في السجون . في جو كهذا ماذا
نستطيع أن نقول وماذا نستطيع أن نفعل .

كان حديث الشيخ سعدو ينم عن ألم دفين في
نفسه . لم يستطع أن يعبر عنه بلسانه ، فراح أحيانا يؤشر
بيديه ، وأحيانا يهز برأسه وبين حين وآخر يقول لا حول
ولا قوة إلا بالله العظيم ، ويتابع :

- هل لنا القدرة على مقاومة هؤلاء الاقوياء الذين
يملكون كل شيء . حتى المختار وهو اصغرهم يستطيع ان
يفعل بنا ما يشاء ، فهو على الأقل يستطيع أن يهجر من
القرية من يشاء ، اننا ضعفاء يا ابراهيم ومع هذا علينا ان

نقول كلمة الحق . وأما الفلاحون الذين سيحسونني فانهم لم يصلوا بعد الى تلك القوة والارادة الكافيتين لمقاومة الظلم . ان بعضهم ما يزال يعتبر ضرب البك وكرايجه شرفا يمنحهم اياه .

كان ابراهيم يؤكد على صدق حديثه فقاطعه قائلا :

- حقا لقد تحملنا الكثير . لكن يجب ان نقاوم بهدوء وتعقل ونتعاون ونجمع أنفسنا في صفوف موحدة ضد الظلم والاستغلال . واذا منعنا ضرب الفلاحين فليس بمقدور البك ان يخرج أي فلاح من بيته ليضربه أو يجلده . وأنت ياشيخ سعدو تستطيع أن تساعد في توحيد الفلاحين . ويجب ان تظل مع الحق والمظلومين . ألم تسمع حديث الخوري . كان حديثا مهما ربط كل شيء ببعضه ، فالصهيونية ومشكلة فلسطين لا تنفصلان عما نعانيه . وعلينا ان نناضل ضدها جميعا . وانت ياشيخ سعدو رجل محترم لولا انك تجلس عند سعاد باستمرار . الفلاحون يعتقدون بأن سعاد صديقة البك وتجالس المختار والوكيل دائما ، وهي لهذا ضدهم ، وأنا غير مقتنع بذلك فسعاد تبقى امرأة طيبة مغلوبة على أمرها . ولكن لماذا لا تتعد عنها أنت . انها تسيء الى سمعتك . وعندما

تبتعد عنها سوف ترى الناس يقتربون منك . غير مجلسك
وسترى بنفسك هذه نصيحة مني .

كان حديث ابراهيم هادئا واثقا وكان الشيخ
سعدو ، يسمعه بصمت ويهز برأسه دليلا على الموافقة .
بينما كانت يسمع وقع حوافر الدابتين على الارض
الصلبة .

قال الشيخ :

- والى أين أذهب ؟ فبيت سعاد هو الوحيد الذي
يظل مملوءا بالسكر والشاي والطعام . وعندها ارتاح ،
اليس من حق الانسان ان يختار اصدقاءه الذين يريحونه .
وما لها سعاد ؟ انها امرأة طيبة كما تقول وتحب الفلاحين
وهي منهم . لكن أهل القرية لا يعرفون دائما من ينفعهم
ومن يضرهم . أنت تعرف أنني أعيش من عطايا الفلاحين
مقابل الأذان وصلوات الاستسقاء والكتّاب وبعض
النذور . ولكن مع ذلك فأنا لا أعيش حياة رغيدة . دائما
ينقصني المال ، فالفلاحون شحيحون وهم لا يملكون
الكثير ليعطوني . مع ذلك أقول لك بأنني تغيرت منذ
زيارتي للعاصمة . وهاهو الخوري يفتح أمامي طريقا
جديدة وأنا أعرف أن الشيخ عبد الرحمن سيثي بي للمفتي

وسيحاول أن يفهمه بأنني انشر الفضائح وأخلق الفساد في المجتمع . لن أهتم بكل ذلك لكنني لن أفارق بيت سعاد .

وصمت الرفيقان . كانا قد اقتربا من القرية . وقد بدت أكوأخها مثل قطع من الماعز الشاردة .

* * *

اجتمع الشيخ سعدو و ابراهيم والشيخ عبد الهادي في بيت هذا الأخير . كان الشيخ عبد الهادي صديقا لابراهيم يلتقيان بين حين وآخر . وهم جالسون جاء جار الشيخ عبد الهادي وجلس مع الجماعة . وتحدث ابراهيم عن اللقاء مع خوري القرية وبعض القضايا التي طرحها . فأثنى الشيخ عبد الهادي على الخوري الذي يعرفه جيدا وسأل عن أخبار الحصادين . فأخبره ابراهيم بأن الاقطاعيين يأكلون حقوقهم وتابع :

- وماذا بوسعنا أن نعمل هل نتقاتل معهم .
- وسأل الشيخ عبد الهادي مرة أخرى :
- وماهي أخبار الحزب الذي تبشرون به ؟
- هل تقصد الحزب العربي الاشتراكي .

- نعم . أرى أن الفلاحين يتحدثون عنه كثيرا
ويدعون للانتساب اليه ، ظنا منهم أنه سيخلصهم من
الظلم وسيعطيهم حقوقهم . اذا كانت هذه أهدافه فكلنا
معه . أنا اسمع وأعرف ان في حماه وقرى حماه الكثير من
الظلم للفلاحين والحصادين . والناس القادمون من هناك
يروون الكثير من القصص والاحداث التي لا يصدقها
العقل . والسلطة أهدمت أبو علي شاهين ، لإخافة
الناس . فهو ليس مجرماً . انما كان رجلا دافع عن عرضه
وكرامته . نحن رجال الدين من واجبنا رفع الروح المعنوية
عند الناس والحفاظ على كرامتهم ليكونوا قادرين على
الدفاع عن وطنهم وأمتهم .

وقال الشيخ سعدو :

- هذا ما سمعته اليوم صباحا من الخوري في قرية
الصقيلية .

وقال الشيخ عبد الهادي :

- انه صديقي ويحضر الى هنا كثيرا وتناقش في الدين
والسياسة وعن اليهود الذين استوطنوا فلسطين
واغتصبوها .

وضحك الشيخ سعدو قائلا :

- هذا حسن . ولكنني عندما تحدثت عن هذه
المواضيع في فندق الأهرام بين المخاتير والنواب ، صرخ
المفتي والمطران في وجهي . ومنعوني من الحديث في
السياسة والقضايا التي هي أكبر من حجمي .

وظهرت على وجه الشيخ عبد الهادي علامات
الاستنكار ، وقال :

- هذا خطأ . فالدفاع عن الوطن والحديث عن
مصيره ليس سياسة كما يفهمونها . وهي ليست أكبر من
حجم أحد ؟ لأن كل انسان معني بها ليستطيع ان يقف
أمام العدوان والظلم . نحن علينا أن نترك السياسة كما
يتحدث بها البكاوات والنواب ، فهذه سياستهم هم ،
وهي سباقهم الى المصالح والنفوذ . نحن يهمننا الوطن .
وقد قال الامام علي : « ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا
ذلوا » .

وقد صدق رضي الله عنه . ها نحن غزينا ونحن في
ارضنا ، ولن يرتفع لنا رأس مادام العدو على أبواب
بيوتنا يهددنا بحياتنا ومصيرنا . يجب أن نمنعه بكل
الوسائل . انتم الفلاحين ملح الأرض وحماة الحياة
وعليكم ان تكونوا من أمة الرسول الكريم . ومن يريد أن

يقاتل في سبيل الله ، فعليه الآن أن يقاتل ضد اليهود .
انتم تعرفون الشيخ عز الدين القسام لقد قاتل في فلسطين
واستشهد لكن روحه الآن في جنات عدن «ولا تحسبن
الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون»
صدق الله العظيم .

قال ابراهيم :

- طيب الله عيشك . هذا كلام . فعلا يجب أن
نقاوم الشر ونتصدى له قبل ان يصل الينا . أخذوا اليوم
فلسطين وغدا من يدري ماذا سيأخذون ؟ علينا أن نبدأ
بالقتال في فلسطين مهما كانت النتائج ولن نوقف القتال
لانهم سيتزودون بالاسلح والاعتدة من فرنسا وبريطانيا
وأمریکا . ولكن الجنرال يقول سنحرر فلسطين ، فلولا
أنه يملك القدرة على ذلك لما أعلنه .

وقاطعه الشيخ عبد الهادي قائلاً :

- سمعت هذا الكلام عن الجنرال . ولكن ما أراه
عكس ذلك فقد وقع اتفاقية الهدنة مع اليهود ، من يريد
أن يحرر الأرض لا يعقد الاتفاقيات . هذا ما يجعلني
أشك بأقوال الجنرال .

يقال انه كان ضابطاً في الجيش التركي ثم في الجيش الفرنسي ، ويقال انه يسكر ويلعب القمار ويعاشر النساء فكيف وصل الى السلطة لا نعلم ؟ لكن من يكن هذا تاريخه فليس له القدرة على التحرير .

كان الشيخ عبد الهادي يتحدث والجماعة تصغي اليه باهتمام .

وقال ابراهيم متوجساً :

أرجو يا شيخي ألا نتحدث في هذه الأمور بصوت مسموع . فرجال الشرطة والدرك يلاحقون كل من ينتقد الجنرال . وأنت تعلم المخبرين .

وقال الشيخ سعدو :

- لا حول ولا قوة الا بالله ، الله الساتر ، وهو القادر على رد الظلم .

ورد الشيخ عبد الهادي :

- ولكنني لا أخشى شيئاً لا الجنرال ولا دركه ، ولا أخاف إلا من الله ، وكلمة الحق ، هي ما أقولها لكم . وأنت نفسك يا ابراهيم مطارد من الدرك والسلطة منذ أكثر من خمسين عاماً . لكنهم لم يستطيعوا القبض

عليك . وأنا أستطيع أن أفعل ذلك . السلطة اليوم هي منا وفينا . ولدينا كما تقولون الحزب العربي الاشتراكي . أنا أحب أهدافه وأقواله المناصرة للحق والمظلومين . ومن ثم فإن كل من يعتقله الجنرال أو يقتله سيبقى رمزاً للأجيال القادمة . وسيعتبرونه شهيداً . هذا ما حدث مع انطون سعادة الذي خانته ، وهذا ما سيحدث لأبو علي شاهين الذي يتغنى ببطولاته الفلاحون . ان الجنرال بعد أن وقع الاتفاقيات التي يعرفها الجميع لن يكون في موقع يحسد عليه . وبعد موته لن يترحم عليه أحد .

وقال الجملة الأخيرة بصوت منخفض حتى أنه لم يفهم أحد ماذا قال ؟

وأجاب الشيخ سعدو الذي تنحنح وبلع ريقه وأخذ رشفة من الشاي :

- وهل سيفهم الفلاحون إن قلنا لهم ذلك ؟! كيف يمكن أن نقنع الفلاحين بالنضال من أجل فلسطين ؟ وهم لا يجدون ما يأكلونه ويلبسونه . انهم عراة جوعى وهؤلاء لن يفهموا علينا .

ورد الشيخ عبد الهادي ، بعد أن أخذ نفساً من سيكارتته ونفث الدخان في فضاء الغرفة :

- لا تظلم الفلاحين هكذا . انهم يعرفون ويفهمون ، وهم ليسوا كما تتصور لا يعيشون إلا من أجل بطونهم . والنضال من أجل فلسطين هو جزء من النضال العام من أجل الحرية والخبز والكرامة . هكذا كانت الامور في زمن الفاروق عمر بن الخطاب والامام علي رضي الله عنه والشهيد الحسين بن علي . لقد أقاموا ممالك العدالة ودافعوا عن المبادئ الاسلامية النبيلة ، وتابعوا رسالة النبي الكريم الذي قال صلوات الله عليه بأن الناس سواسية كأسنان المشط . هكذا يجب أن نفهم الاشتراكية .

أنا عندي أراضٍ واسعة ولكن ليس عندي فلاحون ، وأنا لا أستطيع أن أزرعها فيأتي الفلاحون ويرعون مواشيهم ودوابهم فيها .

قال ذلك وهو ينظر في وجه ابراهيم ليرى رد الفعل عنده . ولكن ابراهيم الذي يؤيد أفكاره بإشارة من رأسه ، لم ينتبه وتابع اصغاه للشيخ سعدو الذي قال مقاطعاً :

- الجنرال يقول إن الاشتراكية والشيوعية شر وكفر
وعلينا أن نقاتلها .

فرد الشيخ عبد الهادي :

- هذا خطأ وشائعات . علينا أن نعرف ماهي
الاشتراكية أولاً لكي نحكم عليها . انني أعرف رجالاً من
أقربائي وشيوخاً ينتمون الى الحزب الاشتراكي . انهم
يوجدون الله ويصلون . ان الانتساب الى مثل هذه
الأحزاب لا يعني الكفر والاحاد كما تقول شائعات
الاقطاعيين والسلطة .

وأنا أقول : لا تؤخذوا بالدعايات المغرضة . اعرفوا
الحقيقة أولاً .

وقال ابراهيم :

- ولو عرفناها يا شيخنا فان أحداً من الفلاحين
لا يجروء على أن يتكلم بها . انهم ضعفاء وجهلة ومشكلتهم
هي تأمين الحبز لأولادهم .

وقال الشيخ عبد الهادي :

- وهم أيضاً خائفون . أنت تخاف من المختار
أو الحجي ، وهذا يخاف من البك ، والبك يخاف من

هو أكبر منه ، وهذا يخاف من الجنرال . انكم أفضل منهم
بكثير فلا تملكون شيئاً لتخسروه . أما هم فانهم يخافون
حتى منكم ، لأنهم يخافون أن يخسروا ما يملكونه . أنا
والخوري اطلعنا على الدراسات والكتب والسير القديمة .
وقد وصلنا الى هذه الافكار بالاتفاق . علينا أن نناضل من
أجل مبادئ الوطن والأرض . ما قيمة المقدسات الروحية
إذا احتلت الأرض من قبل العدو ، قد يغيرون الجوامع
ويهدمون الكنائس ، وتقام بدلاً منها محلات الخلاعة
والدعارة ويشرد المواطنون مثلما حدث مع أبنائنا في
فلسطين ، لقد هدموا جامع ديرياسين ، وغيروا الكنائس
والجوامع في يافا ، فما قيمة الديانات إذا احتل الوطن
وذهبت الأرض ، فالدفاع عن الوطن وحماية الأرض ،
عمل مقدس وجهاد لا يعلو عليه جهاد ، والشهادة واجب
هنا .

وساد صمت حيث أنهى ابراهيم والشيخ سعدو
شرب الشاي عند الشيخ عبد الهادي ، ونهضوا جميعاً
حيث مشى معها الى باب داره مودعاً .

أكمل ابراهيم والشيخ سعدو رحلتها الى مدينة
حمه ، فعرجا على خان الحجى وهناك وجدا الحجى

والشيخ عبد الرحمن والخوري والمختار أبو حميدة والوكيل جاسم . كانوا قد قدموا في الصباح لبعض الأشغال .
كان الخوري يتحدث في التاريخ وقضية فلسطين ، حين شرد الحجى بفكره الى آخر تنقلاته بين حماه وبيروت وباريس . تذكر المبالغ الطائلة التي دفعها في سبيل هذه الرحلات التي اعتبرها يومئذ رحلات متعة وعمل .
وضحك في سره : ان ما دفعه ، يكفي لمعاشرة عشر نساء مومسات ومائة نورية ومائتي «سعاد» . ومع أنه ضاعف فوائد القروض على الفلاحين وتلاعب بالأوزان لم يعوض ما خسره في تلك الرحلات خصوصاً الرحلة التي رافق فيها رشاد بك الى باريس .

لم يعد الحجى يصغي للخوري ، لأن شيئاً مما يقوله لا يهمه وليس عملياً . وتذكر نصيحة الشيخ عبد الرحمن بارسال ابنائه الى مختلف الأحزاب السياسية ليضمن المستقبل . كان يشعر أن الشيخ عبد الرحمن عندما قدم له هذه النصيحة كان مخلصاً . لكن الحياة لم تتفق تماماً مع هذا المخطط فالجنرال ضد الأحزاب كلها وقد اعتقل زعماءها ونفى آخرين ، وأغلق مكاتبها جميعاً ، فماذا يمكن أن يبقى لها ؟ لقد بدأ الفلاحون يتدفقون الى الخان مع

بضائعهم وحيواناتهم . فراقب حركتهم . وغاب
مرة أخرى في أفكاره يقلبها ويتفحصها . لكن شيئاً لم يكن
يزعجه لأنه في قرارة نفسه كان يشعر انه قادر على فعل كل
شيء مادام لديه المال الكافي لذلك .

وتهد الشيخ عبد الرحمن وهو يصغي الى حديث
الخوري بانتباه . لم يكن لديه أحقاد ضد الخوري فهو
يعتبره من أهل الكتاب وعليه أن يحترم آراءه الى الحد الذي
لا تخالف فيه شرائع الاسلام المساوية . لقد وجد انه
يتجنى قليلاً على التاريخ المكتوب ليبرر هدفه . ولقد وصل
به الامر الى مخالفة القصص الواردة في القرآن الكريم عن
النبي سليمان وداود وغيرهما لكنه لم ينس بكلمة لأنه لم
يكن لديه فكرة جلية عن الموضوع فخاف أن يبدو ضعيف
الحجة أمام الخوري .

ومن جهة أخرى خاف من وجود الشيخ سعدو
بينهم . خشي ان يتلفظ بكلماته المعهودة عن الفضيلة
والرذيلة ، ويعرج على الحديث عن زيارتهم الى فندق
الاهرام وفحشهم مع النساء هناك . فلم يحاول أن يقحم
نفسه في أي حديث وقد قرر ألا يرافق الشيخ سعدو بعد
ذلك الى اي مكان .

وفي تلك الأثناء كان المختار داوود يجلس الى جوار المختار أبو حميدة . لقد توصل اخيرا الى قناة بضرورة الزواج من حميدة فهي جميلة ، وسوف يساعده الزواج منها على إقامة حلف مع أبيها يقويه في المنطقة . كان يفكر بالبعيد . بمستقبله المرتبط بوضع سيده الكولونيل الذي يعتبر الان اليد الثانية للجنرال . وربما بظروف أخرى ، سيكون اليد الأولى فيزيح الجنرال ويحل محله . وعندئذ سيصبح المختار داوود سيد المنطقة دون منازع ودون الحاجة الى إقامة حلف مع أحد .

كان يخطط ليصبح مختار المخاتير الذي يفرض سلطته على الجميع ويتقبل هدايا البدو ويفرض الأتاوات وتصبح مضافته المكان الذي تربط فيه الأمور وتحل . كان الأمل يدغدغه بمستقبل عظيم مرتبط بمستقبل سيده الكولونيل الذي لم يشك لحظة بقدراته على الوثوب نحو كرسي السلطة .

الوحيد الذي كان يصغي للخوري بكل كيانه هو الشيخ سعدو . فهو يستمع بانتباه ويتمعن في كلمات الخوري ويقارنها بأحاديثه السابقة التي أنارت رأسه في العديد من القضايا التي يجهلها .

وبينما الجميع جالسون ، دخل البيطار بشكل مفاجيء وأخبر الجميع بأن السلطة اعتقلت الأستاذ عادل .

صمت الجميع وتبادلوا نظرات الحيرة . كانوا يعرفونه رجلاً نشيطاً منتسباً الى الحزب العربي الاشتراكي . وقد شن مؤخراً هجوماً عنيفاً على الجنرال ، وتوقع له الجميع مثل هذه النهاية .

قطع الحجي الصمت ونفخ دخان نرجيلته وقال للبيطار :

- وماذا نفعل له ؟ لقد طول لسانه أكثر من اللازم .

نحن نقول كما قال أجدادنا :

لا تدوس على السلطة ولو كانت رماداً . انها تحرق ، ولا تؤاخذني فعلى الأستاذ عادل أن يتحمل مسؤولية ثرثرته . وأنت تعلم انني كثيراً ما حذرته . ولا أظنك تتوقع أن تتوسط له أو أن نحمل بنادقنا دفاعاً عنه . ليتحمل مسؤولية حزبه ومسؤولية أفكاره ومناشيريه ليكون مناظلاً حقيقياً . اذهب الى الحزب لعل رفاقه يخرجونه من السجن . ولعلمهم يقبضون على الجميع

فتخلص من شرورهم .

كان الحجى سعيدا بالنبا . ولم يكن هادئاً كعادته وهو الذي يستطيع أن يضغط على نفسه ويتناسك فلا يعرف متى يفرح ومتى يحزن ، متى يرضى ومتى يغضب . لكن النبا هزه فاسترسل في الحديث على ذلك النحو . ثم بصورة غير مباشرة انتقل الى حديث آخر مع الشيخ صفوك ليقول من أهمية النبا وصاح بصوت عال :

- الشيخ صفوك لا يجاملنا بكلمة . بماذا تفكر يا رجل . البرلمان وستصل اليه فما الذي يشغلك ؟ لكن الشيخ صفوك كان في وادٍ آخر . فقد عاد بذاكرته إلى أمسية بيروت في بيت كلادس . وانقطع عما يدور حوله . والبيطار أصر على العودة الى نبا اعتقال الاستاذ عادل وقال :

- من واجبنا أن نكون ضد الاعتقالات السياسية .
وعلينا أن ندافع عن المعتقلين الأبرياء والأساذ عادل له علاقات طيبة بالفلاحين وهو يدافع عنهم ويشرح لهم القضايا الوطنية ومن حقه أن يقف الى جانبه .

كان البيطار يحدث الحجى بغضب ، فاجتمع

القرويون وأخذوا يستفسرون عما حدث . بينما دخلت
العجربة نوفة بقامتها الطويلة الى الخان وهي تعاند
السايس أحمد ، وعندئذ ضحك الحجبي وقال بصوت
هامس :

- لا إله إلا الله ، شيء عجيب هذا الزمن ، حتى
العجبر أصبحوا سياسيين . جاءت لتسأل عن الأخبار
أدخلها يا أحمد .

ودخلت نوفة غاضبة وطلب الحجبي منها أن تجلس
لكنها قالت له :

- عليك ان تؤدب السايس أحمد فهو يمنعني من
دخول الخان .

وهب الجميع لاستقبالها ثم جلست الى جوار
الحجبي .

التفت نوفة نحو الشيخ صفوك وسألته :

- الحفلات قليلة عندكم يا شيخ صفوك . لماذا لم
تعودوا تفرحون كثيراً . أم أن البخل هو الذي يجعلكم
كذلك . ان كل مال الأرض لا يساوي ساعة سعادة .

ورد الشيخ صفوك :

الله محبيك يا نوفة . في أي وقت تريدان زيارتنا
فنحن جاهزون .

كان الشيخ عبد الرحمن يفكر بالذهاب الى العاصمة
لاستشارة المفتي وسعادته عن قضايا الساعة التي اثارها
الخوري . وليعرف تفاصيل ما يدور هناك . لم يكثر بنبا
الاعتقال ولا بدخول نوفة .

أما الشيخ سعدو فقد أرقه نبأ الاعتقال وفكر : كلما
قلنا إن الأمور ستهون ، تعقدت من جديد . لماذا يعتقلون
الأستاذ عادل ؟ لأنه ضد الاتفاقيات والمؤامرات على
الوطن . ومن بعد الأستاذ عادل سيتصل بالفلاحين
ليعلمهم بالحقائق ؟ وانشغل الشيخ سعدو بمصير الأستاذ
عادل . بينما صمت الخوري فترة من الزمن ثم عاد الى
الحديث بصوت عال قائلاً :

- علينا أن نموت قبل أن يحتل اليهود بيت المقدس .
سأقول هذا ولو اعتقلني الجنرال ولو قطع لساني سأكتبه على
الورق والجدران ليعرف الجميع رأيي .

وفي تلك اللحظة دخل السائس أحمد بابريق الشاي
والكاسات ولكن يديه كانتا ترتجفان بعد سماعه نبأ اعتقال

الأستاذ عادل الذي يعرفه جيداً ويساعده سراً في توزيع المناشير . وغضب الحجي عندما دلق الشاي دون أن ينتبه وصاح به :

- لعنة الله عليك ماذا أصابك أنت أيضاً .

وتدخل عبد الله في الحديث . وقال :

- سوف يأتي يوم تحاسبون فيه . والحزب الذي أغلقت مكاتبه ونفي زعمائه سيعود وسيخرج مناضلوه من السجن وسوف يؤدبكم أنتم طبقات السادة والمستغلين . ان الجنرال لن يعيش الى الأبد فعمره الآن يزيد على الستين . لقد تحملنا فرنسا خمسة وعشرين عاماً . لكن الفرنسيين رحلوا وبقينا نحن . وهذا ما سوف يحدث للجنرال .

وكاد الحوار يتحول إلى مشاحنة لولا أن تدخل الشيخ صفوك وهدأ المتحاورين .

لم يكن الحجي راغباً في تصعيد العداء مع عبد الله . فصمت . بينما أخذ يتحدث مع الشيخ صفوك حديثاً جانبياً تاركاً الجميع في لغوهم . وبعد قليل طلب من رفاقه الاستعداد للسفر الى العاصمة كما عزموا ، ومشى

أمام الجميع مغادراً الخان .

في الطريق الى المحطة فكر الحجي بمحصول هذه السنة كيف يستثمره على نحو أفضل . وكيف يمكن أن يرفع الفوائد ليخصص لسعادته حصة كبيرة وهو في إقامته الجبرية التي فرضها عليه الجنرال . كان يسير مع الشيخ صفوك والمختار داوود والمختار أبو حميدة والشيخ عبد الرحمن نحو المحطة ليركبوا الاتومتريس في طريقهم الى العاصمة . وتابع تفكيره بالاضطراب الذي يحدث في البلد . أيام قلقة مجهولة المصير وكل يوم تصدر حكومة الجنرال قراراً جديداً .

لم يكن يحسب حساباً لمدام المحطة لأنه يعرف انها لا تريد أكثر من أن تزيد ثروتها وتعود الى أهلها . لذلك عندما استقبلتهم بحفاوة ، لم يتردد من أن يسألها عن زوجها وعن الاستعدادات لنقل المحصول . كان الشيخ صفوك هو الآخر يفكر بالبرلمان . وقد وعد مدير المحطة بمرافقته في رحلة صيد وإقامة حفلة رقص وغناء يشارك فيها العجبر بين الخيام . وكذلك وعده بإقامة مهرجان للفروسية وسباق الخيل ، واستعراض قتالي بين البدو . الشيخ صفوك مستعد للتعاون مع الشيطان ليصل الى

البرلمان . لا يوفر شخصاً يمكن ان يقدم له فائدة من اجل هذا الهدف الا ويسترضيه ويدعوه الى زيارته . كان عليه أن يزيح الشيخ حمد من طريقه ، وهو الذي نبهه الى ضرورة اقامة الحفلات والولائم لأصحاب النفوذ .

كان الشيخ حمد يولم للفرنسيين والانكليز ويقيم لهم الأفراح . وقدنقل عنه هذه الطريقة . فأعطاه السيد هانس ضوءاً أخضر بمساعدته للوصول الى البرلمان دون ضجيج . كان مطمئناً من هذه الناحية لكنه يريد أن يوسع دائرة معارفه .

الشيخ عبد الرحمن فكر أنه ذاهب الى العاصمة ، وسيتناول عشاء فخماً هذا المساء . وسوف يسهر في الليل في ملهى الكروان ويعود الى الفندق لينام . وتساءل هل ينام في فندق الاوريان بالاس أم في فندق الاهرام ؟ ولكنه قرر أخيراً أن ينام في فندق الاهرام ، لأنه اعتاده . وكان يتخيل شهناز كما رآها المرة الماضية . وهذا ما انتبه له الشيخ سعدو ووجهه في القرية من أن الشيخ عبد الرحمن يجب النساء وعندما يذهب الى العاصمة لا يذهب لمناقشة الأمور السياسية والدينية انما ليجالس النساء ويشرب الخمر . ان علاقاته مع النواب والمخاتير والبيكاوات

لا تستطيع في كل الأحيان أن تحسن سمعته بين الناس .
وتساءل بهزء بينه وبين نفسه : ومن أين جاءتنا الاتفاقيات
والأحزاب ؟ ما الذي جعلها تستخدم هذه الأيام وتبليبل علينا
متعنا وسعادتنا ؟

الوحيد الذي يفهمه هو أبو العز . انه يعتني بعشائه
ونومه ، ويوصي نساء الملهى به ، وكثيراً ما كان يبدل له
ثيابه في أثناء السهرات .

وصلت الحافلة فركبها الجميع . كان في الحافلة كثير
من الركاب وفيها ثلاث درجات ، فمدير المحطة في حلب
لا يحجز للفلاحين في الدرجة الأولى . كما أن سعر التذكرة
في هذه الدرجة أربعة أضعاف الدرجات الأخرى .
ولذلك كان الفلاحون يتكدسون في الدرجة الثالثة بينما
يجلس وجهاء القوم في الدرجة الأولى . وهي التي جلست
فيها الجماعة .

وبالإضافة إلى وجهاء القوم ، كانت هناك مومسات
عدة يعملن في ملاهي حلب وبيروت . كان الجو حاراً .
وكانت ثمة امرأة تلبس قبة عريضة وتدخن سيكارة طويلة
أزعجت الشيخ عبد الرحمن . فطلب منها أن تمتنع عن
التدخين لأن ذلك ممنوع بقانون الحافلة . لكن المرأة

ضحكت وقالت بسخرية :

- الق مواعظك يا شيخ في الجامع . هذه حافلة للركاب لهم الحق في أن يتصرفوا كما يشاؤون .

وقالت امرأة أخرى :

- هذا ليس تبغاً . إنه حشيش . لو شممت هذه الرائحة بعمق لأصبحت سعيداً ولصفا عقلك . وعندئذ سوف تتذكر أفضل وتصلي أفضل .

وقام رجل ففتح النوافذ . بينما تابع بعض الركاب الحديث عن مضار التبغ الذي تشربه السيدة . رغم أن عبق الحشيش في الحافلة دفعهم للانتشاء قليلاً .

وتابع الحجي وصحبه أفكارهم من جديد بعد أن نسوا السيدة . وقد غفا بعضهم . لكن بعد وصولهم إلى المحطة . نزلوا وركبوا الحنطور باتجاه الفندق .

رحب بهم أبو العز قائلاً :

- أهلاً بكم . لقد طالت غيبتكم .

ورد الحجي عليه :

- أنت تعرف هذه الأيام أيام عمل . والمحصول

على الأبواب .

وقال أبو العز :

- قدرت ذلك . على كل حال أهلاً بكم .

وصرخ بالحاجب ليحضر الشاي للزوار ، ثم النراجيل .
وسأل كل واحد منهم عن أحواله وأخباره . وجهزت
الأراكيل بسرعة . فقال المختار داوود :

- في الحافلة كانت إحدى السيدات تحمش وقد

عدلت دماغنا . نحن الآن محمشون دون أراكيل .

وضحك الجميع . بينما خلع الشيخ صفوك عباءته وتقدم
البويجي أبو نعيم مرحباً وطلب منهم نزع أحذيتهم
ليمسحها . واتبه أبو العز لمسدس الشيخ صفوك الذي
ظهر تحت حزامه وقال :

- إنك تحمله أينما ذهبت هذا حسن . فالحياة لم يعد

فيها أمان ، ولكن كيف تستطيع أن تحمله رغم أن الجنرال
يمنع ذلك .

ورد الشيخ صفوك :

- لكنه استثنى من القرار شيوخ العشائر والنواب .

وهو يعرف أن البدوي لا ينزع سلاحه إلا إذا نزعته منه
روحه .

ودخلت شهناز إلى الصالون ضاحكةً وسلمت على
الضيوف قائلةً :

- نور الفندق . أهلاً بكم .

وغمزت بعينها الجميع . ثم تابعت :

لديكم أعمال كثيرة لكن سوف نسهر الليلة معاً .
وسأحجز لكم في الكروان .

وتناولت الهاتف واتصلت وحجزت طاولةً لعشرة
أشخاص .

* * *

ذهب الشيخ عبد الرحمن لزيارة المسجد الأموي حيث
سيلتقي المفتي وبعض أصدقائه . والمختار أبو حميدة
والحجي عزموا على الذهاب إلى سعادته ليستطلعوا الأوامر .
وأخبرهما أبو العز أن الحراسة خفت على بيته ويستطيع أي
إنسان أن يزوره ، شريطة ألا يتحدث بالسياسة . وتقدم

سمير من الحجى منتظراً البخشيش لكن الحجى لم يعطه شيئاً . وأبو نعيم بعد أن مسح الأحذية أعطاه أبو العز أجرته على أن يحاسبهم بها عند مغادرتهم الفندق . الحجى لا يمكن أن يخرج من جيبه القرش إلا بصعوبة هكذا قال أبو نعيم . وفكر الحجى أن السهرة الليلة ستكلف كثيراً وعليه أن يورط الشيخ صفوك بالدفع سيجد نفسه فخوراً حين يدفع .

وتتم لأبي العز :

- إن شاء الله في المرة القادمة سيكون الشيخ صفوك عضواً في البرلمان وعندئذ سوف يداوم عندك مثل نواب العشائر الآخرين سيحجز لسنة كاملة .

وفتح الباب بشكل مفاجيء وأطل منه رأس المجنون وقال :

- باعوها .. باعوها .

عندها صاح أبو العز بسмир :

- اعطه ليرة ودعه يخرج من الفندق .

كان يحمل عصاه وشعره مشعث كالعادة . وبعد أن أخذ الليرة مضى في الشارع وهو يتابع صياحه . كان

الشارع والساحة مليئين بالناس عصر ذلك اليوم . وكان
نهر بردى يتدفق عابراً المدينة وعلى جانبه البيوت الدمشقية
القديمة . وبدأ الظلام يزحف . وحركة الناس تخف .
عندئذ غادر الحجى والمختار أبو حميدة الفندق متوجهين إلى
دار سعادته بينما خرج المختار داوود إلى دار الكولونيل .
وبقى الشيخ صفوك في الفندق منتظراً الجماعة .

وصل الحجى والمختار أبو حميدة إلى بيت سعادته .
كان من عادة سعادته أن يجعلها ينتظران قبل أن يسمح لهما
بالدخول ، ليشعرهما بهيبته أو ليهينها إذا كانا مخطئين .

جلسا في القناق^(١) ينتظران خروج البك إليهما . وإلى
جوارهما نافورة يدور حولها كلب افرنجى بعد فترة دخل
سعادته . وسلم عليهما . كان يرتدي روب النوم فوق
البيجامة ويدخن غليونه . وسأل الحجى عن الأخبار في
القرى فبدأ هذا يقدم له تقريراً مفصلاً عن المواسم
والحصاد وأسعار الحبوب . وكمياتها . وقال له إنه استدان
من البنك لينفق على الحصادين . وقد كلفه ذلك أموالاً
إضافية لا يمكن تعويضها إلا إذا ارتفعت الأسعار قليلاً .

(١) القناق : مضافة الاقطاعى الكبيرة .

وسأله سعادته عن المحصول . فأكد له أنه جيد هذا العام بسبب الأمطار الغزيرة والطقس الجيد . لقد بدا سعادته مطمئناً . لكنه سأل :

- وكيف هي حركة الفلاحين والناس ؟ هل ستبقي الفلاحين في أماكنهم دون تنقلات ؟ ونظر سعادته في وجه الحجى وتابع :

- سمعت أخباراً كثيرة تفيد بأن فترة حكم الجنرال خلقت بعض الفوضى بين الناس . وخلقت حالة من الإرباك لدى أصحاب الخانات والممولين ، مما أقلق نفوس الفلاحين . وإذا كان الحزب قد زرع في رؤوس الفلاحين فكرة الاشتراكية وتوزيع الأراضي عليهم . فهذا يعني أننا سنتعذب معهم لنزع هذه الفكرة من رؤوسهم . إن هذا يهدد سلطة الإقطاعيين على قراهم وفلاحهم . لقد توهموا أن الجنرال اشتراكي وسيوزع عليهم الأراضي . وقال الحجى :

- لقد حاولوا أن يوزعوا أراضي البور ليزرعوها في السنة المقبلة . وهذا لا اعتراض عليه حسب توجيهاتكم أما كيف ستكون هجرة الفلاحين فهذا ما ستقرره

سعادتكم .

وسأل سعادته المختار :

- ما رأيك يا مختار؟ هل التهجير مفيد في هذه الأوضاع؟ أو نترك الأمور كما هي الآن؟ أم أنه لا بد من تهجير بعض الفلاحين المشاغبين ما رأيك؟

ورد المختار أبو حميدة :

- لا أرى فائدة كبيرة من التهجير . حتى أننا أعدنا بعض الفلاحين مثل ابراهيم وأوكلنا إليه حماية الأراضي وحراستها من مواشي البدو وقد قام بعمله على خير وجه . هكذا نستطيع أن نستثمر المتمردين أكثر . فبعض الفلاحين لا يستطيعون العيش إلا في هذه المنطقة . وهكذا سيظلون تحت مراقبتنا . ولن يستطيعوا الاصطدام بنا مخافة التهجير مرة ثانية شريطة أن يؤمنوا قوت عيالهم . ودون ذلك سيخلقون لنا المتاعب . أما أولئك النشيطون مع الحزب فمصيرهم متروك لسعادتكم .

وتنهذ سعادته . وسأل الحججي مغيراً الحديث :

- وما هي أخبار بنك سورية ولبنان؟

وأجاب الحججي :

- كل شيء على ما يرام . مع أن العلاقات الاقتصادية مع لبنان ما تزال معقدة . ومشكلتنا مع الجمارك والفرنك الفرنسي لم تحل حتى الآن . وقد أخطأ الجنرال بتسليم زعيم القوميين السوريين . فبإعدامه أضيفت مشكلة معقدة بينه وبين لبنان ونخشى أن ندفع الثمن نحن .

وقال سعادته :

- الجنرال الذي أصبح مشيراً لا يعرف ماذا يفعل ومستشاروه يخدعونه فهو في ورطة كبيرة الآن ولن يخرج منها . المهم أن الأمور لن تكون سيئة إلى هذا الحد . وستعود الحياة كما كانت من قبل . لا تخف يا حجي . وأنت يا مختار . يجب أن تشد همتك قليلاً لكي تسيطر على الفلاحين والمختير إننا في زمن الفوضى ويجب أن نشدد قبضتنا من الآن . الجنرال ضعيف ونحن الأقوياء

وقال الحجي :

- نحن رهن اشارتك . والمختار أبو حميدة معك إلى العظم .

وما رأي سعادتك برفع الأسعار .

وقال سعادته :

- تصرّف كما تريد وكما تراه مناسباً المهم أننا الآن بحاجة إلى المال . أما أنا فسوف ألتقي بعض الإقطاعيين وأتفق معهم حول هجرات الفلاحين وتحديد مناطقهم . وستكون نافعة جداً آراء المخاتير بهذا الصدد . أما الديون فيجب أن تجنى بأية وسيلة وعلى المخاتير أن يساعدوا أصحاب الخانات في ذلك ولو أدى إلى معاقبة المقصرين في إيفاء ديونهم . مع ذلك لا أريد كثيراً من المشاكل كما في السنين الماضية . فالأوضاع الآن لا تحتل ذلك . أما الأحزاب والمناشير فالمشير يسبقنا إلى تصفيتها لن نحتاج إلى جهد كبير لإيقافها عند حدها . لكن عليكم أن تمنعوا المناشير من التسرب إلى الفلاحين منعاً باتاً . إلا تلك التي تنتقد المارشال . لأنها إلى جانبنا .

لم يرغب سعادته في الحديث أكثر من ذلك مع الحجّي والمختار أبي حميدة . لذلك ودعها وتمنى لهما السلامة . وقبل أن يغادرهما سأل الحجّي عن عمله في فأخبره بأنه سيبقى يوماً أو يومين ثم يذهب إلى بيروت لتصفية الحسابات والإتفاق على شراء الحبوب مع بيت الياس .

المختار داوود ذهب إلى بيت الكولونيل لكنه لم يجده
فانتظره أمام الباب عدة ساعات . لكن أحد الحراس نبهه
إلى أن الكولونيل مشغول جداً هذه الأيام . ولن يعود حتى
ساعة متأخرة من الليل وربما لن يعود حتى الصباح .
عندئذ يئس المختار داوود وعاد إلى الفندق .

كانت الساعة التاسعة مساءً عندما عاد الجميع من
أعمالهم وجاءت شهناز وجلست بينهم . كانت تفتح
فستانها عن صدرها وبين حين وآخر كانت تمسك صدرها
وهي تنظر إلى الشيخ صفوك وهو يراقبها ويكاد ينفجر شوقاً
إليها .

وتحدثت شهناز عن فنانات جميلات سوف يرافقن
المجموعة هذه الليلة . فقام الجميع باتجاه الملهى .

هناك جلسوا على طاولةٍ عريضةٍ عليها الكثير من
أصناف الطعام والشراب . وهبت الفنانات لاستقبالهم
تقودهم شهناز . كن يرتدين ثياباً مكشوفةً ويتعطرن بعطور
نفاذة الرائحة . بعضهن لا يتحدثن بالعربية وانتهر الشيخ
صفوك فرصة اقتراب شهناز منه وهي تتحسس كتفيه .
وقال لها :

- ارجو ان تكوني من نصيبي هذه الليلة فأنا لا أريد
غيرك . ووعده شهناز خيرا بغمزة من عينيها . وبعد ان
دارت الحفلة وأخذ الجميع يشربون بغزارة همس الحجى في
أذن الشيخ صفوك :

- اطمئن سوف يجعلك سعادته نائبا في البرلمان هذا
ما قاله لنا . المهم ان ينتهي عهد الجنرال ليرتب سعادته
الامور كما يشاء . لكن الشيخ صفوك كان مأخوذا بضجيج
الاجساد والموسيقى من حوله . فلم يعر انتباهه للحجى .

الشيخ عبد الرحمن الذي بدا كبدوي بعد ان خلع
لفته وجبته في الفندق ، وارتدى العباءة والشاخ^(١)
والعقال ، غاب في حديث جانبي مع فنانة جلست الى
جواره وهي تبادلته الانخاب . ولم يطل الوقت بالحجى فقد
أخذ النعاس يدب في رأسه بعد الكأس الثانية . أما المختار
داوود ، فقد كان أشد يقظة من الجميع . كان يرى نفسه
وهو مختار المخاتير في المستقبل ، لا كما هو الآن .

في تلك الاثناء كان بيت جيهان في باب توما غاصا
بالضيوف . الكولونيل سيمون والمستر جان والكولونيل

(١) الشاخ : حطة على الرأس

أديب والجنرال سامي . كانوا يجلسون على طاولة القمار لكنهم كانوا قلقين مضطربين من اعمال المارشال . لقد اهلهم وأهانهم ظهر ذلك اليوم حيث أقام حفلة غداء في مقر قيادته دعا اليها كثيرا من ضباطه وطلب من الجنرال سامي ان يرقص على الطاولة .

لم يكن بوسع الجنرال أن يخالف أوامره فهو قائد الجيش ورئيس الدولة . عندئذ وقف الجنرال سامي ونفذ أوامر المشير بعد ان لف حول وسطه فوطة طعام . وأخذ يرقص على الطاولة التي كادت تتحطم تحت ثقله .

كان الكولونيل أديب يضحك كلما مر المشهد بذاكرته . وكانت جيهان تدير طاولة القمار وتوزع الورق بين اللاعبين .

قال الكولونيل بهيج :

- الغرور سوف يقتل مشيرنا . نحن نصحناه الا يسلم زعيم القوميين السوريين لكنه لم يستمع الى نصائحنا .

ونصح الجنرال سامي :

- الظروف الآن مؤاتية . وعلينا أن نتدبر أمره . ان

وضعه لم يعد محتملا . وسوف يحرقنا دون ابطاء .

ورد الكولونيل أديب :

- انه لن يستطيع أن يفعل ذلك . فليس له سوانا .

وكل شيء في وقته المناسب .

ودخل المستر جبارة الى المكان . وأخذ يناقش

الجميع حول مشاريع المشير وخطط وزارة المالية والاقتصاد

التابعة له .

كان المستر جبارة يشم رائحة نهاية المشير في الجو .

فخطط ليكون أحد اعضاء العهد الجديد . وهو يحاول

الآن أن يرتب أموره مع العسكريين الذين سيطيحون

بالمشير .

وقد طمأنه السيد هانس والكولونيل سيمون على

مستقبله وقال له انه سيكون في مركزه كيفما دارت الامور .

وجلس السيد جبارة الى جانب السيدة ميلر وهمس

في اذنها باللغة الفرنسية حديثا خاصا . بينما نظر الكولونيل

أديب اليه نظرة متحفظة فقد كان يخشى علاقات السيد

جبارة الخارجية ويكرهه شخصيا . عندئذ تحدث السيد

جبارة مع العسكريين فردا فردا بلهجة ودية وقال :

- أنا ووزارة المالية رهن أوامركم أما ما يتعلق
بالاتفاقيات فهذا شأن المارشال .

حاول أن يتصل من أعمال المارشال . وبدا كما لو أنه حمل
وديع أمام ذئب واتهم رئيس وزرائه بمسؤولية تنفيذ
الاتفاقيات . وقال :

- ان المشير قد يسمع النصيحة لكنه ينفذ قراراته
هو . وانتم تعرفون عقل المشير . انه يريد الحصول على
المال بأية وسيلة ولو كان في ذلك الضرر للمصلحة
الوطنية . يتوهم انه سيقوي البلاد ويطور الحياة ولكن
كيف ؟ هذه هي ورطة المشير .

* * *

بيت سلفا في باب توما شقة أنيقة ومرتبة ومعدة للقاء
عليّة القوم وأغلب الذين ينتمون للحركة الماسونية كانوا
يترددون على هذا البيت . بالاضافة الى ذلك كان يرتاده
السياسيون والعسكريون للعب القمار ولقاء محظياتهم .

كان المستر جبارة يتحدث مع السير جان والكولونيل
سيمون والأنسة ميلر . كانوا يتناقشون حول تأخير التوقيع
على اتفاقية النقد مع فرنسا . كانوا جالسين حول طاولة
أنيقة مستديرة وضعت عليها الكؤوس كيفما اتفق

وزجاجات البيرة المبردة بالثلج ، وكانت ميللر ترتدي
فستانا بدون اكمام وبدا نهداها الجميلان وصدرها ،
وجيدها الطويل ، وقد زينته بعقد انيق ولم يعرف بعد هل
هو من الماس أم من الخرز ، لكن علق عليه الكولونيل
قائلا : انت اجمل من كل العقود . فمالت عليه بغنج ،
قائلة :

- كولونيلي العزيز ، آخر الليل أنا أجمل .

وغير الحديث قائلا :

- تعبنا في سورية خمسة وعشرين عاما والشعب
يعرفنا . لكن لماذا فضلوا الامريكان علينا .
بينما كان السير جان يدخن بغليون عض عليه من جانب
فمه .

وقالت ميللر موجهة حديثها للمستر جبارة :

- لا تزعلوا فرنسا والفرنسيين . علينا أن نعمل
جميعا كفريق عمل واحد لتوقيع الاتفاقية خلال اليومين
الباقيين . أخشى أن يذهب الجنرال قبل أن يوقعها فالناس
بدؤوا يديرون ظهورهم لهذا النظام وأخذوا يتجهون نحو
فخامته وسعادته .

ورد المستر جبارة :

- أنا متأكد بأن الجنرال سيوقع الاتفاقية في مساء
/١٣/ آب وسوف تسجل في الجريدة الرسمية صباح
/١٤/ آب . الامور جاهزة على طاولة المشير . لا تخشوا
شيئا الاتفاقية سوف توقع . وأردف الكولونيل سيمون :
- الديمقراطية أفضل من الدكتاتوريات العسكرية .
في فرنسا نعرف ذلك جيدا . لكن هنا لا أحد يستطيع أن
يتكهن بشيء . ومع ذلك لا نريد أن نتدخل في الشؤون
الداخلية السورية .

وانتقلوا من الزاوية التي تحلقوا فيها الى الصالون .
حيث يتحلق الكولونيالات ويلعبون القمار ويسخرون من
الجنرال سامي الذي رقص على طاولة المشير .

وفكر الكولونيل أديب : ان المشير يحاول أن يقوي
الجيش وهو يقوم بأعمال أكبر من طاقته . انه يخطط كما لو
انه سيقود سورية عقودا من الزمن . ولا أحد يستطيع أن
يغيره بعد أن أحكم قبضته على الزعماء السياسيين فزج
بعضهم ونفى بعضهم الآخر . غير انه علم ان الحزب
العربي الاشتراكي وحزب البعث ، يزيدان التوحيد .
وبهذا سيتحولان الى قوة سياسية لا يستهان بها وعلى كل

انقلاب ضد المشير ان يضع في اعتباره هذين الحزبين .
فهما يضمّان العديد من المثقفين والكادحين ، وسوف يكون
لهما بين الجماهير شأن عظيم .

وانفرد الكولونيل أديب بالسير جان قليلا في الزاوية
وأخذا يتحدثان في قضايا الساعة والامور المتعلقة
بالاتفاقيات ، والصفقة التي عقدها المشير مع فرنسا لتقوية
الجيش . كان الحديث بينهما يدور بصوت منخفض بينما
أخذ الباقون يتحدثون عن الحرية والديمقراطية في فرنسا .
وعن الثورة الفرنسية على الملكية والاقطاع ثم عن أمجاد
نابليون وعظمة فرنسا الحضارية . وقال أحدهم :

- لكن الحرب العالمية الثانية حولت فرنسا في ظل
الاحتلال النازي الى ما يشبه دار البغاء .
وقالت السيدة ميلر :

- لكن المارشال ديغول أنقذها وأعاد اليها هيبتها .
وهي الآن تعتبر ملجأ لكل الفارين أو المنفيين من بلادهم
من الشيوخ والحكام والأمراء والسياسيين الثوريين . انهم
يستوطنون فرنسا وكأنها بلادهم . وأنتم أبناء الشعوب
المتخلفة عليكم الا تناقشوا في مثل هذه المسائل لانكم
لا تعرفون الحرية والديمقراطية ، ويكفي جنرال واحد

ليغتصبها منكم . انكم لم تتقدموا كثيراً رغم أنكم حصلتم على استقلالكم . واوضاعكم تحت الانتداب الفرنسي ، أفضل مما هي عليه الآن . لقد جاء المشير وقام بانقلابه واصبح ديكتاتورا . نحن لا نقبل هذه الاشكال من الحكم لدينا برلمانات ومؤسسات يخضع لها رئيس الدولة . عليكم ان تقنعوه بأن يعدل من قراراته وأفعاله ، ويعيد البرلمان الى ما كان عليه سابقا .

كان الجنرال سامي يعتبر قضيته مع المشير قضية كرامة شخصية أكثر منها سياسية . فقد أهانه أمام مرؤوسيه ، وكان لابد أن يسترد كرامته . فلم يعلق على حديث السيدة ميللر . أما الكولونيل بهيج فقد حاول ان يخفف من حدة الانتقادات فقال :

- المشير رجل طيب . سوف ننصحه وقد يتراجع .

كان الكولونيل بهيج يعتقد أن أيام المارشال اقتربت لأن ضباط الجيش استأؤوا من تصرفه ، وكذلك بدأ التذمر عاما من الجماهير التي صفقت له ، فقد ادرات له ظهرها الآن .

ولم يفهم الحاضرون كلمات الكولونيل بهيج . فقد بقي ثمة كلام لم يقله ، فأوقع ذلك السامعين في حيرة بين

الجدية والتهكم . لكن الجنرال سامي شعر أن حديثه
ولهجته عن المشير تحمل لغمًا . وانه يرتب الامور للتحرك
ضد المشير بعملية انقلاب . وكان للكولونيل بهيج رأي
خاص بالقوات المسلحة . وقد كان مسيطرا على ضباطه
فهم يطيعونه ولا يرفضون له أمرا .

بدأ الحزب القومي السوري يغزو بأفكاره ضباط
الجيش ، وهؤلاء سوف ينتقمون من المشير لقتل زعيمهم .
ولن يدخروا فرصة ليطيحوا بالمشير .

ان مقتل زعيم الحزب القومي السوري بلبنان بعد
ان سلمه المشير الى السلطات اللبنانية جعل افراد هذا
الحزب يعدون العدة للانتقام منه ، وقد عبروا عن ذلك
بمناشيرهم التي كانت توزع سرا وسوف يكون الانتقام كما
يبدو دمويا .

وضحكت سلفا قائلة :

- كان دبي الصغير يلعب على هذه الطاولة . لكنه
اصبح كبيرا فلم نعد نراه ، أصبح رجل دولة .

كانوا وهم يلعبون الورق ويحتسون الكحول
يتحدثون ويفكرون بمصالحهم الشخصية فالكولونيل اديب

كان يفكر بالوصول الى السلطة والحلول محل المشير . فكر أن عليه أن يراقب كل الاخطاء التي وقع فيها المشير حتى لا يقع هو فيها مستقبلاً . فالأحزاب كثيرة في البلاد وعليه ان يستثمرها لأجل هذا الهدف . أما الفرنسيون وعملاؤهم فسوف يساعدونه . فكر كيف يسخر الحزب العربي الاشتراكي ليعمل لصالحه ؟ خاصة وان زعيمه من أقربائه من ناحية أمه . فكر في كل ذلك وهو يلعب الورق ويلقي بين حين وآخر احدى النكات .

كما يعرف ان للكولونيل بهيج أطماعه في أن يصبح قائدا عاما للجيش . وهو صديقه وابن بلده وتجمعها صداقات محلية لكن اطماع الكولونيل أديب كانت اكبر من اطماع الكولونيل بهيج لأسباب مذهبية فالكولونيل من عائلة مسيحية وله علاقة مع المطران والبطريرك ومع فرنسا بينما الكولونيل أديب من عائلة مسلمية ارناؤوطية . لذلك كان الكولونيل بهيج يحاول مساندة الكولونيل اديب لأنه يشعر بأن له اطماعا سياسية ومستقبلية .

كل منهما يفكر : ماذا يجني اذا ازاح المشير من الطريق ؟ فالمشير غدا كابوسا ثقيلًا على الجميع والجميع يريدون الاطاحة به بكل السبل . لكن من سيكون

المستفيد الأكبر من تغيير المشير؟ الجنرال سامي أصبح
حاقدا حقدا لا حدود له على المشير، ومع انه ليس له
اطماع في السلطة لأن ثقافته محدودة، الا انه كان يحقد على
المشير ورئيس وزرائه الذي اتهم عديله بسرقة سجادة من
القنصلية السورية في طهران وسرحه من الخدمة. ولقد
تضافرت مع هذه الخطيئة الالهانة التي وجهها المشير
شخصيا له.

لقد جمع الحقد هؤلاء الضباط، واشتركوا دون ان
يشعروا بالعمل على التهديم والاطاحة بالمشير دون أن
يدري أحدهم ما يفعله الآخر.

أما الكولونيل سيمون فكان يفكر بأن على المشير أن
يوقع بقية الاتفاقيات. كان يعرف ما يدور في نفوس
الجميع وكلهم يتوددون اليه لأنه في اتصال دائم بالقنصلية
الأمريكية والبريطانية في دمشق ويعرف خفايا الامور.
وكان بينه وبين هذه القوى تنسيق كامل حول القضايا
والصفقات المتعلقة بالتنقيب عن البترول والزيوت
والنقل. كان الكولونيل سيمون الرجل المؤهل لمثل هذا
الدور. وله الحق بالاتصال بأي ضابط أو مسؤول سوري
دون رقابة، ذلك ان الكولونيل اديب هو القائم على

جهازى الاستخبارات والشرطة العسكرية . مع الكومندان ابراهيم ، اللذين تربطهما بالكولونيل صداقة قديمة .

وكانت ميلر الاداة التي يتحرك من خلالها . فهي تقيم في سورية منذ شهرين ونصف وتتنقل بين بيروت ودمشق . لنقل المعلومات والأوامر بين العملاء والمخططين .

أما سيلفا فقد كانت تقود لعب القمار وتأخذ حصة كبيرة لتأمينها أجواء اللعب الملائمة ، وتأمين الفتيات لضيوفها . فقد كانت في بيتها ثلاث غرف نوم بستائر حمراء ، يجمعها حمام واحد ، فالذي يرغب بالاختلاء بفتاة يفعل ذلك في جو من الراحة والخدمة الممتازة .

كانت سيلفا تؤمن بالوفاء لجميع الاصدقاء القديمين والحديثين طالما انهم كانوا ذات يوم مسؤولين سياسيين . وهي تعلم ان السياسة مثل دولاب يتحرك باستمرار ، فمن له يوم يكون عليه يوم ثم يعود ليكون له يوم آخر وهكذا . . .

كانت تسأل باستمرار عن سعادته وترسل له الورد ، ومن يطمئنه على مصير الامور . لقد عمل

والدها في هذه الخدمات طيلة ربع قرن فوالدها تعرف
المستشارين الفرنسيين والتجار السوريين وجميع الرجال
الذين تبادلوا سدة المناصب والمسؤوليات . وقد كان
أغلبهم يزور بيتها . ولم تكن تؤمن بالفوارق المذهبية ،
لتبدو دائما فوق النزاعات الصغيرة وهي لهذا كثيرا ما كانت
ترسل المعونات والهدايا لشيوخ الجوامع ورجال الكنائس
في وقت واحد . وتربطها علاقة قوية بالمطران والمفتي وكثيرا
ما دعتها الى بيتها في الفترات التي كانت تمر فيها احداث
عصيبة . وابنتها سيلفا الشابة لا تقل عن أمها ذكاء .

كانت ابنتها سيلفا ترى العالم محصورا بالمال
والجنس . وكانت الغيرة تقتلها من جيهان التي يرتاد
السياسيون وآخرون بيتها ، فلا هم لهم الا أن تكون
انشط منها واكثر ذكاء لتحصل على النفوذ والجاه لدى
المسؤولين .

كانت تدير بيتها كما تتعامل مع الحياة تماما . فهي
تعلم خطاياها وتحاول دائما طلب المغفرة بهداياها وعطاياها
لرجال الدين والجمعيات الدينية . ولم يكن لأحد ان يتجرأ
ويسألها عما تفعله أو تريد أن تفعله ، لأنها سرعان ما تحسم
الأمر بحرمانه من جنتها . وكثيرا ما قدمت للنادي الماسوني

الذي يجتمع فيه كبار القوم ورجال المجتمع الكثير من الخدمات والتعاون المشترك . خاصة عندما ضاقت قرارات المشير الجميع واعترض النادي الماسوني على المشير تدخلت بثقلها كي يتراجع عن بعض القرارات التي أصدرها .

بيتها مفتوح دائماً أمام الضيوف الكبار . وكانت تغلقه كل يوم الساعة السادسة صباحاً لينعم سكانه وزواره بالهدوء والنوم . ثم كانت تستيقظ بعد الظهر لتستقبل فتياتها من دار البغاء وملاهي دمشق الليلية .

* * *

في الصباح عندما عاد الكولونيل أديب الى بيته وجد المختار داوود في انتظاره على رصيف الشارع . كان يريد ان يراه ويطمئن على مستقبله . ولقد عرفه الكولونيل منذ اللحظة الأولى فضحك واحتفى به . قال له ان زوجته اعلمته بوجوده في دمشق . وبعد حديث هامشي عن بعض التفاصيل اكد له الكولونيل أديب بأنه يخطط له بأن يكون وكيلاً ومختاراً في قريته في آن واحد وأثنى على شجاعته وذكائه .

وقال : سوف أسميك وكيلاً بدلاً من المختار لأن

الزمن القادم هو زمن الوكلاء .

بينما كان المختار داوود مثل الكلب الأليف الذي يسير خلف صاحبه يريد ان يسمع كل كلمة من الكولونيل الذي يتحدث اليه بصوت هادىء .

وقال الكولونيل للمختار داوود :

- اذهب الى القرية واطمئن ومنذ هذه اللحظة تستطيع أن تعتبر نفسك وكيلا . ولا تخف من أحد . بل ازرع الخوف في قلوب الجميع . واخبرني عن كل ما يحدث .

وبدت السعادة على وجه المختار داوود . فطمأنه هو الآخر عن حالة القرية والموسم والفلاحين .

وقال الكولونيل وهو يلتفت الى المختار داوود :

- كن (قبضاي) . سوف اعتمد عليك في تلك المنطقة ويجب أن تنذر شيوخ البدو بالحضور اليك مع هداياهم .

وودعه المختار داوود باحترام فائق وغادره وكله ثقة بالمستقبل الكبير الذي ينتظره . لقد ألقى عليه مهمة ينتظرها ويتمناها منذ زمن بعيد . وقد اتفقت المصلحتان

في هدف واحد .
عاد الى فندق الازهرام ووجد المختار أبو حميدة ينتظره
في الصالون .

كان المختار داوود غارقاً في أحلامه . وكان يوطن
نفسه على ان يكون سيد المنطقة ويتزوج حميدة بأي ثمن .
سيكون قويا بمساعدة الكولونيل اديب وسيقوم بكل المهام
المطلوبة منه ، وربما اذا رفض المختار أبو حميدة فانه سيغيره
لأنه سيكون لديه القدرة عندئذ على خلع المختار
وتعيينهم . ولن يكون عندئذ للاقطاعيين سوى آراء
هامشية امام سلطة العسكريين . لقد علمته التجارب بأن
المستقبل للعسكريين واليوم الكولونيل اديب هو اليد اليمنى
للمشير وغداً من يدري ربما حل محله .

كان يحلم بالحفلات الصاخبة حيث يأتي الشيوخ
والمختار والوكلاء مع هداياهم الثمينة . وسوف يجلب
الفجر ليظلوا يرقصون ويغنون ليل نهار . وعاد بخياله الى
ليلة أمس عندما رافقته فتاة جميلة وظلت تداعبه طيلة
السهرة ونام معها في فندق الازهرام ، حيث دفع الشيخ
صفوك النفقات .

وتذكر الشيخ عبد الرحمن وفحشه مع امرأة كانت

تمد يدها الى فخذيهِ وتستثير همته . لقد التصق جسمها
بجسمه وهو يرتعد من الشوق والرغبة . أما الشيخ صفوك
فقد كان محترفا . لقد اعتاد ارتياد مثل هذه المحلات وقد
بدل امرأتين في السهرة ذاتها وكانت شهناز التي تدور حوله
لتؤمن طلباته، تعرف كرمه فعندما طلب امرأة اعجبته من
طاولة ثانية افهمته بأن عليه عندئذ أن يدفع حساب
الطاولة التي تجلس عليها ، ففعل ذلك بكل كبرياء
وشهامة .

الشيخ صفوك حصر فكره في أمر وصوله الى عضوية
البرلمان واستعراض الطرق التي توصله وعندها سوف
يصبح الرجل الأول بين عشائره بدلا من الشيخ حمد ،
لا يهم صرف النقود فأنصاره في العشيرة يدفعون له الكثير
المهم ان يصل وكما قال المثل (الحمل على الجماعة
خفيف) .

أما الحجبي فقد كان يجلس يأكل ويشرب ويفكر بأمر
غلاديس والاسعار والارباح . وبين حين وآخر يرفع
الكأس في نخب الشيخ صفوك الذي وضعه منذ اللحظة
الأولى الضحية التي ستدفع تكاليف السهرة الباهظة .
وفي نهاية السهرة غادروا الى فندق الاهرام وكل في

غرفة مزدوجة له ولمحظيته . الشيخ صفوك كان يقظا
عندما لاحظ نهوض الشيخ عبد الرحمن الى صلاة الفجر .
لقد سمع الأذان قويا في هدأة الليل . ولم ينم الا قليلاً
فتوضأ ومدّ له أبو العز سجادة الصلاة وحدد له القبلة ، ثم
دعا الخادم سمير والحارس لصلاة الجماعة .

لقد كان قلبه في تلك اللحظات مليئاً بالعاطفة
الصادقة طالبا الغفران من الله على خطايا هذه الليلة
وقبلها . وكان مطمئناً الى غفران الله لأنه يعمل الحسنات
والسيئات محاولاً ان تكون حسناته أكبر وأكثر ليحظى
بالغفران عن جدارة .

بعد الصلاة جلس الحارس مع أبو العز وأخذ يتحدث
عن بيوت الأغنياء وما يحدث فيها من فضائح . كان يعرف
الكثير عن تنقلات بنات وزوجات الاسر العريقة في الليل
من بيت الى آخر طلباً للمتعة والفجور . وكثيراً ما قدمن له
بعض النقود ليحفظ اسرارهن . وكان الحارس يقبل
نقودهن لأنه يريد أن يعيل اسرته فيطعم ابنائه ويكسو
جلودهم بالثياب فالراتب الحكومي لا يكفي لذلك . وقد
اضطر الى تشغيل ابنائه وهم في سن الطفولة في المعامل
والحرف ليعينوه على مواجهة الحياة وتكاليفها .

كان أبو العز يضع الطربوش على رأسه منذ الصباح . ويستقبل زبائنه بابتسامة معهودة من تحت مبرسم النرجيلة . من غير النرجيلة لا يستطيع أن يتنفس . وقد نقل عاداته هذه الى بنات الملاهي اللواتي يزرن أو يقطن في الفندق .

وفي الصباح كان يأتي أبو نعيم ليمسح أحذية الزبسن . كان قارئاً للكتب ومحدثاً بارعاً . عندما دخل في ذلك الصباح وجد الجميع حول أبو العز يشربون الشاي . فاندفع الى عمله بحماسة وهو يمسح الاحذية أخذ يحدثهم عن رواية لمكسيم غوركي بعنوان «وراء الرغيف» وهو العنوان الذي لم يفهمه الشيخ عبد الرحمن . أو الشيخ صفوك فسألاه عن معناه .

فأجاب : هذا يعني أولئك الذين يعملون من اجل رغيف الخبز .

وضحك الشيخ عبد الرحمن وقال :

- عندما يشبهون وجه المرأة الجميلة برغيف التنور .

وضحك أبو العز وقال :

- لكن وجه شهناز مثل رغيف «صمون» . فهو

مكتنز لكن شيوخ العشائر يعشقون المرأة السمينية .

فضحك الجميع . ودخلت شهناز في تلك اللحظة .
وعلمت بما يدور بينهم فضحكت هي الأخرى وسألت
معقبة على حديث أبو نعيم :

- ومن قرأ منكم رواية «رجوع الشيخ إلى صباه» ؟

لم يكن الشيخ عبد الرحمن يعلم شيئاً عن هذه الرواية لكنه
تكهن من عنوانها بأنها تعني أشياء بذيئة . وضحك قائلاً :

- ليغفر الله لك يا شهناز . وما هي هذه الرواية .

وتحدثت شهناز بخجل مصطنع عن بعض مشاهد الرواية
فحفزت النفوس إليها . لكن الشيخ صفوك علق قائلاً :

- لا يغشك شكل الشيخ عبد الرحمن . فهو

لم يتجاوز الخمسين بكثير . ولو أراد لجعل كل بنات الملهي
يقفن بالدور أمام غرفته «إنه فعل» .

وشد الشيخ عبد الرحمن ثيابه ومطّ عنقه معترأ بفتوته
المتأخرة .

وتدخل أبو نعيم في الحديث محاولاً أن يعود إلى الحديث
عن رواية ما وراء الرغيف . وقال إنها رواية تتعلق
بالفقراء .

وقاطعه الحجي صائحاً وهو يشير بيده ، وينفث دخان

نرجيلته .

- الفقراء ؟ الفقراء ! يبدو أن العربي الإشتراكي

وصل إلى فندقك يا أبو العز .

يحدثوننا عن الفقراء وزعيمهم في الحزب من الإقطاعيين .

أليس هذا المدعاة للسخرية ؟ يا أبو نعيم سلم لي على

الإشتراكية والإشتراكيين إذا رأيتهم في الطريق . نحن في

الوقت المناسب إشتراكيون من هذا النوع . نشرب الشاي

سويةً وونام سويةً ونزور الملهى سويةً فأى إشتراكية أفضل

من ذلك ؟

وقال الشيخ صفوك :

- نحن البدو إشتراكيون بالطبيعة . فأنا الشيخ

أجلس في المضافة مع الرعاة وأشرب الشاي مع أقل الناس

قيمةً وقدرًا . وفي الغزو يركب الجميع الخيول للقتال ،

لا يوجد بيننا صغير وكبير . ونساؤنا جميعاً يجلبن الغنم

والماعز إننا قطع متجانس . ولكن لا بد لكل قطع من

رأس يقوده . فمن غيره لا تستطيع المواشي السير ، ودون

أن تسمع أجراس المريع^(١) لا تعرف كيف تتصرف .

(١) المريع : الكبش من الغنم الذي يسير خلف الراعي وفي رقبة جرس

لانذار القطيع .

وقال الشيخ عبد الرحمن :

- لا تناقش يا أبو نعيم بهذه الروايات . كن في أكل
عيشك فقط .

وأعلن الحجي رغبته في الذهاب إلى بيروت وأوضح أنه
يريد مرافقة الشيخ صفوك وحده . كان يخشى أن يعرف
الآخرون شيئاً عن أسراره في بيروت ، كما فعل الشيخ
سعدو عندما رافقه إلى دمشق . فما أحب أن يرافق سوى
الشيخ صفوك الصموت والذي لا يهدف إلى شيء سوى
الوصول إلى البرلمان . والبدو يحفظون الأسرار وهم
كتومون إذا كان لهم في الأمر مصلحة .

وتذكر أن عليه أن ينبه الجميع ليحتفظوا بأسرارهم
كلها خصوصاً ما يتعلق منها بسهراتهم في الملاهي ومع
بنات الهوى .

لكن أبو العز ، أكد أن هذه الأمور من حرية الإنسان .
وفرنسا التي تعتبر أم العالم الحر تجري فيها هذه الأمور على
طبيعتها دون أن يحاسب أحد الآخر .

ولكن الحجي قال :

- إن مجتمعنا يختلف عن مجتمع فرنسا . وقد قال

الرسول الكريم عليه السلام :

«إذا ابتليتم بالمعاصي فاستروا»

وأردف الشيخ عبد الرحمن : «إن الله غفور رحيم»

وعلق أبو نعيم : «إن الله شديد العقاب»

وهز الحجي برأسه وهو ينهض ويغادر المكان مع رفيقه
الشيخ صفوك حيث استقلا السيارة إلى بيروت .

كان عقل الحجي في طريقه إلى بيروت يعمل
كحاسب آلي . لديه الكثير من الأرقام والحسابات والمواد
التجارية ، الجلود والحبوب واللحوم حتى لحوم الخنازير .
جميع مدارء المحطات وزوجاتهم يعرفون الحجي على
حقيقته كان بخيلاً لا يهدر المال ولا يبذر فالله كما يقول :
لا يحب المبذرين . وهو لهذا كثيراً ما يصطحب في رحلاته
شخصاً أو شخصين ليدفع تكاليف السفر والسهر .

كان الشيخ صفوك يتأمل منظر الجبال الخضراء بعد
الحدود التي لم يتوقفوا عندها كثيراً . فالحجي لديه في كل
مكان معارف يصلحون لخدمات من هذا النوع . في حين
أخرج من جيبه دفترًا ووضع النظارة على عينيه أخذ يسجل

وَيَدَقُّ أَرْقَامَ الْحَسَابَاتِ وَالصَّفَقَاتِ الَّتِي سَيَجْرِيهَا عِنْدَ وَصُولِهِ .

وَوَصَلَا إِلَى مَكْتَبِ الْيَاسِ عِنْدَ الظَّهيرةِ . فَدَعَاهُمْ هَذَا إِلَى الْغَدَاءِ فِي فَيْلَتِهِ فِي جَبَلِ لُبْنَانَ . وَذَهَبَا فِي الْمَوْعَدِ الْمَحْدَدِ فَوَجَدَا غَلَادِسَ مَعَ رَفِيقَاتِهَا فِي هَذَا الْمَصِيفِ الْجَمِيلِ وَأُمُّهَا لَا تَزَالُ أَجْمَلُ مِنْهَا قَالِ الْحَجِي . فِي الْحَدِيقَةِ أَشْجَارُ وَوَرُودٌ وَمَسِيحٌ جَمِيلٌ ، وَإِلَى جَوَارِ الْبَيْتِ يَرْتَفِعُ بَرَجُ كَنِيسَةٍ قَدِيمَةٍ . وَعَلَى الْغَدَاءِ اجْتَمَعَ ضَيْوْفٌ كَثْرٌ يَعْرِفُ الْحَجِي أَغْلِبَهُمْ . قَالَتْ أُمُّ جَيْسَكَارَ مَرْحَبَةً بِالشَّيْخِ صَفُوكَ :

- لُبْنَانَ نَوَّرَتْ .

وَأَخَذَ الضَّيُوفُ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ الْبَدْوِ وَكِرْمِهِمْ وَرَجُولَتِهِمْ .

بَيْنَمَا جَلَسَ الْحَجِي مَعَ الْيَاسِ عَلَى طَاوِلَةٍ جَانِبِيَّةٍ يَتَفَاوَضَانِ فِي الْعَمَلِ .

وَتَحَدَّثَ الشَّيْخُ صَفُوكَ عَنِ رَغْبَتِهِ فِي شِرَاءِ صَفْقَةٍ مِنَ الْأَسْلِحَةِ الْفَرْدِيَّةِ لِأَفْرَادِ عَشِيرَتِهِ فَأَكَّدَتْ أُمُّ جَيْسَكَارَ أَنَّ كُلَّ مَا يَرِيدُهُ مَوْجُودٌ وَمَتَوَفَّرٌ .

وحضر الخوري على جناح السرعة . واتفق مع الشيخ صفوك على عدد الاسلحة وأسعارها ، بينما تكفل الحجى بارسال المبالغ اللازمة بعد وصول الشحنات الى مكانها في سورية .

كان الخوري وهذا ما يعرفه الحجى جيدا ، سيد من يشتري ويبيع الاسلحة . من المهريين المحترفين في لبنان كلها . وأم جيسكار هي جزء من شبكته في ذلك وغطاء لنشاطاته كي لا يقال ان الخوري تاجر اسلحة . وهو يجيء الاسلحة في مستودع الكنيسة القديم . بين زجاجات المشروب والنيذ المعتق .

ودعت أم جيسكار ضيوفها الى السباحة في المسبح ، فمنهم من اعتذر ومنهم من جلس مع النساء . وقد أغدق على الشيخ صفوك آيات المديح .

- انه اكرم شيخ شاهدناه هكذا قالت كладس وهي تلبس المايوه . وقد زاغت عينا الشيخ صفوك وهو ينظر الى رديها .

كان ينظر الى غلادس ويتملى جسدها وجمالها وحيويتها التي لم تتأثر بمرور الزمن .

تذكرها قبل تسع سنوات عندما زارته في منطقة السلمية مع المستشار الفرنسي وبنات أخريات . لقد ذكرته بالحفلة وسباق الخيول كانت تتحدث للاخرين عن كرم الضيافة والتقاليد العربية الاصيلة . والشيخ صفوك يصغي اليها بكبرياء ، ويؤكد بين حين وآخر : نعم هذه هي عادات العرب . ولن أنسى أبداً أن أرسل لك يوم عودتي غزالا لتربيته في حديقتك فمنظره عندك سيكون أجمل .

كان الحجبي يتحدث مع الياس وقد نسي ما يدور حوله . كانا يتفقان على التوريد والاسعار . بينما تفاهم الشيخ صفوك مع الخوري على ارسال شحنة من الاسلحة الى السلمية . مقابل ان يرسل الشيخ صفوك له النقود مع الحجبي وقد تعهد الياس بذلك وبتأمين طريق تهريب الاسلحة الى السلمية .

أعجبت غلادس بشخصية صفوك ذات الطيبة والكبرياء المكشوفة . كان طويل القامة لا يكتمل مظهره العام الا بظهور المسدس فوق ثيابه .

عاد الحجبي والشيخ صفوك الى دمشق بعد يومين امضياهما في الحسابات والسهر . وكانت حرارة الجو

مرتفعة . ومنذ وصولها جاءتها الانباء عن تعقيدات بين المشير ورئيس وزراء لبنان حول الأمن بين الدولتين الشقيقتين . وعلق رئيس الحكومة السورية : ومن أين لنا كل يوم بزعيم حزب نرسله الى لبنان حتى نرضي حكومته . كانت اوضاع الحدود بين الدولتين تتعقد وبدأت المشاكل الداخلية في لبنان تتصاعد بسرعة غير متوقعة .

لم يجد الحجي احدا فانتظر رفاقه .

كان الشيخ عبد الرحمن عند المفتي في دار الافتاء وقد تحدث معه عن بعض القضايا الراهنة وشرح له المفتي عن الطرق والوسائل التي يجب ان تكافح بها الاشتراكية والشيوعية وانصارهما . أما ما يتعلق بقضية فلسطين فهذا شأن المسلمين جميعا . ووقتها قد يطول .

أما المختار أبو حميدة فقد كان يتسكع في الشوارع مع المختار داوود ينتظران عودة الحجي . كانا يسهران في ملهى الكروان في غياب الحجي ، ثم يعودان الى الفندق ليتحدثا مع النساء الزائرات . وأبي العز وأبي نعيم والحارس . كانوا يتبادلون الاحاديث مع الناس لتمضية الوقت ليس أكثر .

في تلك الاثناء انتهز الحجي غياب رفاقه وذهب الى
خانات العاصمة ليعرف منها أسعار المحاصيل الزراعية في
حوران وجبل العرب . وتقديراتهم للموسم الحالي . وعاد
الحجي عند الغروب فاستقبلته فتيات من الملاهي ينتظرن
فرائسهن ، من البكاوات وشيوخ القبائل ونواب البرلمان .
وقدم الخادم الشاي والاراكيل .

بينما كانت شهناز تدير حلقة صغيرة من الفتيات .
وصل عدد من البكاوات وشيوخ القبائل ونواب سابقون كما
وصل المفتي والخوري والمطران وبدأ النقاش حاميا حول
الاتفاقيات والمشير وقراراته . كانت شهناز تدخن النرجيلة
وتنفخ في وجوه الحاضرين في حين بدأت الفتيات
بالاقتراب من الرجال ، وأخذن يهمسن في آذانهم
ويضحكن ضحكات عالية تشوش الاحاديث العامة التي
تدور في الصالة . ولقد اتفق الجميع على ان المشير حصر
كل شيء بشخصه . بينما كانت الجرائد السرية للمعارضة
تنشر فضائح المارشال وتكشف مخاطر الاتفاقيات التي
وقعها . واتفقوا على انه كاذب وان الشعب غير راض عن
سلوكه . ولذلك امتلأت سجونته بالمعتقلين السياسيين
الذي ينتقدون سياسته .

كان الحجي متعبا فرفض الذهاب الى الملهى .
وبقي معه المختار أبو حميدة . جاء أبو العز ودارت كؤوس
الشاي ، وذهب الآخرون الى ملهى الكروان مع شهناز
وفتيات أخريات .

* * *

عقد المشير اجتماعا في مساء ذلك اليوم مع الدكتور
محسن بعد الحادية عشرة ليلاً . واتصل بجلالة الملك فاروق
في القاهرة ليطمئنه على ان الامور تسير بسلام . وفي حوالي
الساعة الثانية صباحا كان الدكتور محسن ما يزال عند
المشير يتداولان الرأي بالأوضاع بعد ان وقعت اتفاقية النقد
مع فرنسا . بينما انسحب المستر جبارة من الاجتماع في
الدقائق الاخيرة . وبقي المشير والدكتور محسن في غرفة
القيادة العامة حيث دخل الكومندان ابراهيم والجنرال
سامي . وعدد من الشرطة العسكرية والقوا القبض على
الاثنين . كانت هناك تعليمات من الكولونيل اديب
بسجنها لكن بعض الضباط الصغار الذين ينتسبون الى
الحزب القومي السوري زجوهما في سجن المزة

كان الحجي متعبا فرفض الذهاب الى الملهى .
ويقى معه المختار أبو حميدة . جاء أبو العز ودارت كؤوس
الشاي ، وذهب الآخرون الى ملهى الكروان مع شهناز
وفتيات أخريات .

* * *

عقد المشير اجتماعا في مساء ذلك اليوم مع الدكتور
محسن بعد الحادية عشرة ليلاً . واتصل بجلالة الملك فاروق
في القاهرة ليطمئنه على ان الامور تسير بسلام . وفي حوالي
الساعة الثانية صباحا كان الدكتور محسن ما يزال عند
المشير يتداولان الرأي بالأوضاع بعد ان وقعت اتفاقية النقد
مع فرنسا . بينما انسحب المستر جبارة من الاجتماع في
الدقائق الآخيرة . وبقي المشير والدكتور محسن في غرفة
القيادة العامة حيث دخل الكومندان ابراهيم والجنرال
سامي . وعدد من الشرطة العسكرية والقوا القبض على
الآثنين . كانت هناك تعليقات من الكولونيل اديب
بسجنهما لكن بعض الضباط الصغار الذين ينتسبون الى
الحزب القومي السوري زجوهما في سجن المزة

الوعود التي وعد بها الشعب حول الحرية وحول قضية فلسطين . وان عهده لم يكن شرعيا فتسلط على الشعب . ولذلك يدعو الانقلاب الجديد الى حياة برلمانية جديدة ، تعيد للحكومة شرعيتها وللبلاد حريتها .

لم يكن الكولونيل اديب يتمنى قتل المشير . وهو الذي صاغ البيان ولم يغير فيه الجنرال سامي شيئا . فالجنرال حقق أمنيته في ازاحة المشير لانه أهانه ذات يوم . وهذه كل غايته من الانقلاب . فلم يتدخل في التفصيلات وترك الامور للشرطة العسكرية والامن . وجمع الكولونيل اديب الضباط الذين قاموا بالتنفيذ وقرأ عليهم البيان . في الرابعة صباحا كان كل شيء قد انتهى بينما كان ملهى الكروان يضح بالموسيقى .

عاد زوار الملهى الى فندقهم ، ودخلوا غرفهم وناموا دون ان يلحظوا نشاط الجنود في الشوارع وكان الحارس على الباب والمجنون قد بدأ بجولته التي يصرخ فيها «باعوها . . . باعوها . . .» حتى جاء بعض جنود الشرطة وابعدوه .

الشيخ صفوك قضى ليلة حارة مع شهناز . فلم

يستيقظ مع الاخرين . وكان أبو العز قد اتى مبكرا الى الفندق قادما من بيته . وعندما نظر من النافذة رأى حركة غير عادية . وكان الحجى هو الاخر يراقب من نافذة الفندق النشاط الحذر في المنطقة . فعاد بذاكرته الى خانة في حماه والى الاجتماعات والمظاهرات التي حدثت في السنوات الاخيرة .

وفي الساعة السادسة فجأة انطلق من الراديو الضخم الموضوع على طاولة في زاوية صالون الفندق مارش عسكري بدلا من البرامج الصباحية المعتادة . وكان هناك حادثاً خطيراً قد حدث . فتجمع الجميع في الصالة يصغون بحذر ويتساءلون عما حدث .

كان الجميع مضطربين قلقين . واستيقظت الفنانات وجئن من غرفهن بثياب النوم ونهوهن المتديلات الرخوات من كثرة اللعب بهن يهزرن صدورهن . بعد أن سمعن الموسيقى العسكرية التي تنبىء عن حدث سياسي هام . وتساءلوا في همس : ما هذا ؟ ماذا حدث ؟ ومن النوافذ رأوا الجنود بقبعاتهم الحمراء يجوبون الشوارع .

وجاء أبو العز وصاح :

- ثمة شيء يحدث . سألت الجنود فلم يجيبوني .

وقال الحارس الليلي :

- لا شك هناك شيء يدور في البلد .

بدأ الضياء يزحف طارداً الظلام وازرق الأفق وكان الأذان يقام من مساجد دمشق بأصوات ضعيفة ونهض الشيخ عبد الرحمن للصلاة . حيث توضأ ، قائلاً يا غفور يا رحيم ، امحُ ذنوب عبادك واغفر لهم .

وغاب الحجبي في مشاغله الدائمة : هل يحدث شيء يهدد بيع الموسم وتحصيل الديون ؟

أما المختار داوود فأخذ يترقب بحماسة الأخبار ، لأنه شك بأن الكولونيل يمكن أن يكون قد فعلها وارتفع إلى قمة السلطة .

أما شهناز فقد تساءلت عن مصير دهبها الصغير وهي تتضرع ألا يحدث له مكروه رغم كل جفائه .

وقطع الراديو أفكار الناس . عندما أعلن المذيع عن نداء موجه للمواطنين . وساد الصمت . والتفت الجميع حول المذيع . بينما وضع الحجبي يده على أذنه كي يسمع جيداً .

واحمر الأفق حيث بدا كل شيء واضحاً في الشوارع
واختفى الظلام نهائياً .

وعاد المارش العسكري من جديد ، ثم قطعه المذبح
بإعلان البلاغ رقم (١) . كان البيان يعلم الناس بالقيادة
الجديدة التي حلت محل القيادة القديمة . على الصورة ذاتها
التي كانت تصاغ بها البيانات السابقة لانقلابات سابقة .
فصاح الحجي :

- كلما جاءت أمة لعنت أختها . لقد سمعنا مثل
هذا البيان من قبل . قبل أربعة شهور ونصف وفي هذه
القاعة وفي مثل هذا الصباح سمعنا الكلمات ذاتها .
وفكر المختر داوود : إنه الكولونيل وصاح :

- هات الشاي يا أبو العز ودعنا نسمع في هدوء .
كان الجميع مع هذا قلقين . من هم أصحاب الانقلاب
الجديد ؟ صحيح إن البيانات موقعة باسم الجيش والقوات
المسلحة . لكن من هو الزعيم .

نهضوا جميعاً مغادرين الفندق إلى مراكز السيارات
والقطارات ليعودوا إلى قراهم . بينما بقيت شهناز شاردة
مع فتياتها . ماذا حل بالمشير دبي الكبير .

واشتدت حركة الشارع أكثر فأكثر . ومرت دوريات الجنود
بغزارة فصاح أبو العز : انقلاب وأذاع الراديو بياناً يمنع
التجول في ١٤/٨/١٩٤٩ اعتباراً من الساعة السادسة
وحتى إشعار آخر .

كان الحجى مبهوتاً ، وشرد في تجارته وأرباحه .
وأسرع النواب والمختير والشيوخ إلى محطة القطار وهم
يتعثرون بأفكارهم وماذا سيكون ؟ هذا هو السؤال الذي
منعهم من توديع بعضهم بعضاً .
بينما جلست شهناز والمومسات حول المذياع مع أبو
العز وسمير وأبو نعيم .

سمع صوت المجنون يصرخ باعوها - الآن باعوها . . .
بدا قرص الشمس شاهداً على يدور في هذا الكون
من ظلم وقهر وفجور يحيط بالبشر .
وأردف المجنون وهو يصيح :

أيها الناس تذكروا قوله تعالى :
«وترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمرّ مرّاً السحاب»
- الدنيا مقلوبة والغد أفضل .



تبعاً من حياة الكاتب

محمد إبراهيم العلي

ولد الكاتب محمد إبراهيم العلي عام ١٩٢٤ في إحدى قرى منطقة السلمية التي تقع في شرق مدينة حماة. وعاش فيها طفولة اتمت بعدم الاستقرار وقسوة العيش. وهكذا لاحقه قدر عائلته الذي لم يستقر بها مكان منذ قرن من الزمن مدفوعة بروح التمرد ضد الظلم والاضطهاد.. فعائلة العلي كانت أصلاً تعيش في الساحل السوري حتى منتصف القرن التاسع عشر. ولكن نزاعاً مسلحاً بين جده الأكبر وقائد الحامية العثمانية في تلك المنطقة قتل على أثره الضابط العثماني اضطر العائلة إلى الهرب باتجاه الشرق على أطراف البادية السورية حيث وجدت لها مستقراً في منطقة السلمية، ولو إلى حين... ودخلت العائلة في صراع مع إقطاعي المنطقة الشرقية، ولم يكن والده في يوم من الأيام يقبل الضيم أو الخنوع بل

كان يتمرد على ظلم الإقطاعي حتى ولو كلفه ذلك مطاردة عائلته
والبطش بها وتهجيرها إلى منطقة أخرى .

وفي بداية العشرينات من هذا القرن وأثناء فترة الاحتلال الإفرنسي
لسورية كانت عائلته سباقة في التصدي إلى الاحتلال الإفرنسي، كما
تصدت دائماً لظلم الإقطاعيين وتردت عليهم حتى ولو كلفها ذلك عدم
استقرارها وتهجيرها .

لقد كانت أفكار التمرد والعصيان ترهب وتقض مضاجع الإقطاعيين
وأسياد القرى وكان هؤلاء غالباً ما يتوصلون إلى ضرب هذه الأفكار
وإفراغها من كل أثر إما بالعنف أو بشراء الذمم أو بالاستعانة بجنود
الإحتلال أو التهجير وكانت هذه الوسيلة الأخيرة من نصيب أسرته .

وبعد الحرب العالمية الثانية استقرت عائلته في منطقة الغاب التي كان
الإقطاع فيها ضعيفاً... ولقد هيأت له هذه الحياة على الرغم من قساوتها
تنوعاً مدهشاً في المشاهد والاكتشافات والمعارف. واغتنت ذاكرته بالصور
والوقائع والأحداث التي دفعته بقوة فيما بعد وفي فترة فتوته إلى اختيار
الكفاح طريقاً له في الحياة. وأن يضع معنى واحداً لحياته كلها يتمثل في
مجاهدة الإقطاع والحد من سيطرة الأغنياء المستغلين والدفاع عن حقوق
الفلاحين البسطاء في الحرية والعيش بكرامة. وارتسمت إلى الأبد في مخيلته
ألوان الاضطهاد التي كان يسومها الإقطاعيون لفلاحهم، وضروب

التنكيل والاستغلال البشع التي كانوا يوقعونها بهم، وبشكل يتساوى مع حملات وأشكال القمع والإضطهاد التي كان يقوم بها جنود الاحتلال من طرف ثان، لتكتمل الصورة بأفطع وأقسى صنوف الظلم والقهر التي لا تنعكس مظاهرها وآثارها على المخطاط الحياة وجفافها فحسب، إنما تبقى آثارها على أجساد الفلاحين وأرواحهم المهزومة.

وبدت الحياة كما لو أن القدر يأبى أن يترك لهؤلاء المقهورين أي فرصة للعيش أو أي أمل فيه عندما وصل ضجيج الحرب إلى تلك القرى، وهزت انفجاراتها بيوتها الطينية وأقلقت صمتها الأبدي الحافل بالذلل والحرمان. كان من الصعب تخيل المفارقات التي انطوت عليها تلك الفترة. ففي الوقت الذي كان ينحس فيه المطر وتيبس الأرض، وتختق البذور في تربتها، ويعز على الناس الغذاء حتى لا يجدون ما يقتاتون به إلا عشب البراري، كانت طائرات المتقاتلين تزرع سماءهم باللهب وتقصف قراهم بالقنابل فتمنحهم جحيماً ضارياً لا راد له يبدو فيه الإقطاعي المكثز بالصحة والملذات الشيطان بعينه الذي لا يتورع عن اختلاس نموين الفلاحين الضئيل من سكر ودقيق الذي توزعه السلطات المحلية للفلاحين بالحد الذي يمكن أن يدفع عنهم الموت فقط.

تلك هي الصور التي تلبست روحه منذ وعى على الحياة. وانطبعت في أحاسيسه كأثلام لا تفارقها حتى بعد زمن طويل تغيرت فيه الحياة إلى

هذا الحد أو ذاك. والتصقت به كجلده تحمله إليها أجنحة من الذكرى كلما تحسس عالمه الأفضل الذي وصل إليه. والمتبع لأعماله الروائية، وهو الذي اتجه إلى الكتابة في سن متأخرة، سيكتشف دون جهد أثر تلك المرحلة في أعمال نفسه، وأثرها بالتالي على تكوينه الأدبي والفكري. والحق أنه ما استطاع أن يخرج من أسارها. ظلت تشده إليها وكأنما تحدث الآن. وفي أعمال عديدة لشدة ما تشربت بها روحه، ما استطاع أن يعطي عنواناً واحداً لموضوعات مختلفة سوى كلمة «الطفيان»... وهو عنوان الثلاثية التي استوحى موضوعاتها من تلك الفترة من حياة الفلاحين. لأنه لم يكن قادراً طالما أنه أمسك بالقلم على أن ينسى أباه أو أحد أقاربه أو أحد معارفه وهو ما يزال على قيد الحياة ويحمل فوق ظهره أو وجهه ندبة عريضة من سياط السادة أو بنادقهم في تلك المرحلة.

لقد رافقته تلك الأحاسيس والصور في مراحل حياته المتنوعة والحافلة بالتجارب، (والتي أصاب فيها بعض النجاح)، فكانت هادياً له في علاقته مع العالم والناس وميزاناً ذا سطوة في تفسير الاكتشافات والحقائق التي تمر به. فما أولى ظهره لبسطاء الناس الذين خرج من بينهم، وما انسلخ عن عبق الحياة القديمة بشقائها ومآسيها، وما نسي أنفاسهم وروائح عرفهم ودفء أجسدهم. لقد كانوا بالنسبة له دائماً المحيط الطبيعي الذي يمدده بالحياة والسعادة.

وما كانت المراحل اللاحقة في حياته إلا فسحات صغيرة جهد فيها نفسه ليثبت تلك الصور في الذاكرة والوعي والمشاعر ويغتني بتجارب إضافية، لا لكي تعينه على الكتابة في المستقبل، وهو الذي لم يفكر بالكتابة إلا في وقت متأخر، حتى يتسلح بعدة الحياة المناسبة للكفاح الذي اختاره من أجل التغيير والنضال ضد الظلم والأوضاع الجائرة التي يرسيها. لا سيما أن رياح التغيير كانت قد بدأت تهب في جنبات المجتمع السوري آنذاك.

ففي نهاية الحرب العالمية الثانية وحصول البلاد على استقلالها وجلاء القوات الأجنبية عن أرضها كان قد أنهى تعليم الكتاب (الملا) وحفظ القرآن الكريم وأتقن علوم اللغة والتجويد. ولأن تغيراً أراد والده أن يرسله إلى مدارس المنطقة الساحلية لمتابعة تعليمه هناك نظراً لعدم وجود مدارس في منطقته.

لقد أدرك والده بحسّه الواقعي أن العلم هو العدو الحقيقي والرئيسي للاقطاع طالما أنه يحاربونه كما يحاربون الوباء ويقاومون قيام أي مدرسة كما يقاومون أي تمرد. وهو لهذا الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من القضاء عليهم. وهكذا قرر إرساله إلى مدرسة في جبال الساحل. لكن سوء الأحوال المادية والظروف الصعبة التي عاناها في ذلك العام اضطرت له للعودة إلى أهله. وفي العام الذي تلاه ذهب إلى حماة ودخل في مدرسة دينية تدعى «المحمدية الشرعية» وانتسب فيها إلى الصف الخامس مباشرة.

وتابع دراسته في حماة من عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥١ حيث حصل على الشهادة الإعدادية من ثانوية «ابن رشد» الداخلية التي كانت تعطي بعض المقاعد للفقراء.

في تلك الأثناء كانت مدينة حماة مدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها المئة ألف نسمة. وكانت تعيش فيها خمس أسر أو ست أسر من الإقطاع التي تملك ريف وأراضي المحافظة. منها أسرة العظم والبرازي والكيلاني والبارودي. في حين كانت عدة أسر ثرية أخرى تهيمن على البازار والسوق التجاري الذي تتجمع فيه الأموال ومحاصيل الفلاحين. بينما كانت بقية الناس تعيش في فاقة تفصلهم عن الأغنياء والموسرين هوة عميقة تتنامى باستمرار.

في سنوات الدراسة تلك اندفع إلى قلب حياة المدينة، التي تعيش تناقضات طبقية عنيفة. جوهرها واحد لا يختلف عن جوهر التناقضات الطبقية في الريف وإن بدا أنها أقل وطأة منها. وإلى هذا العهد تعود معرفته بالعلاقات الاقتصادية التي تربط القرية المدينة. ودور الخانات والتجار في استغلال الفلاحين القبيح وآلية وأساليب دورات الاستغلال هذه التي تعتمد أساساً على جهل الفلاحين وحاجتهم إلى المال والدين لفك عثراتهم المتلاحقة. ولم يكن من باب المصادفة أن تكون رواية «المرابي» التي تناولت موضوعها من هذه البيئة ومن هذه العناصر أول رواية له. ذلك أن

تلك الحانات الاستغلالية مع مخافر الدرك في زمن الفرنسيين مع قصر
البيك كانت تمثل مجتمعة رموز الطغيان الكريهة التي تسلب خيرات
الأرض وتسوم الناس بعقوبات تبدأ بالتجويع ولا تنتهي بالجلد حتى لا
يفكروا بالاحتجاج والعصيان يوماً ما.

كانت السياسة تعني عنده الكفاح ضد ظلم الإقطاع. ولذلك كان
أول عمل قام به وهو على مقعد الدراسة الانتساب إلى حزب الشباب
الذي كان يطرح بعض قضايا هذا الصراع. وفي عام ١٩٤٨ أصبح عضواً
عاملاً فيه، وسمي الحزب فيما بعد بالحزب العربي الاشتراكي. الذي
اندمج في مطلع الخمسينات بحزب البعث ليؤلفا سوية حزب البعث العربي
الإشتراكي. وجاءت الأحداث متلاحقة لتفني الأفكار السياسية في ذلك
الوقت. لقد نشبت حرب عام ١٩٤٨ وتلتها الهزيمة والنكبة التي هزت
مشاعر الناس وانتفضت البلاد من أقصاها إلى أقصاها وخرجت الجماهير
إلى الشوارع والساحات في كل مكان تتساءل عن أسباب الهزيمة ومصير
فلسطين وعمما يجئ لها المستقبل. ونشطت في تلك الفترة الأحزاب
السياسية كافة واحتدم الصراع بينها وبين الإقطاع والبرجوازيات الكبيرة.
وفي مدينة حماة لعب المعلمون دوراً رئيساً في هذا الصراع الذي اتخذ
أشكالاً عديدة من المواجهة والمراك إلى المظاهرات والاضطرابات، إلى
كتابة المناشير والتحريض والتوعية، وتوزيع المناشير على الفلاحين في

القرى لأنهم يشكلون الكتلة الكبيرة التي يمكن أن يعتمد عليها في أي انتفاضة أو ثورة. ولعبت الأحداث السياسية اللاحقة دوراً جديداً في تعميق الصراع وتطوره وصارت النضالات المطالبة والقضايا الوطنية والقومية متلازمة. فخرجت المظاهرات الغاضبة ضد اتفاقية رودس. وحدث على أثرها أول انقلاب عسكري قاده المشير حسني الزعيم، لكنه لم يدم أكثر من شهر حتى انكشف على حقيقته وأسفر عن وجه ممالي للإقطاع والاستعمار ولم يأت مجدد للطبقات المسحوقة.

عاش هذه الأحداث بكل كيانه وتتبع انعكاساتها على الفلاحين وأهل المدينة في حماة، وشارك بفعالية قصوى في أعمال حزب العربي الاشتراكي الذي اندمج فيما بعد بحزب البعث العربي ليشكلاً حزباً واحداً - اسمه حزب البعث العربي الاشتراكي.

وأخذت الأفكار الاشتراكية منحى آخر أكثر واقعية وأشد وضوحاً. وكان لا بد من تقويتها وتصليبها بمزيد من المشاركة الفعالة في الأحداث الوطنية. ولم تحدث مظاهرة أو إضراب في تلك الفترة لم يشارك فيها. وقد أمدته حياته بين البدو وسنوات الرعي بأسلحة ما كانت تخطر على بال. وهي حسن استخدام «المقلاع». كان يستطيع أن يصيب أي هدف وكأنه يستخدم بندقية. وكان مع بعض الرفاق والزلاء الطلبة يستطيعون إغلاق أسواق المدينة الرئيسة باستخدامه فقط. أو أن يهزموا فصيلاً من الدرك المدجج بالسلاح الناري.

لقد خاضوا معارك كثيرة في المدارس والساحات وأمام دار الحكومة وقصور الإقطاع. ومنذ ذلك الوقت بدا له واضحاً جلياً أنه بوحدة الصفوف وبالوعي الطبقي يمكن أن تهتز الأرض تحت عروش هؤلاء المترعمين.

كان من الصعب عليه وهو في المدينة أن ينسى الإقطاعي الذي عاد إلى القرية بعد رحلة صيد غير موفقة، فأخذ يطلق العيارات النارية بفوضى وهستيرية حتى أصاب أحد الفلاحين وأرداه قتيلاً. ويصعب عليه أيضاً أن ينس حياة الحصادين المرششرين عرقاً ودموعاً يتعرضون لضربات الشمس التي كانت تودي بحياة الكثيرين منهم. وقد ارتبط كل ذلك بشكل لا تنفصم عراه مع قبان «حجبي» الخان الذي يغش في الوزن ويقرض بالفائدة. لم يتوقف عند استعادة الذكريات المؤلمة والانفعال النفسي بها، إنما أخذ يترسم معالم الطريق المؤدية إلى تغيير هذا الواقع الكريه. وكان هذا يمدّه بمزيد من الاندفاع والزرخم. ومع أنه شارك بحماسة وإخلاص في معارك الأحزاب التقدمية السياسية في تلك الفترة، إلا أن ذلك لم يسفر عن نتائج ثابتة وراسخة ولم تكن أكثر من آلام المخاض قبل الولادة.

لكن ذلك لم يؤثر على تفاؤله بالمستقبل، ولم يشوه أحلامه العريضة في التغيير. الأمر الذي وضعه أمام قناعة ثابتة هي أنه يجب أن لا يتوقف عند حد، وأن يمضي في الحياة بسهولة لا يلين أمام صعابها ولا يلوي عنق

المراحل لخدمة أغراض عابرة. إنما يهيء نفسه لشورة قادمة بدأت
ارهاصاتها تتوضع في أرض الواقع.

في عام ١٩٥٣ غادر قريته إلى حوض الفرات وعمل في القرى هناك
وكيلاً لمعلم ثم معلماً مثبتاً. في البداية علّم البدو. ورغم معرفته بهؤلاء
الناس سابقاً ومعايشته الحقيقية لهم في مراحل طفولته، إلا أن هذه التجربة
كمعلم بينهم أغنت معلوماته وانطباعاته عنهم أكثر فأكثر، واستطاع في
تلك الفترة أن ينفذ إلى أعماق هذا المجتمع الذي يبدو ظاهرياً غريباً، وأن
يطلع عن كثب على أساليب تفكيرهم ومعالجاتهم للقضايا الحياتية التي
تمر بهم. وطرائق معيشتهم ذات العناصر البسيطة ومدى تأثيرها على
وعيهم. وربما لهذه التجربة الغنية بالذات يعود الفضل الأول لكتابه رواية
«التحول الكبير» التي اتخذت من سد الفرات العظيم الذي بني بمساعدة
الإتحاد السوفيتي (سابقاً) مادة وموضوعاً لها.

وفي سنوات تعليمه تلك لم يكن يعتبر نفسه معلماً موظفاً يلقر التلاميذ
أصول القراءة والكتابة فقط. كان يشعر بمسؤولية تجاه كل مجتمع يعيش
فيه. هي أن يشارك في تفصيلات حياته اليومية ومشكلاته وشوؤونه.
ولذلك حمل معه إلى هذه البيئة البكر أفكار حزب البعث العربي
الإشتراكي الذي ينتمي إليه، وخاض معهم جولات وجولات من
النقاشات والتحاور، يقرب من خلالها أفكار الحزب إلى أذهانهم وعقولهم.

وعندما اكتشف أمره من قبل السلطات المحلية، وكان الحزب وقتئذٍ يعيش عهداً سرياً، اعتقل وأودع السجن عام ١٩٥٤ لكنه لم يبق فيه سوى يوم واحد. لأنه في اليوم الثاني من اعتقاله حدث الانقلاب على الرئيس الشيشكلي وأفرج عنه.

وربما ستلعب أمثال هذه المصادفة دوراً مدهشاً في حياته اللاحقة. وستلعب دوراً عجبياً في إنقاذه من الموت المحتم. وذلك عندما قامت ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ قبل يوم واحد من تنفيذ حكم الإعدام به. الأمر الذي سيأتي تفصيله بعد قليل.

بدأ حياته العسكرية عام ١٩٥٤. التحق بمدرسة الرتباء في مدينة قطنا القريبة من دمشق. وقضى فيها مدة الدورة وهي ستة أشهر تخرج بعدها منها برتبة عريف. وفي هذا العام أعتيل العقيد الوطني عدنان المالكي الذي كان مشرفاً على مدارس الرتباء التي تنتمي إليها مدرسته. كان يرعى مباراة في كرة القدم وكان حاضراً بين الجمهور. وفي اليوم الثاني اشترك في مراسم الدفن وكان من الجنود الذين ساروا في حراسة النعش. كان المالكي من الوطنيين المتحمسين للقومية العربية وكان حليفاً لحزب البعث العربي الاشتراكي، وقد هز اغتياله النفوس وملاً القلوب بالاستنكار والغضب.

بعد تخرجه من مدرسة الرتباء عين في الجولان رئيساً لمخفر عسكري قريب من بحيرة طبريا. حين وقعت أثناءها معركة حامية مع القوات

الصهيونية المتمركزة في مواجهة مخفره. واستشهد قائد سرية. وعلى أثر المعركة نقل الفوج بكامله إلى القطاع الشمالي من جهة الجولان. وأصبح رئيساً لمخفر عسكري مقابل مستعمرة «كفر شامير» بقي هناك حتى عام ١٩٥٦ حيث انتهت مدة خدمته الإلزامية وسرح بعدها من الجيش. لكن بعد أن درس الثانوية وحصل عليها وهو في الجندية.

بعد تسريحه بيوم واحد جرت حرب السويس والعدوان الثلاثي على مصر. فأعيد ثانية إلى الخدمة برتبة رقيب. وتقدم بعدها بطلب إلى الكلية الحربية والتحق فيها عام ١٩٥٧ متأخراً عن الدورة ثلاثة أشهر وقبل فيها لأنه أدى الخدمة العسكرية الأمر الذي ساعده في اللحاق بزملائه في الكلية. وفي الكلية كان طالباً نشيطاً معروف الإلتواء إلى حزب البعث العربي الإشتراكي. وكان هذا أمراً غير مرغوب فيه ورغم التنبيهات الكثيرة فقد واصل نشاطه الحزبي، وكانت قضية الوحدة هي القضية التي يتركز حولها فكره ونشاطه الحزبي كبعثي. وبطبيعة الحال لم يكن هذا يرضي الكثيرين من الضباط. مما حال بينه وبين التخرج من الكلية إلا في دورة لاحقة. وبعد قيام الوحدة التحق بالكلية الحربية في القاهرة وتخرج منها عام ١٩٥٩ برتبة ملازم وعين في كتيبة المظلات المتمركزة في القاهرة.

— اتبع دورات عسكرية مختلفة كقائد سرية في سلاح المشاة، وكمدرّب في الصاعقة ومدرّب في المظلات، ورفع إلى رتبة ملازم أول.

وفي الفترة التي قضاها في مصر ربطته علاقات طيبة بالجنود والضباط المصريين وأحب مصر والمصريين وجاءت الوحدة لتنعش الآمال وتحقق ما ناضل من أجله طويلاً، لكن لم يمنع أن يعارض فكرة حل حزب البعث العربي في سورية كما طلب القادة السوريين. وعندما خضع قادة الحزب لهذا القرار وحلوا الحزب. أبدى استنكاره أمام أحد قادته البارزين يومذاك وهو صلاح البيطار وكان موجوداً في القاهرة. وأعلن أن هذا الأمر يعد خطيئة تاريخية كبرى. لكن ذلك لم يؤثر على علاقاته مع الأخوة المصريين ولا على موقفه المبني من مسألة الوحدة بين مصر وسورية. وتابع نشاطه العسكري بكل إخلاص.

- عمل دورة مدرب صاعقة في انشاص الواقعة في المنطقة الشمالية الشرقية للقاهرة.

قفز من الحوامة دون مظلة عن ارتفاع ٨٠ متراً على سطح مياه النيل، مع أنه لا يجيد السباحة! وكان الرئيس جمال عبد الناصر يرعى حفل التخرج فتقدم منه بعد نهاية العرض وأثنى عليه.

وعندما حدث الانفصال كان موجوداً في القاهرة. وكان من أشد المعارضين للانفصال واعتبره جريمة كبرى ضد التاريخ العربي الحديث يجب أن يحاسب عليها مرتكبوها.

عاد بعدها من القاهرة حاملاً الكثير من الإنطباعات عن الجنود والضباط المصريين الذين يملكون حساً وطنياً كبيراً وقدرة هائلة على

التحمل والصبر. وعندما وصل إلى دمشق حاول التلفزيون السوري إجراء مقابلات مع الضباط العائدين لاستدراجهم للإساءة لمصر ولعبد الناصر. لكنه رفض هذه المقابلة.

وفي هذه الفترة سُرح العديد من الضباط البعثيين ومنهم الرئيس حافظ الأسد. ونقلت وحدته إلى معسكر رسم العبود الواقع في شرق حلب.

هناك مقولة لعبت دوراً أساسياً في حياته وهي أن الجيوش إذا امتكلت الوعي الطبقي إلى جانب الإحساس الوطني يمكن أن تكون قوة مؤثرة في مجرى التحولات الثورية. وخصوصاً في بلدان العالم النامي التي تلعب فيها الجيوش عملياً. دوراً رئيساً في السياسة.

لقد لعب الجيش السوري في فترة ما بعد الإستقلال حتى بداية الستينات دوراً أساسياً ووحيداً في تغيير الحكومات من خلال الانقلابات المتعاقبة. لكن قاداته في ذلك الوقت لم يكونوا يحملون أية صيغة من صيغ الحكم الوطني أو الشعبي. واندفعوا بغلو باتجاه الانقلابات ضمن نطاق الصراعات التناحرية للوصول إلى السلطة. ونسوا إلى حد كبير مسؤولياتهم الوطنية في الدفاع عن الأرض، وتطوير البلاد. كانوا يمثلون الطبقات والشرائح العليا في المجتمع وكانوا يعملون على خدمتها في السياسة والإقتصاد. وآل الأمر ببعضهم إلى التآمر على مستقبل البلاد وعقد

الصفقات السياسية والإقتصادية السرية التي تربط البلاد بعجلة الإستعمار الحديث وترتهنها لمشيئتها ومخططاتها.

لكن الذين عايشوا الجنود السوريين على الجبهات ومواقع القتال مع العدو الصهيوني، وتلمسوا الجذور الطبقيّة لهؤلاء الجنود في القرى والمدن، يدرك تماماً أنهم سيكونون يوماً ما ساعد الثورة الأيمن التي ستعمل من أجل قضايا وطنية قومية ملحة كالوحدة العربية الإشتراكية نصيرة الفقراء والعمال والفلاحين والكادحين.

من هذه الفكرة انطلق إلى تحديد علاقته بعمله العسكري. كان يشعر أن الجندي الذي يقف صامداً على الحدود للدفاع عن أرض الوطن ضد أخطار العدو الصهيوني، سيعي يوماً ما أن عمله هذا سيكون ناقصاً على الرغم من عظمته ما لم يكتمل في الدفاع عن المستغلين من أبناء وطنه الذين يعمرن هذه الأرض وتخليصهم من قهرهم وفقرهم التارخييين.

لقد لاقت أفكار حزب البعث العربي الإشتراكي التي تتمحور حول هذين الهدفين، والتي تربط بقوة بين التحرر الوطني والتحرر الإجتماعي، انتشاراً واسعاً بين صفوف المواطنين، وفي صفوف الجنود والضباط في الجيش. وكان لاغتيال عدنان المالكي القائد العسكري الوطني أكبر الأثر على نفوس الناس الذي لفت أنظارهم إلى هذه المؤسسة الوطنية التي يمكن أن يكون الخلاص على يديها.

وبالنسبة له فقط اتخذ قراراً شخصياً ينسجم مع مشاريع حزبه الذي كان يعيش عهداً سرياً. لقد راعه عهد الإنفصال بانقضاضه على المكاسب الوطنية والقومية التي تحققت سابقاً، فبعد قضائه على أول وحدة عربية

بين قطرين في تاريخ العرب الحديث، اتجه نحو المكاسب والقرارات
التقدمية التي أنجزت في عهد الوحدة ليقضي عليها ومنها مثلاً قانون
الإصلاح الزراعي الذي أعطى الفلاحين بعضاً من حقوقهم. وكان الغلو
في مناهضة المد الجماهير ومحاربة التقدم إيداناً لحزب البعث العربي
الاشتراكي الذي يجمع بين قاداته العديد من الضباط المسرحين للقيام بعمل
ثوري يوقف عهد الانفصال عند حد إن لم يكن ليلغيه.

هكذا تلقى التعليمات من حزبه بأن يقوم تنظيمه الحزبي العسكري
باحتلال مدينة حلب. وكان قائداً لسرية في كتيبة المظلات المتمركزة
حول حلب. وقد اختلف معه بعض الضباط في الكتيبة فسيطر على الكتيبة
كلها، وفي الساعة الثانية ليلاً من الأول من نيسان عام ١٩٦٢ احتل
بالكتيبة حلب وسيطر على المدينة بكاملها قبل شروق الشمس. وكانت
جماهير المدينة معه ولم يجد أي احتكاك مع المواطنين لأن حلم الوحدة كان
شغلها الشاغل. في تلك الأثناء كان من المفروض أن تتوافق مع عملهم في
حلب عمليات أخرى في بقية المحافظات كحمص ودمشق. لكن
الاختلافات الشديدة في مؤتمر حمص، وتراجع بعض القادة العسكريين عن
تنفيذ عهودهم أدى إلى إخفاق عملية حلب.

حيث عادت حمص التي تتواجد فيها قوات عسكرية وتعاونت مع
القيادة في دمشق ضد الحركة في حلب.

عندها عقد مؤتمر لقيادة القطعات العسكرية حضره الملازم الأول
محمد إبراهيم العلي رغم أن المؤتمرين لم يعترفوا به كون رتبته صغيرة.
بينما كان أقل ضابط في المؤتمر بربة مقدم. وكان للملازم الأول دور
فعال في المؤتمر حيث أصر إصراراً كبيراً على ضرورة إبعاد عبد الكريم

النحلاوي وجماعته الذين تمردوا على الإنفصال مع أنهم كانوا قبل حينه قادة الإنفصال. ولا بد من الإشارة أن لموقف الملازم الأول محمد إبراهيم العلي في وجوب إقصاء النحلاوي وجماعته عن سورية اللبنة الأولى في ثورة الثامن من آذار لأنها أزاحت إحدى المعوقات العسكرية الأساسية من طريقها والمتمثلة في النحلاوي وجماعته.

لكن عملية حلب أخفقت وألقي القبض عليه وأدخل السجن مع عدد كبير من رفاقه العسكريين منهم (حافظ الأسد)، حيث بقي فيه أحد عشر شهراً وحكم عليه بالإعدام بتهمة التمرد العسكري.

كانت المحاكمات طويلة جداً استغرقت ثمانية شهور وقد شارك فيها مئات الشهود وصدق تنفيذ مرسوم الحكم في التاسع من آذار عام ١٩٦٣. وطلب منه أن يقدم استرحام لرئيس الجمهورية ولكنه رفض كما رفض الهرب من السجن.

في تلك الفترة كان مادة للإعلام العربي وخصوصاً المصري منه. وكانت إذاعة صوت العرب من القاهرة تصرح يومياً على قضيته. بينما خرجت جماهير سورية من أقصاها إلى أقصاها في مظاهرات ومسيرات احتجاجية تطالب السلطات بالإفراج عنه. كان يمثل في نظرها قضية هي قضية الوحدة أولاً. لقد أثر في نفسه عميقاً ذلك التعاطف الشعبي الرائع في قضيته. وقاده إلى قناعة ثابتة هي أن أي تضحية مهما عظمت تظل صغيرة وضيئلة أمام حب الجماهير الجارف.

لقد كانت هذه الحركة تمهيداً أولاً لثورة الثامن من آذار التي قامت عام ١٩٦٣. ووضع لها اللبنة الشعبية الأولى، واقتلع من أمامها كل

المعوقات. وفعل الرفاق في الحزب حسناً عندما قدموا موعد قيامها عدة أيام لتصادف الثامن من آذار، أي قبل يوم واحد من موعد تنفيذ حكم الإعدام به.

بعدما أنقذ من الموت وخرج من السجن والتحق بكتيبة حراسة الأركان التقى بفصيل الإعدام الذي كان سينفذ الحكم به. وكانت هذه من المفارقات المدهشة التي مرت به في حياته.

بعد ثورة الثامن من آذار تسلم قيادة الحرس القومي بقرار من قيادة الثورة في سورية. ليصبح فيما بعد عام ١٩٦٧ باسم الجيش الشعبي، وما يزال في قيادته حتى الآن.

اشترك في جميع الأحداث التي مرت في سورية. واشترك بالرأي والفعل في القضاء على كل المؤامرات التي تعرضت لها الثورة.

ومن الأحداث الهامة التي تركت بصماتها على تاريخ سورية الحديث كانت حركة ٢٣ شباط عام ١٩٦٦ التي أقصت رموز التيار اليميني المناور في الحزب عن سدة الحكم وكان لمحمد إبراهيم النلي دوراً أساسياً في تلك الحركة والتي أرسى أسس التفكير العلمي والمنهجي في حزب البعث العربي الاشتراكي. وكان أن تعرض للإغتيال والموت أكثر من مرة على أيدي الرجعيين والمتآمرين..

ففي الثامن من أيلول عام ١٩٦٦ تعرض لمحاولة اغتيال قام بها المتمردون من الجيش، حيث ألقوا القبض عليه خدعة ووضعوه في زنزانه عليها حراسة مشددة، وحاولوا إطلاق الرصاص عليه، لولا فشل العصيان الذي قامت به هذه الحركة وهروب قادتها.

لقد كانت معرفته بالرئيس حافظ الأسد الأمين العام للحزب قديمة تعود جذورها إلى الفترة التي قضياها في مصر أثناء الوحدة. حيث تولدت علاقاتهما وتعاوننا طيلة تلك الفترات التي نشط فيها الحزب سراً وعلناً، قبل وصول الحزب إلى السلطة عام ١٩٦٣ وما بعده. وكان أن عمل بإخلاص للحركة التصحيحية التي قادها الأمين العام للحزب الرئيس حافظ الأسد عام ١٩٧٠ وبقي مخلصاً وأميناً لأفكاره وقيادته حتى الآن. اتبع دورة قائد كتيبة - ثم التحق بالأكاديمية العسكرية راتب دورة أركان حرب.

وكان له الشرف الكبير الذي يعتز به كثيراً، أن يكون أحد المؤسسين لمنظمات الثورة الفلسطينية منذ بداية تشكيلها السري حتى وبعد إعلانها عام ١٩٦٥. وله الكثير من الأصدقاء في صفوف القادة الفلسطينيين. بدأت علاقته بالأدب عام ١٩٧٧. ونشرت أولى رواياته في أواخر هذا العام بعنوان «المرابي» عام ١٩٧٨ نشر رواية «الطغيان» - الجزء الأول. ثم «الطغيان» - الجزء الثاني والاطغيان الجزء الثالث و«المرابي» - الجزء الثاني والقناديل الجزء الأول والقناديل الجزء الثاني بعنوان المطاردون. وعن حرب تشرين عام ١٩٧٣ كتب رواية «نجمة الصبح» التي ترجمت إلى اللغة الروسية.

ثم روايته الذئب عن الصراع العربي الإسرائيلي. وروايته المرابي الجزء الثالث بعنوان «الخان»، ثم روايته المرابي الجزء الرابع بعنوان «المحطة» وهذه روايته المرابي الجزء الخامس بعنوان «العجربة» ومجموعة قصصية وكتاب عن حياة كيم إيل سونغ والشعب الكوري.

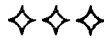
وهكذا كانت حصيلته الأدبية حتى الآن ثلاث عشرة رواية ومجموعة
قصصية واحدة.

وهو عضو في اتحاد الكتاب العرب وله مساهمات فعالة في نشاطاته
وعلى الأخص ما يتعلق منها بتطوير علاقات التعاون والصداقة بين اتحاد
الكتاب العرب واتحادات الكتاب في بقية البلدان الصديقة. والدول العربية
والعالم.

منح عدد كبير من الأوسمة في سورية لإخلاصه الوطني - ومنح
الوسام الحربي من الدرجة الأولى بحرب تشرين عام ١٩٧٣.

منح عدة أوسمة من دول أجنبية، ومنح وسام الصداقة مع الشعوب
بمرسوم من قبل مجلس السوفييت الأعلى في الإتحاد السوفييتي في ١٨ آب
١٩٨٧.

- تزوج من عزيزة عبد الهادي العلي من مواليد ١٩٤٥ من قريته وله
سنة أولاد.



صدر للمؤلف

١٩٧٧	الجزء الأول	- المرابي
١٩٧٨	الجزء الأول	- الطفيان
١٩٧٨	رواية	- التحول الكبير
١٩٧٩	الجزء الثاني	- الطفيان
١٩٨٠	الجزء الأول	- القناديل
١٩٨١	رواية	- نجمة الصبح
١٩٨٢	«القناديل الجزء الثاني»	- المطاردون
١٩٨٣	الجزء الثالث	- الطفيان
١٩٨٤	«المرابي الجزء الثاني»	- المخاتير
١٩٨٧	مجموعة قصصية	- شوك الدردار
١٩٨٨	رواية	- الذئاب
١٩٩١	«المرابي الجزء الثالث»	- الخنان
١٩٩٢	كتاب عن حياة كيم إيل سونغ والشعب الكوري	-
١٩٩٤	«المرابي الجزء الرابع»	- المحطة
١٩٩٤	«المرابي الجزء الخامس»	- الفجرية

تحت الطبع للمؤلف

- | | |
|-------------------------|------------|
| «القناديل الجزء الثالث» | - المتردون |
| «القناديل الجزء الرابع» | - الثائرون |
| رواية | - الدولاب |
| المرايبي الجزء السادس | - الوكلاء |

* * *



﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة

وهي تمر مرّ السحاب ﴾

صدق الله العظيم



الدنيا مقلوبة والغد أفضل

دار الندى للنشر - دمشق - شارع الروضة - هـ : ٣٣٣٨١٦١

السعر ٢٠٠ ل.س